

أدونيس

غبارُ المدن يؤسُّ التاريخَ



غبار المدن يؤس التاريخ

أدونيس

غبار المدن بؤس التاريخ



هذا الكتاب مُجازَ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتماً بمشاركة هذا الكتاب مع شخص آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافية لكل شخص. وإذا كنت تقرأ هذا الكتاب ولم تشتريه، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلف الشاق.

©دار الساقى

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٥

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٦

٩-٠٠١٤-٠٣-٦١٤-٩٧٨-ISBN

دار الساقى

بناية النور، شارع العوينى، فردان، بيروت. ص.ب.:

٥٣٤٢/١١٣

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٢، فاكس: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٣

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على



DarAlSaqi@



دار الساقى



Dar Al Saqi

مقدمة

هيام الانشقاق والزفرض

- ١ -

يكشف "الربيع العربي" عن هيام عريق عند العرب، هو هيام الانشقاق والزفرض، ذلك الذي عرفه تاريخنا في جميع مراحلها. فهو جزء عضوي من البنية السياسية العربية، منذ نشوء "الدولة" الإسلامية الأولى، "دولة" الخلفاء.

وقد عبر عن نفسه دائماً، وعلى نحو مباشر، برفض السلطة القائمة. لم يُغنَ بالمجتمع في ذاته، وإنما غُني بحكمه، وبمن يتولى هذا الحكم. ولم يهتم بتغييره، إذ يفترض فيه أنه مجتمع كامل بالإسلام الذي ارتضاه ديناً وحياءً، وإنما اهتم بانحرافات السلطة، أي بالقضاء عليها، وإحلال سلطة جديدة محلها.

وكان جمهور هذا الهيام اثنين: الأول غير منظم، مجموعات من الأفراد، تطالب بمزيد من الحريات والحقوق، في الميادين المعرفية بخاصة، دون اهتمام مباشر بالسلطة. والثاني منظم يعمل، أساسياً، على الوصول إلى السلطة واستلام مقاليدها.

وتؤكد التجربة التاريخية أن هذا الهيام بقي جراكاً سياسياً - سلطوياً، ولم يتناول بُنى المجتمع العربي، إلا مع القرامطة، وكان ذلك أمراً عابراً واستثنائياً، وإن كان، تاريخياً، أمراً عميق الدلالة.

ولا تنقصنا الأمثلة في العصر الحاضر: الثورات: عبد الناصر، وحزب البعث في بغداد ودمشق، والقذافي، تمثيلاً، لا حصراً. فلم تكن هذه "الثورات" إلا استحواداً على السلطة، واستئثاراً بها، واتخاذها وسيلة لطفيان تأري، على جميع المستويات. وهكذا أذت إلى مزيد من الفساد، ومن التفكك والانهدام.

- ٢ -

يؤكد لنا هذا الواقع التاريخي أنَّ الثورة في المجتمع العربي لا تتم إلا إذا كانت قطيعةً مع ماضيه المتواصل: لا مع السلطة وحدها، وإنما مع البنى والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والدينية.

ونعرف جميعاً أن تفكك نظام الخلافة في العالم العربي أدى إلى نشوء أنظمة متعددة، استنسخة كل منها، تبعاً لأوضاعه وحاجاته ومصالحه، تاركاً نظام المجتمع كما هو: دينياً - قُبلياً، ينهض على رؤية قروسطية، في كل ما يتعلق بالإنسان الفرد، وبحقوقه وحزباته، وبخاصة المرأة. وهكذا بقيت العلاقة بين الناس والنظام علاقة انتماءات وقربات وولاءات، في معزل كامل عن الرؤية المدنية للحياة والإنسان والمجتمع. ومارست هذه الأنظمة طغياناً تأسس، في جوانبه السياسية - الاقتصادية على "حزبة وحشية"، حزبة الامتيازات والاحتكارات، مقرونة بالتنكيل، والإقصاء، والقتل.

سقوط هذه الأنظمة، إذاً، ليس ضرورةً تاريخيةً وثقافيةً فقط، وإنما هو أيضاً ضرورة إنسانية. لقد عرف العربي في تاريخه القديم كثيراً من المهانة والإذلال، غير أن أوج هذه المعرفة يتمثل في تاريخه الحديث، تاريخ "الزبيح العربي".

ولئن كان سقوط هذه الأنظمة أقل من الخلاص، فإنه على الأقل وعُدَّ به. والتحية هنا، دائماً وأبداً، إلى أهل هذا الهيام في عصرنا الحاضر الذين يفكرون ويعملون لكي يرتقوا به إلى مستوى الثورة، - جذريةً وشاملةً.

أدونيس

(باريس، آذار / مارس ٢٠١٥)

استهلال

١. مُنْذُ أَكْثَرُ مِنْ قُرْبِ وَنِصْفِ الْقَرْنِ، وَتَحْدِيداً مُنْذُ جَمَالِ الَّذِينَ الْأَفْغَانِي، يَتَحَدَّثُ الْمَفْكَرُونَ الْمُسْلِمُونَ وَالْعَرَبُ عَنْ "الإصلاح الديني" فِي بِلْدَانِهِمْ. وَخِلَاصَةً مَوْقِفِهِمْ، كَمَا يَعْرِفُهُ الْجَمِيعُ، هِيَ الْإِنْفِتَاحُ عَلَى مَنَاجِزَاتِ الْحَضَارَةِ الْحَدِيثَةِ وَتَبْنِي كُلِّ مَا لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْإِسْلَامِ. وَهَذَا يَقْتَضِي تَأْوِيلَ النَّصِّ الدِّينِيِّ بِحَيْثُ يَنْتَفِي التَّعَارُضُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْحَدَاثَةِ. وَهُوَ تَأْوِيلٌ وَصَلَ إِلَى ذُرْوَتِهِ مَعَ مُحَمَّدٍ أَرْكَوْنَ بَعْدَ نَصْرِ حَامِدٍ أَبُو زَيْدٍ وَمُحَمَّدٍ عَابِدِ الْجَابِرِيِّ وَآخَرِينَ: تَأْوِيلٌ يَرَى أَنَّهُ لَا مَنَاضٍ مِنَ النَّظَرِ إِلَى هَذَا النَّصِّ بِوَصْفِهِ نَصّاً تَارِيخِيّاً. وَنَعْرِفُ جَمِيعاً أَنَّ "جُمْهُورَ" الْمُسْلِمِينَ رَفَضَ هَذَا التَّأْوِيلَ وَكَفَّرَ أَصْحَابَهُ وَأَصْحَابَ أَصْحَابِهِ. وَبِهَذَا الْمَعْنَى انْتَهَى تَارِيخُهُ. وَمَا سَيَقَالُ فِيهِ لَنْ يَكُونَ إِلَّا اسْتِعَادَةٌ وَتَكَرُّراً.

هَذِهِ النِّهَايَةُ تَفْتَرِضُ بَدَايَةَ هِيَ، كَمَا أَرَى، أَنَّ الْمَسْأَلَةَ، الْيَوْمَ، فِي الْمَجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ، بِخَاصَّةٍ، وَالْمَجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، بِعَاقِبَةٍ، لَمْ تَعُدْ مَسْأَلَةً إِصْلَاحٍ وَإِنَّمَا أَصْبَحَتْ مَسْأَلَةً التَّاسِيسِ لِمَجْتَمَعٍ جَدِيدٍ، قَدَنِي، يُتِيحُ التَّاسِيسَ لثقافة عربية جديدة.

٢. لَكِنْ، لَكِي نَفْهَمُ تَمَاماً الْمَعْنَى الْعَمِيقَ فِي هَذِهِ الْبَدَايَةِ وَتِلْكَ النِّهَايَةِ، لَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَعْرِفَ تَمَاماً الْوَضْعَ الْعَرَبِيَّ كَمَا هُوَ، وَكَمَا نَعِيشُهُ جَمِيعاً. وَهُوَ وَضْعٌ قَدْ نَخْتَلِفُ فِي وَضْفِهِ، وَفِي فَهْمِهِ عَلَى السَّوَاءِ. وَلَا ضَيْرَ فِي ذَلِكَ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ خَيْرًا. وَلِهَذَا أَقْتَصِرُ عَلَى تَلْخِصِ الظُّوَاهِرِ الْعَاقِبَةِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي نَتَّفَقُ عَلَى وَجُودِهَا، وَإِنْ اخْتَلَفْنَا عَلَى كَيْفِيَّةِ تَحْلِيلِهَا وَقَفْهَمِهَا، وَكَيْفِيَّةِ التَّغْلِبِ عَلَيْهَا.

أَوْجِزْ هَذِهِ الظُّوَاهِرَ فِي النَّقَاطِ التَّالِيَةِ:

أ - الْأُصُولِيَّةُ السَّلَفِيَّةُ، وَلَهَا بَعْدَانُ عَمَلِيٌّ وَنَظَرِيٌّ. يَتِمُّثَلُ الْبَعْدُ الْأَوَّلُ فِي الْعَمَلِيَّاتِ الْجِهَادِيَّةِ الْإِنْتِحَارِيَّةِ، وَفِي الْأَنْمَاطِ الْمَسْلُكِيَّةِ الْمُتَشَدِّدَةِ، وَبِخَاصَّةٍ فِي الذُّوُلِ الْغَرِبِيَّةِ الَّتِي يَقِيمُ فِيهَا الْأُصُولِيُّونَ، وَفِي غَزْلِ الْمَرَأَةِ - نِصْفِ الْمَجْتَمَعِ - وَتَغْيِيْبِهَا، وَخَجْبِهَا. وَفِي مُحَارَبَةِ جَمِيعِ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ الْمَدْنِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ فِي التَّعْلِيمِ وَالْمَدَارِسِ وَالْحَيَاةِ الشَّخْصِيَّةِ الْيَوْمِيَّةِ، وَفَرْضِ الرِّقَابَةِ بِاسْمِ الْإِسْلَامِ.

وَهُوَ بَعْدُ يَتِمُّثَلُ إِجْمَالاً فِي إِفْسَادِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ وَتَعْطِيلِهَا. وَهُوَ، مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ، غُدُوَانٌ عَلَى حَيَاةِ الْآخَرِينَ وَحَزْبَاتِهِمْ.

ويتمثل البعد النظري في عقلية العنف، أو في تأويل الإسلام عُنفياً، وعلى نحو تقليدي، سطحي وشكلي. هكذا يصبح الزجل الذي لا يدين بالإسلام كافراً، تجب الحزب عليه، أو يجب قتله. ولا يحق لمن يكون مسلماً أن يعتنق ديناً آخر، والقَتْل هو جزاء هذا الاعتناق. واستطراداً، لا تجوز معارضة السلطة التي تقوم على الدين.

ويستند هذا البعد النظري على الإيمان بأن الإسلام أكمل الأديان، وبأن نبيه آخر الأنبياء، وبأن رسالته خاتمة الرسالات الإلهية، وبأن الحقائق التي جاءت بها هي الحقائق الكاملة الأخيرة التي لا حقائق بعدها، وبأن الله قال أخز كلامه لآخر أنبيائه، نبي الإسلام.

ب - انهيار الثقافة، وأعني أولاً أن الثقافة العربية أصبحت من جهة، أفناً، أي خاضعة للرقابة السياسية والدينية، وأصبحت، من جهة أخرى، مجزأة أداة إعلامية تسيّرهما السلطة، وصارت، من جهة ثالثة، مجزأة تكرار واجترار لما قاله الأسلاف الأوائل.

وجوهر هذا الانهيار النظر إلى القول بالغة، كما يُنظر إلى العمل الجزمي: لا يحاكم الكاتب بمعيار البحث عن الحقيقة، بل بمعيار تطابقها أو عدمه مع السياسة والذين. هكذا يعيش المفكر العربي، بوصفه مُتهماً سلفاً، وعليه أن يمضي عمره في إثبات براءته.

ج - انهيار المؤسسة، وهو يتمثل في فشل الدولة، على صعيد العلاقة مع المواطنين وحاجاتهم وتطلعاتهم، وفي إدارة شؤون الحياة اليومية الخاصة بهم. وهو في ذلك نذيرٌ بانهيار الدولة نفسها، على غرار ما نرى اليوم في بعض البلدان العربية، ونذيرٌ كذلك بانعدام القدرة الأساسية في المجتمع، قدرة الحكم وممارسته قانونياً.

وفي هذا ما قد يفسر الفساد المهيمن في معظم البلدان العربية، بحيث أنه يكاد أن يُصبح قاعدة إدارية.

هكذا يجد الفرد العربي نفسه مقيداً، خاضعاً للشروط المحيطة به، سياسياً واجتماعياً. كأنه يشارك هو نفسه في عبوديته. وكأن السياسة تُصبح فناً في تعطيل الحياة، وتعطيل حيوية الفرد. السياسة كلها والملك كله لآلة الفساد والعنف.

د - انهيار مفهوم الوطن، فلقد انتهت فكرة الوطن، كما كان يتم التفتي بها، وحلت محلها فكرة النظام - الحزب. والمواطن، اليوم، ليس مواطناً الوطن، بقدر ما هو مواطن النظام والحزب، أي القبيلة والعشيرة والطائفة والعائلة.

هـ - الانهيار الاجتماعي العام، ويتمثل في أن المجتمع ازداد تفككاً على أسس طائفية أو عشائرية أو قبلية، وأن الفقر ازداد، والبطالة تكاثرت، والتعليم تراجع، والاقتصاد في حالة متواصلة من الهُوس. وتكفي هنا الإشارة إلى كتاب "تكلفة الصراع في الشرق الأوسط"، الذي جاء فيه أن الصراع كلف الشرق الأوسط خسائر اقتصادية تبلغ ١٢ تريليون دولار بين عامي ١٩٩١ و٢٠١٠، وأن السعودية وحدها أنفقت على التسلح، عام ٢٠٠٩، مبلغ ٣٢.٦٥٤ مليار دولار، وأن "الشرق الأوسط يتحمل أعلى نفقات عسكرية في العالم".

III. تلك هي، إذًا، صورة موجزة عن الوضع في العالم العربي، لم أدخل فيها الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي بخاصة، والعربي - الإسرائيلي، بعامة. وذلك لشدة تعقده، بحيث يبدو كأنه صراع على مستوى الكون. والحق أننا، نحن العرب، نخطئ كثيراً إذا اكتفينا بالوقوف عند الأبعاد السياسية - الأرضية لهذا الصراع، وأهملنا جوانبه الدينية والميتافيزيقية والتاريخية.

ففي إسرائيل هي، كذلك، أصولية، يتوخد في رؤيتها العنف الديني والعنف السياسي، على غرار الأصولية الإسلامية.

هكذا يكمن، فيما وراء الصراع السياسي - العسكري على الأرض، صراع آخر قد يكون أشد خطورةً وفُتْكَاً، هو الصراع الذي يعود بالشرق العربي كله إلى ما يُشبه القرون الوسطى.

وفي هذا ما يطرح من جديد على الذئنين اليهودي والإسلامي مسألة الحقيقة: أهي مقيمة في نُصْر مُطلق، وفي أيٍّ من الذئنين نجد هذا النص؟ وهل يعني ذلك أن الحقيقة ضد التجربة، وضد التاريخ، وضد الإنسان؟ وكيف يصح، دينياً، في الديانتين، أن يسيّر الإنسان المؤمن بهما إلى الورا، فيما يسير، في الوقت نفسه، إلى الأمام - تقنياً؟

وهل الحقيقة الدينية قائمة على العنف؟ وإذا عرفنا أن العنف نُفْي للآخر - فإن كلاً من الذئنين ينهض على عنفه الخاص، أي على نفيه الخاص. وكيف إذا يتحاوَر أو يتلاقى نُفْيَان؟

IV. طبعاً، النهضة أمر ممكن دائماً، نظرياً وعملياً. لكن، هناك شروط لا بُد منها لكي يتحقق هذا الممكن. وتفادياً للالتباس الذي يعرقل الفهم، ويفسد الحوار، ينبغي أن نتفق، بذنباً، على معنى النهضة. فهي، بالنسبة إليّ، لقاء بين فكر جديد وعمل جديد، يُحَقِّقان نُقْلَةً في المجتمع، جذريةً وشاملةً، اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً، نُقْلَةً تُلْزِمُه أن يسير، بشكلٍ مترابط ومتواصل، على طريق التقدم.

ونعرف جميعاً أن هذه النقلة لم تحققها الفترة التي سُميت بـ"عصر النهضة"، فقد كانت هذه الفترة، بالأحرى، تصدّعاً وضياعاً تجلياً في ثلاث ظواهر أساسية:

الأولى، تتمثل في فشل التيار العقلاني النقدي، وبخاصة العلماني - المدني.

الثانية، تتمثل في العودة إلى الماضي الديني، بأشكالها السلفية - الأصولية، والإصلاحية.

الثالثة، احتلال المُنجَز الصناعي، الغربي والشرقي، ساحة الحياة العربية، وعدم أخذ العرب بالحركة العقلية العلمية التقنية التي أبدعت هذا المُنجَز.

هكذا، يصح القول إن هذه الفترة غمقت، على العكس، أشكال التخلف، من حيث أنها حوّلت الماضي إلى مرجعية معيارية، مُرشحة فكرة الزمن الديني الدائري، وفكرة العودة إلى السلف، بوصفها ذروة التقدم، مقيمة عازلاً دينياً بين العرب والفكر الخلاق. ومن حيث أنها أعطت الأولوية، عملياً، لاستعارة المدنية، واستيراد أدواتها، والتعامل مع العلم بوصفه مجرد سلعة، بدلاً من أن تُعطيها للابتكار، أو لمبدأ البحث والتساؤل، وإعادة النظر، والتخطيط، والكشف، والبناء. ومن حيث أنها لم تؤسس لبناء مؤسسات معرفية عالية، في العلم أو الفن أو الفلسفة أو الاجتماع أو التربية والتعليم أو التقنية. ومن حيث أنها لم تُغيّر بُنى المجتمع التقليدية في كل ما يتعلق بحقوق الإنسان الأساسية، خصوصاً دور المواطن في السلطة، ووضع المرأة والتأسيس لمجتمع مدني، علماني، ديمقراطي.

باختصار، كان الفكر العربي في هذه الفترة نوعاً من التمسك بزمن انتهى، حتى يُخيل للمتأمل أن العرب كانوا يعيشون كممثل أشباح ملائكية تتحرك داخل غابة ساحرة أو سحرية اسمها اللغة - الذين.

هكذا، لم يوصلنا ما سقينا بـ"عصر النهضة" إلى عروبة المسألة والإبداع، وإنما أوصلنا، على العكس، إلى عروبة متوهمة. والفاجع فيها، اليوم، هو أن غداًها لم يعد يجيء من الماضي الذي تكوّنت فيه، بقدر ما أصبح يجيء من المستقبل الذي تتجه إليه، والحاضر الذي تعيش فيه.

وقد هيمن في هذا كله النظر إلى الماضي، لا بوصفه مكاناً للضراعات والتناقضات، أو بوصفه استمراراً لزمن تقدّمه، وحلقة في زمن يليه. لقد هيمن بوصفه حالة إلهية مفا قبل الولادة، أو كأنه زخم أزليّ أولى وأخيرة. وعلي هنا أن أشير، دفعاً للالتباس أيضاً، إلى أمرين مهمين: الأول هو أنني لا أدعو، في ما قدّمته، إلى دُمّ الماضي، بكلّيته، أو رفضه، كما يظنّ

بعضهم، وإنما أدعو إلى إعادة فهمه وتأويله على نحو عقلاني - علمي، وإنساني - حضاري.

والثاني هو أنني لست ضد الدين، بوصفه إيماناً فردياً، خاصاً، وفي حدود الحياة الفردية الخاصة. فهذا حق يجب أن ندافع عنه جميعاً، بوصفه جزءاً من حق الحرية - كما يجب أن ندافع عن الحق الآخر: اللاتدين، بوصفه رأياً فردياً، وفي حدود الحياة الفردية. وهكذا يكون المجتمع مدنياً عاماً، والدين فردياً خاصاً لا يلزم إلا صاحبه.

٧. يتضح من هذا العرض الموجز أن المشكلة العربية الأولى، ثقافياً وسياسياً واجتماعياً، تكمن في إعطاء الأولوية المطلقة للنص الديني، ضد التجربة، وضد العلم، وضد الإنسان في الأخير.

ولست ممن يقدمون الأجوبة كأنهم يملكون الحقيقة في جيوبهم. أميل إلى طرح الأسئلة، إلى خلخلة القناعات المستقرة كما لو أنها سجون، وإلى التحريض على الخروج منها، تاركاً للخارجين أن يبحث كل منهم عن جوابه الخاص.

ولست أجد، شخصياً، طريقاً للخروج من هذا العالم المغلق إلا في إطار الفصل الكامل بين ما هو ديني، من جهة، وما هو سياسي ثقافي اجتماعي، من جهة ثانية. إطار فكر وعمل يعطيان الأولوية للتجربة والعلم والحرية المعرفية، تأسيساً لمجتمع جديد، مدني ديموقراطي، لا مكان فيه للدين إلا بمعناه الإيماني الفردي الخاص، وفي حدود الحياة الخاصة بالفرد، في استقلال كامل عن الشؤون السياسية الثقافية، والاجتماعية الاقتصادية، وعن العلاقات مع الآخر.

(١٢/١٠/٢٠١٠)

عزف منفرد على قيثارة دمشقي

١ - ياسمين

ليس للياسمين الدمشقي ثاب
ولا خودة.
أتركوه لأحلامه ولأشواقه وللعاشقين.
أتركوا للشموع التي تتقطر من عطره
أن تُغيّر هالاتها
ألقا واقتنا على ظري المارقين.

٢ - أسوار

منذ خمسين عاماً،
أتقضى المتارين، أقرأ أسوارها وأنفاقها
وأرى كيف يُقْدَف بالناس فيها.
وأقول: قتي ثقي
ويمضي إلى الله أصحابها
وخزاسنها؟
منذ خمسين عاماً
لم أكن أتساءل إلا:
كيف أزرع ورداً على باب بيتي؟

٢ - الجحيم النعيم

الجحيم النعيم هنا في وريدك،
في شريانك، لا فُرْقَة ولا شُرْكَة.
فلماذا، بحق الثراب وميراثه، وبحق الهواء،
لا تريد السقاء لجسمك أن يتحرز من أشربه،
وأن يلبس الفضاء؟

٤ - غطلة

لا أخذت عن ثائر،
على رأسه قللك.
لا أخذت عن راية أو هُتاف
لذم، أو زصاص.

٥ - غناء

المتع الخزن في الشام، يأخذ قيثارة
ويغني بلا كلمات.

٦ - جوع

كلما خرج الشهداء جوعاً إلى الله،
حتى يُزيّن أفواههم
بملاعق من فضة،
خرج الجوع في الأرض، يبكي،
ويندب أخواله.

٧ - نخلة

يُدعي
أنه عاشق نخلة
لم تجى من مئون البساتين،
أو من كتاب الفصول.
قال: فيها سهام
تصيب القلوب،
وتنزل فيها كوحى.
نخلة ليس في جذعها الآن غير الظلول.

٨ - شباك

تَهبط المدن العربية في سَلَمٍ
وتصعدُ في سَلَمٍ:
خطواتٌ - حقولٌ
بلا زارع، ولا سائيس.
خطواتٌ - شوارعٌ مُسدودةٌ.
أيهذا الهواء النقي الذي يُوقظ الأفقَ
من نومه،
قُلْ لهذي المدائن: ألقى شباك الهجوم
على الظلمات، على الخوف،
وأمثزجي بالفضاء.
قُلْ لها، أيهذا الهواء.

٩ - حلم مشترك

عسلٌ في جزار الشوارع للمتعبين
والثواني قنابلٌ موقوثةٌ
تتنقلُ مرسومةٌ
بأشكالٍ زرقص،
بشغنين - أصواتهم
تتنزلُ مندٌ وسلوى.
غسلُ السائرين إلى أرض أحلامهم،
غسلُ الزافضين.

١٠ - رقابة

ما لجسمي يُراقبُ جسمي؟
دزوبي إليه،
كُلُّ يومٍ تُغيزُ أفعالها
ومفاتيحها.

١١ - تراب

لا تُسَدِّدْ رِصَاصَكَ نُخْوِي، لَسْتُ الْعَدُوَّ،
وهذي حَيَاتِي
خُطَوَاتُ ثِقَالٍ بِظَاءِ
على نَزَجٍ من عَذَابِ.
وأقولُ: ذَمِي عاشِقُ
وجسمي يَضُنِّي،
وَلَا حُبَّ لِي غَيْرُ هَذَا الثَّرَابِ.

١٢ - تساؤل

لَنْ تُحِبُّوا، إِذَا بَمِ ثُورُوا،
أَوْ، كَمَا قَبْلَ: ثُورُوا، تُحِبُّوا.
فَلِمَاذَا، إِذَا، لَا تُرَوِّنَ الْمَدِينَةَ إِلَّا
شَمْعَةً مُظْلَفَاهُ؟
ولماذا، إِذَا، تَكْرُزُونَ:
الحَيَاةُ غَرَابٌ،
وَالظَّلَامُ امْرَأَةٌ؟

١٣ - احتفاء

لِلْحَقُولِ الَّتِي تُتَنَزَّهُ فِيهَا الشَّامُ،
لِأَحْزَانِهَا وَضَعَالِيكُهَا،
لِشَقَائِقِ نَفْمَانِهَا،
وَلِشَمْسٍ تَجِيءُ إِلَيْهَا لِتَبْزُدَ أَحْشَاؤُهَا،
أَنْتَمِي الْآنَ - كَفَّاي مَفْدُودَتَانِ، وَضَدْرِي
جَبَلٌ ضَارِبٌ فِي الْفُضَاءِ،
غَبِطَةٌ، وَاحْتِفَاءٌ.

١٤ - حزن

وردة وكتاب
يبكيان على قبر طفل.

١٥ - استعادة

ما الذي تقرأ اللاذقية،
ماذا تقول لجيرانها وجاراتها؟
وجهها "ضجة"، كما قال عنها المعزي.
أثراها الحياة التي تلالاً فيها
ثقاد إلى هوة، من جديد؟
من جديد، يقول المعزي:
"سأسقي حياتي موتاً
وأسأل من أول:
ما الصحيح؟"
القناديل تطفأ، والأرض مخنوقة.

١٦ - استضاءة

أستضيء بأرضي
بالزجاج وأهاتها،
وأسأل في حيرة:
"ثرائي حز؟ ولكن
من يؤكد أنني أرى
وأنني حز؟".

١٧ - عالم

عالم أتخرك فيه،
أفكر، أرمي شباكي على كل شيء.
وأكتب ما شئت. لكن،
لم أقل، مرة، إنه عالمي.
لم يكن، مرة، عالمي.

أهوَ الأَبْجَدِيَّةُ؟ لَا مُلْكُ لِلأَبْجَدِيَّةِ
غَيْرُ الخُرُوجِ إِلَى كُلِّ مَا لَيْسَ مِنْهَا.

١٨ - صُور

صُورٌ فِي اللِّقَاءَاتِ، وَخَدِي، فِي عُزْفَةٍ،
فِي طَرِيقٍ، حَدِيقَةٍ مَقْهَى،
أَحْنَقُ فِيهَا، أَسْأَلُ غَيْبِي: مَاذَا أَرَى؟
أَنَا صُورَتِي؟
أَوْجْهِي هُنَاكَ وَجْهِي هُنَا؟
أَمْ تُرَى صُورَتِي فَضَلْتَنِي غَيْبِي؟
وَمَا أَعْمَقُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْخُطُوطِ الَّتِي رَسَمْتَنِي
وَتِلْكَ الَّتِي رَسَمْتَ صُورَتِي،
كَأَنِّي سَأَمَحِي
إِذَا مُجِئْتُ صُورَتِي، أَوْ كَأَنِّي
لَمْ أَعُدْ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا مُجَازاً.

١٩ - وَصَايَا

وَضَلُّنِي يَتَبَدَّدُ فِي اللَّفْظِ، فِي أَزْجَلِ الْكَلِمَاتِ:
لِهَذَا الْقِنَاعِ - الشُّعَارِ الَّذِي ابْتَكَرْتُهُ
الْقِيُودُ، عُرُوشُ
تَتَخَاضَعُ فِي الْأَوْصِيَاءِ،
وَمَنْ بَيْنَكُمْ يُرِيدُ الْوَصَايَا؟ كَلَّا،
لَنْ أَكُونَ شَرِيكاً
لَنْ أَكُونَ وَصِيّاً عَلَى أَيِّ عَرْشٍ.

٢٠ - قَدْرَةٌ

إِنَّهَا الْقُنْبُلَةُ
تَقْدُرُ الْآنَ فِي نَارِهَا وَفِي بَغْتِهَا
أَنْ تَكُونَ جَوَاباً أَوْ تَكُونَ سُؤْلاً.

وتقدر أن تتشظى:
تتغلغل في أي شيء،
تتماهى به، وهي نقض له.
إنها القنبلة
تقدر الآن، في قبضها وانفجاراتها،
أن تقول النساء الرجال غبار
وأن تتزيا بهم، وبأحلامهم وغذاباتهم،
وتسأل عنهم، واحداً واحداً،
وتقول لإفطارها:
أظفني جذوة الأسبلة.
إنها القنبلة
تقدر الآن، في مدها وفي جزرها،
أن تقول: لكانون حظ
في زيارة أياز:
دار الأساطير قفراء
والكون بوابه مقفلة.

٢١ - وطن

وطن نائم في الغراء
لا سربز له
غير نسج الهباء.

٢٢ - تخوم

لا أقول: لنا موقع واحد
وحدود بلا فاصل.
لا أقول: الطريق هناك امتداد
لطريق هنا.
لا أشارك في وخدة الخرائب، لا وخدة
إذا لم تكن فتنة:
فجز جنسين في ذروة

شُغفأً واحداً
قُلُقأً واحداً،
وانفُتَاحاً حميماً على السز: لا وَقْتُ للذاكره
كي تعودَ إلى إرثها.
إزثها الوُقث والآن: غُصْفُ جميل،
مُذُنُ تائره.

٢٣ - وصف

تُصَفُ اللأذقيَةُ أبناءها
مثلما فَعَلتْ قَبْلها حَلَبٌ ودمشقُ:
شُقَّةً واحدة
ولغاتٍ عديده.
إنها العودَةُ - القاعده:
زَمَنُ لَوَلَبِي قديم
ومراياه مصقولةٌ جديده.

٢٤ - جراح

مَنْ يَقُولُ: الجِراحُ شُقوقُ
في غُروقِ الجسد؟
الجِراحُ دَمٌ يَتَدَفَّقُ في شَرَيانِ الأبد.

٢٥ - كِبْدُ الماء

مَظَرُ غامِضٌ، ولكن
يعرف العشبُ أفاظهُ
ويفهمُ إيقاعها وأسرارها.
ولماذا، إذا،
تتوزمُ حتى كِبْدُ الماء في بُعِ تاريخنا؟

٢٦ - إقناع

سوف أقنع نفسي أن تتشبه بالريح،
كني أتجذد من كل فلك،
وكني أتبدد في كل فج،
لا أبالي بما كان أو ما يكون، وكالريح أحياء:
ليس للريح إلا
لا مثباتها.

٢٧ - جهل

لم أكن قبل أعرف أن هناك رجالاً
يوضعون كنفد
في جيوب رجال.

٢٨ - مرق

مرق سائل في الشوارع، فيض
من عظام لجر
فقدوا سخرهم،
ولحبر قديم
لا يرى الكون، لا حجاباً.
مرق سكينة الشام
في جرار الكلام.

٢٩ - نرد

الحقيقة نرد
في يدي غيفة.

٣٠ - رصاص

ليس عندي رصاص كغيري،
كثير غريب ومن كل نوع
وأجهل من أين يؤتى به.
هكذا سأظل (يقولون لي):
عائشاً في جحيم.
أتراها الرصاصه حوريه؟

٣١ - رمل

ليس للزمل معنى
سوى شكله.

٣٢ - تماثيل

لا تقل للتماثيل من أين جاءت، ولكن
قل لها: كيف جئت؟ الحجارة
تجتزأ أشلاءها
والأزاميل في حيرة.
لا تقل، لا تقل.
الأزاميل تشكو تماثيلها،
التماثيل تشكو أزاميلها.

٣٣ - اختراق

شاعر
يلعب التزد بين مناماته،
والنجوم:
لا مسالك نحو التحزب،
لا فجز، إلا
في اختراق النجوم.

٣٤ - أسلاف

كان ميراثهم "صحة"
مئلاً حذت المعزي. وكانوا
يولعون شرايينهم إلى الخلفاء:
المدائن مظموسة
بأبائهم.
لن يروا، إن رآوا،
غير أشلاء تاريخهم،
وتفائيل منحوتة من دماء.

٣٥ - طفل

رشفوا الفأزر المنور طِفلاً
كفاه جناحان من نشوة وحرية.
وزنداه يحتضنان دقات أحلامه.
كبر الطفل، صار سماء.

٣٦ - محاكاة

سأحاكي الطيور.
سوف أبني، إذا، منزلاً من خيوط وقش.
أخذ القش مثنى، فُرادى
وأرفع منه عموداً هناك، عموداً هنا
وأزين ما حولها بريش،
وبغش، وأوراق وزيد.
الخيوط لأربط ما بينها
قشة قشة، عموداً عموداً،
وأمد الجسور.

٣٧ - صبوات

منذ كانون، آذار، أكتب
كي يتجدد معنى الشهور
وثبتكر الأزمنة،
والمنازات ليست أغاني، بل هذه
الضبوات التي تتفجر من رئة الأمكنة.

٣٨ - اعتراف

لا أجابل: رُفُضي مقيم
في القتل الذي يُقتل
في القتل الذي يُقتل.
لا أجابل: رُفُضي مقيم،
في كتاب يُجيب، وفي مارقي يُسأل.
ويحتار في الجميع. وأحتار في كل شيء
ولا ضخرة غيز رُفُضي.

بيروت ٢٠-٢١ أيار/مايو ٢٠١١

(الحياة، ٩ حزيران/يونيو ٢٠١١)

أثر الفعل تجاوز الفعل ذاته، على نحو فجأ المخيلة، ولم يتوقعه الظن. بلدة فقيرة مُنومة أيقظت المدن من سباتها. جناح فراشة تونسية ولّد إعصاراً عربياً. وها هي العاصفة، الآن، تسكن في كل بيت في هذه البقعة العربية من العالم.

أمّا كيف حدث ما حدث؟ أو لكي نُحوّر إيجابياً المثل العربي الشعبي: كيف صارت الحبة التونسية قبةً عربية؟ فأمرٌ يجب أن يعالجه، تفهماً واعتباراً، إضاءة واستنارة، ذوو الخبرة والاختصاص.

في كل حال، يُشير هذا الذي حدث إلى الطاقة العملية التي يخترنها الإنسان والتي تتفجر على نحو يُحير ويدهش، خصوصاً أنه لم تقم به طبقةٌ بعينها، أو نخبة محدّدة. ولم يصدر عن نظرية، في تحريك الجماعات. ولم ينزل من فوق، أو من مُسبّقات فوقية. صعد من أسفل. من التجارب الحية. من آلام البشر وعذاباتهم. إنه انبعاثٌ من الحياة ذاتها. إذا أضفنا حضور المرأة إلى جانب الزجل في كل ما حدث، والظايع اللاعنفي، بعامة، ونشدان الحزبة والكرامة والعدالة وحكم القانون، قبل الهتاف المألوف ضد الاستعمار، أو البطالة، أو الفقر، فإنني، شخصياً، لا أتردد في وصف ما حدث بأنه ظاهرة عربية فريدة حقاً.

حتى الآن، زُلزلت السلطات العربية. سقط بعضها، وبعضها الآخر يتأرجح. فلتذهب كلّها إلى مصيرها الصغير البائس. لم تفعل شيئاً يمكن الاعتزاز به، حضارياً، أو البناء عليه. لم تفعل، بعمة، إلا بوصفها شركات استثمار في بلدان تُهيمن عليها كأنها مجرّد أسواق. تجارب داميةً متنوعةً طول خمسة عشر قرناً كانت، منطقياً، كافيةً لكي تزول ثقافة الخلافة والاستخلاف. لكنها، على العكس، ظلّت بقيمها وعناصرها وأدواتها مستمرة وفعالة. وهذا ما تؤكّده مرحلتنا التاريخية الراهنة، مُجسّمةً في السلطات العربية الوطنية، منذ نشوئها، بعد الاستقلال، في أواسط القرن الماضي المنصرم.

فبدلاً من أن تعمل هذه السلطات على تحريك شعوبها، أفراداً وجماعات، نحو مزيد من التحرر يتمثل في مؤسسات مدنية جديدة تربوياً وثقافياً، اجتماعياً واقتصادياً، استغلت، على العكس، أمراض الماضي بأنواعها جميعاً، الدينية والقبلية والإثنية، وسخرتها من أجل أن تُحكم السيطرة عليها. هكذا نقلت شعوبها من العيش في عبودية الخارج إلى العيش في عبودية الداخل. ووصل طغيان هذه السلطات إلى أوجه اللإنساني في محو فكرة الوطن نفسها، وإحلال فكرة النظام محلها. صار النظام هو الوطن: أنت مع النظام، إذا أنت مواطن. أنت معارض، إذا أنت في موضع التبايس واتهام.

هكذا سارت بلداننا العربية، منذ الاستقلال، في دروب كثيرة، متنوعة. تظاهرنّا. رفعنا بيارق. أطلقنا شعارات. قمنا بانقلابات. دخلنا السجون. عشنا في المنافي. كابدنا الفقر والتشرد والبطالة. تعبنا. مُتْنَا. هطلت علينا ثروات ضخمة. أنفقنا ثروات ضخمة. ومع هذا كله، لم نتقدم. كانت بلداننا تسير في إيقاع سلطاتها الفقيده المُجهد. وكان إيقاعاً يُموه ويُشوّه، يقمع ويُذل ويستعبد. وكانت الحرية مجرد لفظة. بل إننا حولناها إلى لغو. وكُنّا باسمها نلتهم بعضنا بعضاً.

رافق هذا كله انهيار وجودي - كياني، فردي وجمعي. وكانت له رؤوس متعددة: يؤس العقل والفكر، وبؤس الزوج والجسد، وبؤس الحياة والمعنى. ودفعنا هذا البؤس إلى أن نمتدح حتى عبوديتنا. ولئن أصغينا الآن إلى وسوسة الفقر والبطالة والهجرة وضالة الإنتاج وندرة العمل وتزايد الهيمنة الغيبية وضمور الحركة الإبداعية في مختلف الميادين، ثم نظرنا إلى بلداننا مقارنة بغيرها من بلدان العالم، فإننا لا نكاد نرى أمامنا إلا الفراغ والسراب.

- ٣ -

منذ زوال الانتداب، وبداية الاستقلال، ظل التغيير في البلدان العربية سياسياً - وظل سطحيًا وشكليًا، غيرنا حكومةً بحكومة. أحلنا رجالاً محل آخرين. وفي المحصلة بدوننا كأننا لم نحقق شيئاً. بل بدوننا أننا ازددنا تخلفاً في كثير من الميادين، وازددنا خضوعاً لما يُفترض أن نتحرر منه بدنيًا.

السبب الأساس وراء هذا كله هو أننا لم نحقق القطيعة مع سياقنا التاريخي السلطوي - الاجتماعي ومع ثقافة هذا السياق. وتبعاً لذلك لم

نهزم أسس الاستعباد الداخلي، الأبوية الموروثة، أو القبلية أو التراتيبات الإقطاعية، أو المذهبية - الدينية، ولم نضع أي أسس لبناء مجتمع مدني. واليوم، إن كنا صدقين، حقاً، مع أنفسنا ومع الواقع والحقيقة، نجد أنفسنا مضطرين لكي نطرح مثل هذا السؤال المقلق: هل العربي الذي يتظاهر، اليوم، في الشوارع العربية، ذلك الذي يؤمن بتعدد الزوجات، ولا يفهم دينه إلا بوصفه تحليلاً وتحريماً وتكفيراً، ولا يرى إلى الآخر المختلف إلا بعين الارتياب والإقصاء والاستبعاد والتبذ - هل هذا العربي يمكن أن يوصف بأنه ثوري، أو بأنه يتظاهر من أجل الديمقراطية وثقافتها؟

التأسيس لرؤية مدنية، لمجتمع مدني يتساوى فيه البشر، حقوقاً وواجبات، فيما يتخطى انتماءاتهم الدينية والإثنية واللغوية، مجتمع يسوده القانون وثقافته، الحريات وثقافتها: تلك، إذ، هي المسألة. ويتعذر العمل على هذا التأسيس إلا بدءاً من إعادة النظر بشكل شامل وجذري، في الأسس التي أقيمت، منذ خمسة عشر قرناً، لتنظيم العلاقات بين الإنسان والإنسان، وبين الذات والآخر. ففي هذه الأسس، تأويلاً وممارسة، ما يتعارض مع حريات الكائن البشري وحقوقه، ومع إنسانيته نفسها، خصوصاً في وجهها المؤنث.

- ٤ -

أعمق ما في الرسالة التي كتبها رماذ البوعزيزي هو، بالنسبة إلي، أن في إمكان الإنسان، في هذه المنطقة، على الرغم من كل شيء، أن يجعل الحياة العربية أزهى كينونة، وأعمق إنسانية. بطريقة الغياب الذي اختاره، كشف عن معنى حضور الإنسان. وبطريقة حضوره في وعينا، يززع الأليف المكزّر. وُضعنا على الحافة، وجهاً لوجه، مع براكيننا الداخلية. أيقظ فينا حوافز أخرى لتحقيق ما نطمح إليه، ولكي يستعيد كل منا توجهه الداخلي وفاعليته، بطريقته الخاصة. وايوم، بدأنا ننظر جميعاً إلى ما حولنا، وإلى السابق واللاحق، وراءنا وأمامنا، بشكل مختلف وحساسية مختلفة.

بدلاً من أن نواصل انجرافنا خارج التاريخ، ازددنا ثقة في قدرة الشعوب على أن تكتب تاريخها وأن تقوده. وإذا استخدمنا مصطلحات الحداثة، فإن رماذ البوعزيزي يفتح أمامنا، عربياً، نوافذ افتراضية متعددة وعالية تاركاً لكل منا أن يمتطي أفراس مخيلته ويترحل في واحات هذه

الافتراضية ومفاجأتها. وهو، في ذلك، ينتزع كلاً منا من عزلته، ويقذف به إلى خضم الآخرين - أصدقاء وأعداء.

ثقة أواصر جديدة بين المواطن والمواطن، بين العربي والعربي. ثقة آفاق جديدة وطرق جديدة للفكر والعمل معاً، في مدّ أسرٍ من المشاعر والأخيلة، والتآلف المتضامن، يتموّج في المحيط العربي، ويحركنا جميعاً لكي نغيّر ما بأنفسنا، ونغيّر ما بعلمنا. وثقة توكيد آخر على أن المعنى العميق الذي يكتنزه هذا المد هو أن الحياة لا تستحق تعب أن تُعاش إلا إذا كانت حرة وعشناها بحرية. الإنسان، تحديداً، حرية أو لا شيء.

- ٥ -

انطلاقاً من ذلك، اسمحوا لي، أيتها الصديقات، أيها الأصدقاء، أن أشير إلى أن هذا الذي حدث لا يزال حتى الآن يتأرجح. تؤولجحة، بخاضة، تلك اليد التي تكتب الأرض العربية، أعني يد الغيب. وسؤالي هنا هو التالي: هل في ما حدث ما سيقضي حقاً على عذاب هذه الأرض التي يكتبها هذا الغيب؟ وهو سؤال يفترضه الواقع ويفرضه. يلميه كذلك الوجد الذي ثلث منه أحشاء التاريخ العربي.

أقول ما أقول مغموراً، في آن، بالظلام العربي ورجاء الخروج منه إلى الضوء الساطع.

هكذا أجيء قلقاً، ملتاعاً، متسائلاً: هل ما يحدث استباق تحرري، أم هو عمل لاستئفاف عبودياتنا؟

أحييكم واحداً واحداً، راجياً أن يزداد غضبكم تأججاً واثساعاً، وأن ينشأ من الأجوبة العملية ما يجعل تساؤلاتي هباءً في تموجات الواقع الذي بدأت من تونس في ابتكاره، راجياً أيضاً ألا يكون صوتي بينكم، هذه اللحظة، أكثر من هدير موجة عابرة.

وإذ أعلن اعتزالي بالمشاركة في الاحتفاء بالبوعزيزي، وإقياً ورمزاً، فإنني أمل أن يكذب رماده نيران شكوكي كلها. إنه رماد يؤكد لنا أننا نواجه مرحلة حضارية لم نعد فيها قادرين أن نرضى بأقل من العمل على خلق إنسان عربي مدني جديد، في عالم عربي مدني جديد، في هذا الكون المدني، المتجدد أبداً⁽¹⁾.

(1) نص الكلمة التي ألقيت في الاحتفاء بمعنى الحدث الذي مثله احتراق محمد ابو عيزري في مسقط رأسه سيدي بوريد. وهو احتفاء أقيم بترتيب خاص من محسن بوعيزري، أستاذ علم الاجتماع في

معهد العلوم الاجتماعية بتونس والأمين العام بجمعية العربية لعلم الاجتماع نشرت هذه الكلمة في
جريدة الحياة (٢١ نيسان / أبريل ٢٠١١)

(سيدي بوزيد، تونس، ٢١/٤/٢٠١١)

"ميدان التحرير": فاتحة لبدایات القرن؟

- ١ -

لا على مثال. نسيج وحده: تلك هي الخاصة الأولى لما حدث في "ميدان التحرير"، في القاهرة. لما حدث أيضاً، قبله، في تونس: الخلاص من النموذج الغربي في النضال من أجل التحرر.

تم: لا عنصرية. لا تخندق باسم الدين. لا تعسكروا، إيديولوجياً، ولا طبقية. شعبٌ بكامل فئاته، بكامل أجياله، بكامل اختلافاته وتنوعاته، يصرخ بصوت واحد: الحرية.

إنها حركة الحياة، متفجرة في البيوت والشوارع. في الطرق والساحات. في المدارس والجامعات. في الحوانيت والحقول. إنها الانتماء إلى النبض الخلاق في الكائن البشري. إلى المعنى الذي لا يكون الإنسان إنساناً حقاً إلا به. الانتماء إلى الحرية.

الحرية قبل الرغبة:

ما يكون الخبر إذا كانت العبودية هي التي تقدمه؟

وقبل العمل:

ما معنى العمل إذا لم يكن نشيداً يتصاعد من الجسم والروح معاً، في

نفس واحد؟

إنها عفوية الحياة مندرجة في عفوية الحركة، مبنوثة في الفكر

والجسد، موجة واحدة.

- ٢ -

لا عنف، لا تخريب، لا تدمير: تلك هي الخاصة الثانية. صداقة وفرح وحب.

وعليها هنا أن نتأمل ونعتبر. كان التاريخ السياسي العربي يتسم، غالباً، منذ بداياته، بالعنف. مدار التأمل والاعتبار هو أن هذا التاريخ لا يزال حتى الآن مثقلاً بجميع مشكلاته وأمراضه. حتى يبدو أن الخلف لا يرث إلا العنف. وانظروا كيف أنه لا يزال قائماً وفعالاً حتى الآن. من المحيط إلى الخليج. حتى أنه يبدو أيضاً أن العرب هم أولاً ضد العرب، ضد أنفسهم،

ضد بعضهم بعضاً. حتى يبدو أيضاً وأيضاً أن الأجنبي العدوانى المستعمر يقاتل العرب بالعرب. وتلك هي أسلحته: المذهبية، الطائفية، العنصرية، العشائرية، العائلية وشهوات السلطة.

كيف نتملك السلطة ونستأثر بها: تلك هي القاعدة في حياة العرب وثقافتهم. أما كيف نعيش؟ كيف نتعلم؟ كيف نعمل؟ كيف نفكر؟ كيف نحارب الفقر والبطالة؟ كيف نبني دولةً ومجتمعاً؟ كيف نتقدم؟ فتلك أسئلة ثانوية، وغالباً ما تكون عند أهل السلطة حجةً للفتك بأعدائهم الذين يعارضون سياساتهم.

هكذا، لم نستطع نحن العرب في تاريخنا كله أن نؤسس دولة المواطنة. الدولة التي يكون فيها الناس سواسية أمام القانون، أيأ كانت انتماءاتهم الاجتماعية أو الدينية أو الفكرية. وإنما أسسنا سلطة. سلطة القبائل والمذاهب. سلطة الغلبة: العصبية الأكثر قوةً وفاعلية والتي تتناسل الآن في الحزب الواحد الأحاد، وقائده الواحد الأحاد.

— ٣ —

الخلاص من الماضي وبناء المجتمع بوصفه كلاً واحداً لا يتجزأ، بوصفه مجتمعاً مدنياً، تتغلب فيه الرابطة الإنسانية الاجتماعية على جميع "الحبال" الأخرى، الدينية وإثنية على الأخص، وبدءاً من ذلك، العمل على بناء الديمقراطية:

تلك هي الخاصية الثالثة لما حدث في "ميدان التحرير" ولما حدث في تونس.

ثرى، هل تكمن في هذه الخصيات الثلاث فاتحةً لبدايات عصر عربي جديد، يكون القرن الحادي والعشرون طريقه المضيئة العالية؟

— ٤ —

ما حدث، إذأ، في القاهرة، بين ٢٥ كانون الثاني/يناير و١١ شباط/فبراير ٢٠١١، وما حدث قبل ذلك في تونس، لا يمكن أن يوصف بأقل من كونه خرقاً للعادة. لا في تاريخ مصر وحدها. لا في تاريخ تونس وحدها. وإنما كذلك في تاريخ العرب. وهو، إذأ، حدث مؤسس أو يجب أن يكون مؤسساً، بالمعنيين التاريخي والثقافي - السياسي. وتكمن فرادة هذا الحدث في

أنه يُبطل، للمرة الأولى، عندنا نحن العرب، منطق العلاقة بين المحكوم والحاكم، بين الشعب والسلطة. دائماً، كان هذا المنطق إملاءً من فوق. كان منطق "خليفة" و"مبايعين"، سيد ورعية. قائد وتابعين. وكانت الثقافة التقليدية تسوّغ هذا الإملاء، وتدافع عنه، وتتجند لتتريخ دعائمه، وتحض عليه، وتأمّر به.

هذا الحدث، أقول، خزق هذا المنطق: إرادة الشعب، مدنية الحياة والأرض، هما الإملاء. وهما مادة الحق والحقيقة. هكذا، يفتتح هذا الحدث أبواباً كثيرة متنوعة لتأويلات كثيرة ومتنوعة.

أكون، مثلاً، (تأويلاً بين التأويلات الممكنة) بدايةً لتأسيس مرحلة جديدة في الحكم، مرحلة الديمقراطية والمجتمع المدني، مجتمع العدالة والمساواة، مجتمع الحقوق والحريات؟

أقول: "بداية لتأسيس"، لأن الديمقراطية تنهض على ثقافة نفتقر إليها نحن العرب. ثقافة الاعتراف بالآخر المختلف في قلب المجتمع الواحد، لا بالمعنى الأخلاقي التسامحي، بل بالمعنى العضوي - الاجتماعي. وهي، إذاً، ثقافة تنهض على هدم الواحدية، وبناء التعددية. والديموقراطية، إذاً، نضال طويل وشاق. نضال متعدد الوجوه أخلاقياً واجتماعياً، ثقافياً وإنسانياً.

هل نثق بهذا التأويل؟ هل نأمل؟ من جهتي، أمل - غير أن أملي ليس إلا عملاً متواصلاً من أجل أن يسير هذا الأمل على طريق التحقق.

هكذا يحتم علينا التأسيس للديموقراطية سؤالاً في مستواها: هل يمكن أن نبني، نحن العرب، مجتمعاً جديداً يكون فيه معيار المساواة بين أبنائه، لا الانتماء الإثني - القبلي، بل الانتماء المجتمعي الإنساني، لا المذهبية الدينية وشرعها، بل المدنية وقوانينها؟

- ٥ -

قلت: أمل.

وأقول مرةً ثانية، دعماً لهذا الأمل، واحتضاناً له، أن ما سيؤول إليه الحدث التونسي - المصري، لن يكون، في أسوأ حالاته، أكثر سوءاً مما كان قائماً.

باسم هذا الأمل، أقرأ هذا الحدث، فأرى ألا خوف من الحركة والتغير. الخوف كله من الجمود. من الثبوت والشبكات. من الرضوخ والخضوع. من التسويات والمساومات التي تحوّل الشعوب إلى ريشة في مهبّ الرياح السياسية، ولتي تمتهن كراماتها وحرّياتها، وتصادر طموحاتها، وتحاصرها في قواوئش الفقر والجهل والبطالة.

في الحركة والتغير فاتحة تتيح لعقال التقدم ومثقفيه أن يقبضوا على الحاضر، وأن يسيروا معاً يداً بيد نحو المستقبل.

باسم هذا الأمل، إذاً، أقرأ في ذلك المد البشري التونسي - المصري أن ثقافة السلطة العربية في العصر الراهن لا تزال استمراراً مكيناً لثقافة الخلافة وآلاتها الاستعبادية، وأنها في صورتها السائدة تنويغ على صورة الخلافة العثمانية.

غير أنني أقرأ، في الوقت نفسه، أن في هذا الحدث بُعداً مدنياً، وأن فيه مواطنةً تتخطى الانتماء الديني بحصر الدلالة. وهذا الحدث قام باسم الوطن والمجتمع، دون أن يعني ذلك رفضاً للإيمان. ويعرف الذين أنجزوا هذا الحدث أن الإيمان يقمّم لبعضهم حلولاً كاملةً لهمومهم الغيبية، ولعلاقاتهم مع الغيب. وهم يحترمون هذه الحلول والمؤمنين بها، غير أنهم قاموا بحدث من أجل تحقيق حلول أخرى، يتوحدون في سبيلها، ويموتون من أجلها. حلول الحياة والوجود. حلول السياسة والاقتصاد. الفقر والبطالة وتوزيع الثروة والقضاء على الفساد. حلول العمل والإنتاج. التقدم والبناء. حلول الإبداع، فكرياً ومادياً.

وباسم هذا الأمل أقرأ في ما حدث أن ذلك المد البشري يعرف حتى درجات العذاب والمرارة، عدائية السياسات الغربية، وبخاصة الأميركية، وعدوانيتها، تجاه القضايا العربية الأساسية، وانحيازاتها إلى كل ما ومن يستهين بهذه القضايا، لا في فلسطين وحدها، وإنما في البلدان العربية كلها.

أقرأ كذلك أن هذا المد البشري يعرف لامبالاة هذه السياسات بحقوق العرب وحريّتهم، وصمتها الكامل على فساد الأنظمة وطغيانها. ومع هذا يؤكد هذا المد البشري أن ما قام به لم يكن عداءً للسامية، أو للشعوب الغربية، أو للحضارة الغربية ومجزاتها. وإنما كان باسم الحرية وللحرية، وتمجيداً للحرية في وحدة شعبية فريدة اسمها: وحدة الحرية.

مدٌّ بشريّ لا يخرق دساتير "الخلافة" وحدها، وإنما يخرق أيضاً دساتير تلك السياسات الغربية - الأميركية.

مدً بشري يُدرك أن هذه السياسات لا تُرتبي في البلدان العربية، ولا تحتضن، إلا "بيوض" العنف والعدوان. البيوض التي تعمل على تحويل البشر إلى قطعان. إلى تجميد المجتمعات العربية في أوضاع تستنفد طاقاتها في صراع من التآكل والتفتت والتخلف.

- ٦ -

أصل، باسم هذا الأمل، إلى هذه الخلاصة: مهما حللنا الواقع العربي، اقتصادياً واجتماعياً، سياسياً وثقافياً، فإن هذا التحليل سيظل جزئياً وسطحياً، ما لم يكتمل بتحليل آخر يفكك البنية الدينية العميقة المتشعبة في المجتمعات العربية. تحليل يؤدي إلى التوكيد على أن الدين هو كذلك حرية، لا عبودية.

لا تتأسس الديمقراطية إلا بالحرية - حرية الفرد. والحرية هنا ليست مجرد التعبير بالكلام وحده. إنها كذلك حرية التعبير بالجسم: حرية التنقل، والتجقق، والسفر، والتنظيم.

ونعرف جميعاً أن ما يحول دون هذه الحرية لا يتمثل في السلطة السياسية وحدها، وإنما يتمثل قبل ذلك في البنية الدينية ذاتها، قيماً وعلاقات، اجتماعاً وثقافة.

إذا لم يقدر الفرد العربي أن يعيش هذه الحرية وأن يمارسها، فلن يكون المجتمع العربي حراً على أي مستوى. وسوف يظل ممزقاً ضائعاً بين "الأصولية الدينية" من جهة، ونتاجها الآلي: "الأصولية السلطوية"، من جهة ثانية. والحاجة الملحة إذاً، باسم هذا المد البشري، وباسم ذلك الأمل، تكمن في العمل على الفصل الكامل بين العالم الديني والعالم السياسي الثقافي. فهذا الفصل هو، وحده، الذي يتيح البدء ببناء الديمقراطية، وبناء مجتمع المدينة والمدنية، مجتمع الإنسان - حقوقاً وواجبات وحريات. ولنا في التجربة العراقية وقبلها الإيرانية ما يجدز، دينياً ومدنياً، بالتأمل والاعتبار.

هنا تكمن المشكلة - الأتم.

(الحياة، ١٧ شباط/فبراير ٢٠١١)

ميدان التحرير، أيضاً وأيضاً

- ١ -

منذ السابع عشر من كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠، حين أحرق التونسي محمد البوعزيزي نفسه، في مدينته سيدي بوزيد، أخذت البلاد العربية كلها تتحول إلى ميادين للتحرر من الطغيان، كان أهقها، وأغناها، وأكثرها ثورية، ميدان التحرير في القاهرة. فقد كان أكثرها وضوحاً في التأسيس لمجتمع عربي (مصري) جديد يقوم على المواطنة الكاملة: مبادئ العلمنة والمدنية، تحقيقاً للقطيعة مع مجتمع يقوم على التمييز بين المواطنين في الحقوق، (رغم تعميم الواجبات). ويقوم إلى ذلك على إبقاء المرأة خاضعة لقوانين تلغي حضورها في المجتمع، من حيث أنها تلغي حقها في أن تكون، كمثل الرجل، سيدة حياتها ومصيرها.

هكذا يمكن القول إن "ميدان التحرير" في القاهرة يؤسس لمرحلة جديدة من تاريخ العرب الحديث.

لقد "خُنقت" البلاد العربية سابقاً باسم التحرر والتقدم. واليوم يتابع "الخانقون" عملهم، باسم التحرر والتقدم أيضاً. الاستعمار هو الذي صنع حركة المرحلة الأولى. وهو نفسه يصنع المرحلة الراهنة، لكن بذكاء أشد: خنق العرب بأيدي العرب أنفسهم.

لكن ميدان التحرير حرّ اليوم. وهو بهذه الحرية "يبتر" جمهوره أيضاً ضد جمهور الاستعمار والتخلف والرجعية الدينية. كان الناس أسرى النظرية البائسة التي تستتبع كل شيء للكف الغامض الجمعي. وهي نظرية دمّرت الحياة العربية وأسلمتها إلى عقول مُعتقلة لا فكر عندها، ولا شيء تملكه وتتميز به غير براعة الخضوع لما مضى، وإلا الإصغاء لصوت الملاك الهابط من سماء الخارج.

- ٢ -

يعرف الجميع ماذا حدث: كيف تغير المشروع الأساس الذي أطلقه الشبان والشابات العرب، وكيف شوّه وخزّف حتى أصبح مناقضاً للأسس التي قام عليها. أصبح في الداخل صراعاً مذهبياً مُشيناً، يفقد فيه الإنسان إنسانيته.

وأصبح في الخارج تابعاً ومرتبهاً لقوى غير عربية. وأصبح في الممارسة "حرباً" دولية، وتحولت "الثورة" إلى اقتتال على السلطة كما كان الأمر على مدى التاريخ العربي: السلطة هي الحال والمال والمال. والأكثر مأساوية ودلالة، في هذا الضدد، هو "الثورة الفلسطينية" التي تحولت إلى "تآكل" و"اقتتال" داخليين. إلى "ثورة" ضد نفسها، أولاً.

هذا التطور في الحراك العربي يفرض على الباحثين المختصين أن يقوموا بدراسته واستخلاص العبر، على الأقل.

- ٣ -

هكذا يتأكد أن الثقافة العربية السائدة لا تزال في بنيتها العميقة ثقافة قروسطية، وهو ما لا أمل من التوكيد عليه، وأن المجتمع العربي لا يزال، في بنيته العميقة، مجتمعاً قتلانياً، عائلانياً، مذهبياً.

يتأكد ما هو أكثر إيفالاً في التخلف:

الإنسان الحز، المستقل، الإنسان بوصفه إنساناً، غير موجود في الثقافة العربية أو في الوعي العربي. وإذا لا قيمة له. وها نحن نرى كيف يُقتل الأفراد، يومياً، كما تُقتل الحشرات. وإذا لا معنى للكلام على حقوقه.

الشعب هو "الثوار" و"أنصارهم"، ولو كانوا أجنب ومن خارج "الشعب" ولا يفهمون من الثورة إلا القتل والتدمير والنهب. وأولئك الذين لم ينخرطوا مع "الثوار"، لا بد من الخلاص منهم قتلاً أو تشريداً، بطريقة أو بأخرى. حقوق الإنسان ثمليها أهواء الإنسان. الإنسان هو من يكون معي. من لا يكون معي يجب أن يُقتل.

ثقافة "ثورية" عربية تؤكد على أنه ليس من حق الإنسان أن يطرح أي سؤال (أو يدلي برأي) حول "ثورة" تقوم باسمه وباسم الدفاع عن "حقه" ضد الطغيان. ليس من حقه، مثلاً، أن ينتقد "تركيب" هذه الثورة، أو "خطابها"، أو "ممارساتها". وما يكون الفرق، إذاً، بينها وبين الطغيان الذي "ثور" عليه؟

- ٤ -

ما يثير التساؤل، على نحو خاص، هو "العقلانية" التي واكبت "الثورة"، وتلك التي وقفت، بخاضة، إلى جانبها، ومثلها أفراد كانوا، في معظمهم،

”موظفين” عند الأنظمة.

ذلك أن الفئة الأولى التي يجب أن تكون، تلقائياً، ضد ”الإسلام السياسي”، وضد تسييس الإسلام هي، بالضبط، فئة ”أهل الحرية والتحضر”، وعلى الأخص اليسار العلماني. فمن المفترض أن تعرف هذه الفئة أن الديكتاتوريات العسكرية لا تُحارب بديكتاتوريات دينية. وهذه الفئة تعرف، كما هو مفترض، أن الإسلام غُرب في الصراع العربي ضد الخلافة العثمانية. حُظط الغرب (البريطاني) لهذا التعريب، ودعمه للقضاء على هذه الخلافة. وهو نفسه، وقد انضافت إليه الولايات المتحدة بعد أقل من قرن، حُظط للإسلام السياسي ”الثوري“! - ضد الشيوعية، في البدء، وضد الحركات العلمانية والتقدمية العربية، ومن أجل تحقيق مناخ عربي مُلائم يصمت على ”يهودية“ الدولة الإسرائيلية وصولاً إلى القبول بها.

وهي فئة يُفترض فيها أن تعرف أن استعمار العرب يتم هذه العزة من داخل. فلم يعد الغرب في حاجة إلى ”حضور“ عسكري في البلدان العربية. يُحقق هذا ”الحضور“ العرب أنفسهم. ولذلك ينشط الصراع العربي - العربي، والإسلامي - الإسلامي، والعربي - الإسلامي، ويصبح الصراع العربي - الإسرائيلي مجرد ”لغو“ بعد أن كان ”لغة“.

ومن البدهي أن ترفض هذه الفئة تهميش غير المسلمين أو المسيحيين والنظر إليهم كأن لديهم مشكلات خاضة بهم وحدهم، لا علاقة لها بالمسلمين أو بعيثهم في بلدان ذات أكثرية بشرية تدين بالإسلام. هكذا يسهم معظم ”أهل الحرية والتحضر“، وأعني بهم مناصري ”الإسلام السياسي“ والمدافعين عنه، بتحقيق تراجع فكري واجتماعي مزدوج:

يتمثل في وجه منه بالعمل ضد الحرية؛ ذلك أن تسييس الدين عائق أول وأساسي ضد الحرية. وبدعم امذهبيات المغلقة، وتأييد هذا الربط الأعمى بين الحاضر العربي المختلف والماضي ”الإسلامي“، عبر جماعات فكرية - سياسية، دون مستوى هذا الماضي، وليست إلا غابة من اللباب المعرّش على تاريخ لإسلام. فكل تسييس للإسلام، كما تمارسه هذه السياسات الدينية السائدة، شكّل من أشكال الانحطاط والتخلف.

ويتمثل في وجه ثانٍ بإعطاء هاجس السلطة (لا الثقافة ولا العلم ولا الدين نفسه ولا النمو) المكان الأول في حياة العرب - المسلمين، بالتبعية والخضوع الكامل لخطط الغرب الاستعماري، لا الاقتصادية وحدها، بل الثقافية أيضاً، والعمل على تثبيت كل ما هو رجعي، مناهض، وعدوّ للإنسان وحرّياته وحقوقه، بحجة التخلص من ”الأنظمة الطغيانية“ التي

كانوا، كمؤسسات، جزءاً عضوياً فيها ومنها، في فترات متباعدة، ورفض ذلك أفراد عديدون، نساء ورجال، خوّنهم وكفرهم رفقاؤهم أنفسهم. هكذا أحب أن أسأل الذين يناصرون "الإسلام السياسي" (وهو مصطلح اختزالي، لا يليق بالإسلام):

ما الأعجوبة أو المعجزة التي يكتشفونها، فجأة، في هذا "الربيع العربي - الإسلامي"، في حركات "الإخوان المسلمين" وبقية "الأصوليين"؟ (وغني عن القول إنني هنا أتحدث عن الإخوان - المؤسسة، وليس عن الأفراد. فلست ضد الإخوان المسلمين أو غيرهم من الأصوليين بوصفهم أفراداً، وإنما أنا ضدهم بوصفهم حركات سياسية - اجتماعية - ثقافية شمولية.)

هل يرون في الانتصار لهم انتصاراً للديمقراطية؟ أو انتصاراً لرؤية إنسانية عالية تساوي بين الإنسان والإنسان، دون أي تمييز عرقي أو ديني؟ أو انتصاراً لرؤية حضارية تقرأ الإنسان والكون قراءة جديدة وفريدة؟ وقبل هذا كله، كيف يقبلون أن يسلموا هذه المنطقة العربية لعظيمة لجماعات لا ترى في كل ما قدمه الإسلام، على مدى خمسة عشر قرناً، إلا ثقافة التحليل والتحريم؟ كأن الإسلام في نظر هذه الجماعات ليس إلا أمراً ونهياً: سلطة مطلقة باسم الدين، وطاعة مطلقة لأولي الأمر. والأخطر من هذا كله هو أن "الإخوان المسلمين" والأصوليين، بعاقبة، يفكرون ويعملون كأنهم هم وحدهم المسلمون، أي كأنهم بديل للإسلام، وخلاصته، وإسلام فوق الإسلام.

إنها جماعات يجب أن تُسأل، أولاً، باسم إسلام الثقافة والحضارة والإبداع والتعدد والمساواة والحريات وحقوق الإنسان، امرأة ورجلاً، وباسم الإنسان الآخر المختلف:

أنت تنشطين منذ حوالى مئة سنة، فماذا قدمت للإسلام، أولاً، وللعالم ثانياً؟

أين قراءتك لتي تُغني الإسلام وتضيف إلى أبعاده المعرفية أبعاداً جديدة؟ أو تستكشف فيه أبعاداً جديدة؟

لا نجد عندك مفكراً واحداً، ولا فيلسوفاً واحداً، ولا عالماً واحداً، أو مستكشفاً أو مخترعاً أو رائداً في أي مجال، ولا شاعراً واحداً، ولا فناناً واحداً، ولا روائياً ولا موسيقياً أو مغنياً عظيماً، ولا مبرزاً متميزاً واحداً على المستويين العربي والكوني في أي ميدان من ميادين المعرفة الحديثة الخلاقة الرائدة. والمستقبل عندك هو ما يكون ضد المستقبل.

فمن أنت إذا؟ وبأي حق تدّعين ما تدّعين، وتعملين على قيادة المستقبل؟

وهل أنت في المستوى الذي يؤهلك لكي تحكمي بلداناً هي بين أكثر بلدان العالم عراقاً وإبداعاً؟

وما ستكون "ديمقراطيتك"؟ وما سيكون معناها؟ وما سيكون حكمك؟ والسلطة التي ستمارسها؟ و"الديمقراطية" نقيض كامل للإسلام، في صورته التي تؤمنين بها. فكيف تقبلين، من أجل الوصول إلى السلطة، وسيلة عملية ترفضينها نظرياً ودينياً؟

- ٥ -

بأي حق، إذا، يصز "الإخوان المسلمون" وغيرهم من "الأصوليين" على الظهور في مظهر من "يمتلك" الإسلام ومن "يحفظه" دون غيرهم من المسلمين؟

وبأي حق يصفق لهم بعض من أهل "اليسار" وأهل "الثقافة" وأهل "التحزّر والتقدّم" وأهل "الديمقراطية"؟

ولئن كان الإسلام ثقافة ورؤية إلى جانب كونه ديناً، فإننا نجد المسلمين الأحرار أو غير الحزبيين يتقدّمون على الأحزاب الإسلامية في كل شيء وعلى جميع الأصعدة. وهم الذين يضيئون اليوم الأبعاد الثقافية الإنسانية للإسلام ويعطونه حضوره الإبداعي في العالم، وهم أولى، إذا، بتمثيل الإسلام.

فبأي حق، مرة ثانية، يريد هؤلاء أن يحكموا المسلمين؟ على العكس، من حق المسلمين جميعاً أن ينتقدوا "الإخوان المسلمين" وغيرهم من "الأصوليين"، لأنهم لا يفقهون من الإسلام إلا التكرار وشؤون العبادات المشتركة العامة التي يتساوى فيها الجميع. هل يريدون، إذا، أن "ينقلبوا" على إسلام التنوع والتعدّد والاكتشاف، وأن يحولوا المسلمين إلى مجرد آلات: نعم نعم، لا لا؟ وبدلاً من العمل لتحويل بلدان الإسلام إلى جامعات ومراكز بحوث في مختلف الميادين، ومراكز إشعاع ثقافي، يريدون أن يحولوه إلى مجرد أوامر ونواهي، في التحليل والتحرير والتكفير، وإلى مجرد "عسكرة" و"عنف" و"غزو". هكذا يواصل الأصوليون، في مختلف تنظيماتهم، العمل على تجريد الإسلام من بعده الثقافي - الحضاري، وعلى تجريده من أبعاده الروحية التأملية. وهذه كلها كانت جزءاً عضوياً من حركية الإسلام في أزمنة الصعود والإشعاع والتفاعل مع الآخر.

هكذا تنبع المشكلات في المجتمعات العربية الإسلامية من أوضاع غير مادية، أو ليست مادية بقدر ما هي "روحية" - فكرية ودينية. وأولئك الذين يريدون تعطيل الحيوية في هذه المجتمعات يعملون على إبقاء مشكلاتها قائمة، فيطرحون حلولاً عنفية حربية تعيد هذه المجتمعات إلى الذكرة البدائية - الفريزية.

إنها حلول لا تقبل الأسئلة أو الحوار، ولا مجال فيها لما يحتمل الوجهين، أو للتأمل. هكذا تنقسم الوقائع والمواقف انقساماً حاداً: إلى أسود وأبيض، خطأ مطلق وصواب مطلق. الحدث نفسه يكون خيراً وصحياً إذا وقع في هذه الجهة، وشرّاً كاملاً إذا وقع في تلك الجهة. إنه يؤس الإنسان أولاً، قبل أن يكون يؤس النظر وبؤس العمل.

- ١ -

يمكن أن يتحول الموت إلى وردة تتحول إلى صاعقة.
يمكن أن يكون ٣٠ يونيو قاهرة جديدة، نظراً وعملاً،
رؤية وتأسيساً.
نعم، لا حدود للطاقة العربية، إذا كانت حرة، وإذا فكرت بحرية،
وعملت بحرية، في رفض كامل لجميع أشكال العنف.
فلم يدمر هذه الطاقة ويشوهها في تاريخها كله إلا العنف:
هذا الذي زرع فيها من خارج، باسم السياسة والتفذهب،
وذلك الذي دفعت إلى ممارسته، من داخل، باسم السياسة والتمذهب
أيضاً.
وهو عنف تحول إلى سوس نخز وينخر الممارسة السياسية والدينية،
ونخر وينخر الإنسان نفسه.
هكذا لم يحقق العنف في الحياة العربية إلا التآكل الذاتي، وإلا لاقتتال
والثدمير، وإلا الانهيار الاجتماعي والانحطاط الثقافي، وإلا العبودية
والثبعية.

- ٢ -

ألا يكفي أن يفرض على العربي أن يحفظ الشجون عن ظهر قلب منذ
طفولته؟

- ٣ -

لا طوباوية، بل الحاضر في جحيم أهوائه وانفجاراته.
لا طوباوية، بل الحرية الحرة، فيما وراء الأنظمة والمعارضات،
خصوصاً عندما تكون من طينة واحدة، وتنحدر من عنف تاريخي واحد،
وهويات ثقافية واحدة، مغلقة، وتحنق حقوق الإنسان وحرياته، وحقوق
الاختلاف، والتنوع والتعدد.

لا طوباوية، بل إعادة تأسيس للحياة العربية في عُقد اجتماعي جديد،
علماني، لكي يمكن أن ينهض هذا العقد على المواطنة التي تتخطى
مفاهيم التعايش والتسامح، إلى المساواة الكاملة والتامة، بين أفراد
المجتمع، نساء ورجالاً، في معزل عن الدين والعرق.

- ٤ -

للغد العربي، انطلاقاً من القاهرة، أسماء كثيرة مُختفلة. هل سيؤكد لنا ٢٠
يونيو أن "فريش" لن يكون الاسم الأكثر احتمالاً؟
وليس انقد لكي ننتظره، وإنما لكي نبتكره، يقول ستيف جوبز
الأميركي، العربي الأب، من سورية (حمص)، وأحد خلاقي الثقافة الكونية
الحديثة.

- ٥ -

كبش الفداء يثغو. وثقة رايات "ترفرف" تحت الأقدام، وتصرّ مع ذلك،
بعنف، على أنها رايات عالية.

- ٦ -

نعم يُنتج العنف، غير أنه لا يُنتج غير الخراب وغير الأضلاع.

- ٧ -

منذ دخول نابليون إلى مصر، يحاول العرب أن يكونوا "دولا" في إطار
الحدثة الغربية وأنظمتها الديمقراطية، وأن يخرجوا من مفاهيم "الغزو"
و"الذمية" و"القبلية". ولا شك في أنهم حققوا بعض المنجزات في
القطيعة مع هذه المفاهيم. غير أن التجربة الزاهنة تؤكد أن هذه
المنجزات كانت شكلية - سطحية، وأنه لم تلامس البنى العميقة التي
تأسست عليها تلك المفاهيم. وما يحدث الآن دليلٌ ساطعٌ على فشلها
الكامل.

إنها ثقافة الغزو والذمية التي تتزنا الآن بعبارات أصبحت مبتذلة وفرغة من المعنى، كمثّل "التعايش" و"التسامح" وما أشبه - وليس هذا في الواقع إلا تغطية وتمويهاً. فمفهوم الاكثريّة والأقليّة هو الفهيمن اليوم. والمذهبية، والطائفية، والعرقية، ثالثاً يدير هذه المنطقة، ويعيد مركزتها على عناصر التكوينات القبلية والعشائرية.

وقد ساعد العرب في العودة إلى ثقافة الغزو نشوء دولة إسرائيل. ولا أبالغ أو أقدم جديداً إن قلت إن الحبر الذي يُكتب به الآن تاريخ المنطقة العربية (عفواً، الإسلامية) إنما هو "كيمياء" إسرائيلية - غربية. ما العملُ إذاً؟

الجواب البسيط، المباشر، هو أنه يستحيل حلّ مشكلة بما أصبح هو نفسه مشكلة.

والكارثة هي في الإصرار على هذا الحلّ بحيث لا يكون إلا فصلاً من الفصول التي تبتكرها "كيمياء" ذلك الجبر.

- ٨ -

Accident / Occident: ما أبسط الفرق في الشكل، وما أعقده في المضمون.

غرب / عرب: ماذا تفعلين أيتها النقطة البليدة فوق حرف العين؟

- ٩ -

بين الواقع واللاواقع فرقٌ ليس إلا حاة إغماء في الحروف.

- ١٠ -

زمنٌ غربيّ - عربيّ، كمثّل غرابٍ
يحاول أن يطيرَ بجناحي نُؤزس.

- ١١ -

للقمر في بعض أيامه شكل المنجل.
نَبَّهَ إلى ذلك الشاعرُ ابنُ الفَعْتَرِ، واصفاً إياه بأنه من الفضة.
هذه هي المزة الأولى التي أرى فيها كيف يسقط هذا المنجل شارداً في
حقول العذب.

- ١٢ -

”كَلَامٌ يَتَكَلَّمُ دَاخِلٌ لِكَلَامٍ“: عبارة قديمة لآيوس لوكوتوس (Aius Locutus) رواها بلوتارك. وقد روى بلوتارك أيضاً أن الإمبراطور الروماني كاميلوس (Marcus Furius Camillus) أعجب بها كثيراً، وأمر بإقامة هيكل خاص تمجيداً لهذه العبارة وتخليداً لها.
الكلام الذي ”يقود“ العرب، اليوم، لا يتكلم، حقاً، لا داخل الكلام ولا خارجه.
الذين يهينون ٢٠ يونيو في القاهرة يعرفون كيف يجعلون من هذا اليوم الكلام العالي الذي يتكلم داخل الكلام، وخارجه.
التحية لهم، وهذا اليوم.

- ١ -

كلمتان تخرجان من رحم واحدة. أختان في اللغة وفي الحياة. ولئن كانتا عدوتين في اللفظ، فإنهما صديقتان في المعنى: عزش / نعش.
ولا أعرف بيقين إن كان في نيتي أن أكتب هنا عنهما، في ذاتهما، أو عفا حولهما، أو عفا تحتز دخال كل منهما، أو عفا تحتها وفوقهما، أو عفا وراءهما، أو عفا يجاورهما. ذلك أنني لا أنوي أن أتوسل الأبدية لكي تحوّل أيام الأسبوع، عدي، إلى ثمانية أيام.
مع ذلك، يعتمل في نفسي، في اللحظة ذاتها، شعور مضاد: أن أحوّل النية إلى عمل.
وماذا سيحدث؟

- ٢ -

أعرف، وربما يعرف غيري دون أن يعترف بما يعرفه، أن للعرش والنعش تاريخاً "أخوياً" واحداً، في الجغرافية العربية. مزة تكون الكلمة الأولى "شكلاً" والثانية "مضموناً". ومزة يحدث العكس. وفي الحالين نسمع لهما "رئيساً" خاضاً على المسرح الرحب المتنوع في هذه الجغرافية. نقرأ، أيضاً، هذا الرنين في المكاتب والمقاعد، في الشرع والشارع، في النهار والليل، في الأقلام والجرائد. نقرأ ولا ننتهي. وليس هناك غموض. ابوضوح سيّد على كل شيء.

ولئن غاب الممثلون الأوائل عن هذا المسرح المتواصل الضخم، فإن لهم تماثيل تحل محلهم - تأكل، وتضحك، وتعبث، وتحكم، وتقتل. تماثيل تبدو أحياناً أنها أكثر قدرة وأكثر جرأة من أصحابها الأصليين. تماثيل تفعل فعل "الذاكرة الدائرية"، وفقاً لعبارة رولان بارت، في كلامه على العلاقة التي كانت تربطه بكتابة مارسيل بروست.

- ٣ -

"الذاكرة الدائرية": أينما ذهبنا في أنحاء الحياة العربية، فأنت داخل الدائرة. هل يمكن أن نتخيل خروج اللغة من هذه الدائرة؟ يمكن. لكن، لن يقبل العرش ذلك ولا النعش. لن يقبل القادة ولا الصعاليك. ستهيمن الوحدة هنا وهناك.

وحدة جمع لا تتغير. هي هي نفسها، منذ نشأت. وليس لرغبات الفرد في هذا الجمع، أو لأحلامه وأهوائه، أي مكان في حياته وفي فكره على السواء. هو مجرد رقم: يولد ويموت رقماً.

ليس الإنسان، تبعاً لذلك، جديراً أن يتغير بقدراته الذاتية. لا ذات له. لا يغير المخلوق إلا خالقه. ذاكرة دائرية، لحياة دائرية، لزمن دائري. باسم تلك الوحدة، قد تشتعل حرب على كل من يغريه الانشقاق عن الجمع.

حرب تختزل السياسة والعمل السياسي فيها. وقد تتخذ أشكالاً متنوعة أهمها شكل العنف المسلح. إنها الحرب التي يصفها مكيا فيللي بأنها "الفن الأسمى" لتحقيق الهيمنة. وهي، بسبب من ذلك، الوسيلة الفضلى لضمان وحدة الصفوف و"رضها". كما لو أن الحرب لاهوت آخر. كما لو أنها امتداد للسياسة بطرق أخرى.

لكن، ماذا لو أن الحرب فاضت عن حدود السياسة، بحصر المعنى؟ كأن تتحول إلى حرب تعصبية باسم لاهوت أو ناسوت أو إيديولوجية؟ آنذاك ستقود هذه الحرب أصحابها إلى تجريد العدو، أو من يعدونه عدواً، من إنسانيته، والنظر إليه بوصفه تمثلاً للشز المطلق، مقابل تمثال الخير المطلق، تسويغاً لإبادته واستئصاله.

"- كلاً، لن نطلق عليك رصاصة. للرصاصة ثمن. فسبحان من حلّ ذبحك."

تلك هي صرخة اللاهوت السياسي في وجه الناسوت الذي يحسبه عدواً.

هل ما يحدث في سورية، مثلاً، أو ما حدث في العراق، أو اليمن، أو السودان، أو الجزائر، أو ليبيا - حرب ناسوت أم حرب لاهوت؟ وأين السياسة هنا؟ وماذا وراء هذا الثنائي الحربي اللاهوت - الناسوت؟ وماذا نرى تحته، وفوقه، وحوله، وداخله؟ وإلى أين يقود هذا "التاريخ" تلك "الجغرافيا"؟

أجسام تتمزق. رؤوس تتدحرج. أشلاء تتطاير. عمران يتهدم: إنه لغو التاريخ يتموج على هذا السطح البشري الذي يتموج بين ماء الأطلسي،

وما بقي من ماء دجلة والفرات. قتل من أجل القتل. خراب كيان وخراب إنسان. طغيان يحل محل طغيان. تاريخ للخروج من التاريخ. وماذا يبقى مما يُقال له علمٌ وأدبٌ وفنٌ؟ وأين الكتابة؟ أهي اختراقٌ لهذه الظلمات، أم هي مدائحٌ وأهاجٍ، وانعكاس انتماعات؟ كتابةٌ تندرج في هذا العماء التاريخي العام. كتابةٌ - تمجيدٌ للذات وفعله وعناصره وأدواته. تمجيدٌ لجميع الخُجب - لكن مع "تفضيل" حجابٍ على آخر، لغاياتٍ لا يفهمها إلا "العلماء". وأين هي تلك الثورة التي تحدث أولاً في الرأس، وفي العقل، وفي الجسد، وفي اللغة؟ لكن، ماذا أقول وبماذا أهذي؟ يكفي أن نترك للخراب نفسه أن يسيطر، وأن يقيم المباريات والمنافسات بين أبطاله. يكفي أن يظل العالم العربي متصدعاً، لا مفاصل له، وفي "أحسن" حالاته، انهياراً واستخذاء. تاريخٌ للخروج من التاريخ.

- ٤ -

يقول الناقد الفرنسي جان بريفوست في صدد كلامه على فن السرد عند ستندال: "لا يعبر عن قوة الشعور بالأحداث إلا بنسيانٍ كامل لدقتها". هل علينا، إذًا، لكي نمتلك هذا الشعور، أن نبكر نسياناً خاضاً بالأحداث العربية التي "تبتكرها" تلك الكلمتان - الاختان: العرش والنعر؟ ونسياناً خاضاً لما يتأسس بينهما: هيمنة الجمع على الفرد، وهيمنة الدولة على الإنسان، في "ثقافة" إعلامية جوهره الدعاية: مدحاً أو هجاء؟ وكيف يمكن أن نبكر هذا النسيان في ثقافة "تجلس" و"تمشي" و"تأكل" وتنام في أحضان الذاكرة، وبين يدي "آلتها"؟ تخيل، أنت يا من تقرأني الآن، كيف أعيش خارج هذا النسيان، أو هذه الذكرة. تخيل وارسمني.

عيناي، لا في رأسي، بل في جلدة كتاب، عقلي محفوظ في صندوق مغلق بعيداً عن "رطوبة" الأباطيل، لا أحتاج إلى رأسي: يحل محله شبيهة به - كيش محشوٌ بالتعاليم المحشوة باليقين،

فمي محفوظ في راحة يدي، وليس لي أن أشكو أو أن أسأل، عندما أرى جسماً يتدحرج لكي ينزل في جوف الحوت.

الحوث هو المعنى. وهو أبجدية المستقبل. وهو "الذاكرة الدائرية"
نفسها.
صمتاً، صمتاً أيتها اللغة.

(١٠/١١/٢٠١٢)

للمرة الأولى، في التاريخ العربي، وربما في تاريخ العالم، يتجسد في الشارع، على الأرض، عملياً وميدانياً، مثل هذا الوعي. وهذا التعبير عن إرادة جمعية، التعبير عن موقف فكري - سياسي بالغ الوضوح والدقة والتميز، بين الديني والسياسي، رفضاً للتبعية والخضوع، وطلباً للعدل والمساواة والإدارة العالمية للدولة والمستقبل. ومن أروع مشاهد ساحات المليونيت مشاهد الصلاة الجمعية في حيز يرفض الاستئثار السياسي باسم الدين، ويرفض الخلط بين الديني والسياسي.

وما يضاعف الإعجاب هو هذا الحضور الكثيف للنساء ومشاركتهن في التعبير. حيث تستعيد هذه الأكثرية الاجتماعية بعض حقها في لحضور والفاعلية، وإن اقتصر حضورها حتى الآن على التعبير دون المسؤولية. وما يدهش هو هذا الغياب الكامل لأي حادث صدام أو مخالفة مسلكية واستغلال، مع الانضباط العجيب في مثل هذه الحشود. إنه امتحان الشارع، أي سلطة الشعب الفعلية، لمجموعة من الأفكار والأطروحات التي راجت على امتداد عقود طويلة. الشعب هنا هو السلطة التي لا سلطة فوقها.

وللمرة الأولى، في التاريخ العربي الحديث، يتجسد في الشارع، على الأرض عملياً، الانشقاق بين نظرتين: الأولى تلك التي تتخذ من الماضي مرجعية مطلقة، وتصرّ على العودة إليه، وإذاً على استئناف التاريخ، والثانية، تلك التي تريد، على العكس، أن يكون الماضي أفق استبصار واعتبار، وإذاً تريد أن تتفهم الحاضر العربي والكوني، وأن تبني عالماً جديداً، وتؤسس لكتابة تاريخ جديد.

والمسألة، إذاً، أبعد وأكثر تعقيداً مما يتراءى إلى كثيرين. إنها مسألة حضارية، وبوصفها كذلك، لا يمكن أن تُختزل في صراع حزبي - سياسي على السلطة، بين "أهل الجزية والتكفير" و"أهل الثورة والتحرير". إنها مسألة ترتبط عضوياً بالهوية العربية، وإذاً بالمصير العربي. وهي من ثم مسألة إنسانية - كونية.

الأمر البدهي الذي يعرفه الجميع هو أن المنتمي إلى حزب ديني، كالإخوان المسلمين أو غيرهم، ليس أكمل إسلاماً أو أكثر تقوى من فرد غير منتمٍ إلى حزب ديني. من أين يمكن أن تجيء أفضلية المتحزب إسلامياً؟ ومن أي مصدر يستمد نفوذه المعنوي؟

الأمر البدهي الآخر هو أن التطورات المعرفية والاجتماعية الحالية قد رفعت من مستوى الكفاءات الاجتماعية والعلمية والعملية لدى النساء، فكيف يمكن أن يستمر تهميشهن أو التمييز على تقييدهن والاكتفاء ببضع تلوينات رمزية هنا وهناك؟

وفي حين تمثل الأكثرية العددية معياراً للشرعية، كيف يتواصل تجاهل الأكثرية العددية للنساء؟
في هذا الضوء، أقدم بضع إشارات.

١ - خمس إشارات

١ - الإشارة الأولى هي أننا، نحن العرب، نؤخذ بالأسماء، دون أن نتوقف عند المسميات، أو نتساءل، وندقق. الأشكال والمظاهر هي ما يهتما. الحداثة، الديمقراطية، الحرية، الثورة... إلخ، على سبيل المثال، مجرد ألفاظ نتداولها في ذاتها - في معزلي عن سياقها، وتاريخيتها، و"هويتها"، ونسبيتها، ونتصارع باسمها، ويعلن بعضنا حروباً على بعضنا الآخر، ونقتل باسمها بعضنا بعضاً.

هناك ("أسماء" - مفهومات، نظريات)، كمثل الديمقراطية، أخذناها استيراداً، كما نستورد السيارات والطائرات.

أعني ليست لنا، نحن العرب، أية علاقة بها، تاريخياً، فلم نعرفها في تاريخنا كله. ذلك أن الديمقراطية في أبسط دلالاتها اعتراف بالآخر المختلف، في المجتمع، بوصفه عضواً فيه، وله الحقوق نفسها التي يتمتع بها المواطنون، أيّاً كان انتماءهم الديني أو الثقافي. والمختلف، في تقاليدنا، "كافر"، بشكل أو آخر، قليلاً أو كثيراً، بوصفه "خارجاً" عن إرادة "الجماعة"، ولا يمكن أن يُعَدَّ عضواً في جسم "الأمة". وليست له الحقوق نفسها، مع أنه يقوم بالواجبات نفسها.

الديمقراطية، بالنسبة إلى الإخوان المسلمين في مصر، على سبيل المثال، مجرد أداة للوصول إلى السلطة. عندما يتم الوصول بواسطتها يتم إنكارها من هؤلاء أنفسهم.

وهكذا نستخدم المفهومات، مفرغة من معناها الأصلي، ومُحرَفة. نستخدمها لا بوصفها طريقاً مفتوحة، بل بوصفها أدوات عملية نخدمنا في تحقيق أهدافنا.

أخذ مفهوم "الثورة" مثلاً آخر على إفراغ المفهومات من معناها. للثورة معنى أول مباشر هو الانتقال من حالة سيئة إلى حالة حسنة، من الحاضر

الذي يقيد إلى المستقبل الذي يحرر.

غير أن مفهوم الثورة عندنا، نحن العرب، خصوصاً في ما سُمّي "الربيع العربي"، هو على العكس: إنها تعني العودة إلى "مثال" قائم في الماضي. إنها عودة إلى ما يستحيل أن يكون حاضراً إلا في "الأهواء" و"الرغبات" و"المخيلات"، أي إلى كل ما يتناقض مع الواقع الحي، على جميع المستويات. إنها ثورة لقتل العقل والمخيلة والابتكار، وفي المحصلة لقتل الإنسان نفسه.

٢ - إهمال تجربة التاريخية العربية، وهي تجربة تؤكد أن العرب كانوا يتمزقون وينهارون كلما حوّلوا الدين إلى أداة سياسية، بدءاً من أواخر العهد الراشدي، مروراً بالعهدين الأموي والعباسي، وصولاً إلى العصور الحديثة.

بينما كانوا، على العكس، يزدهرون ويتقدمون بقدر ما يتيح صاحب السلطة (ال خليفة) الفصل، ثقافياً، بين الدين، من جهة، والسياسة والسلطة، من جهة ثانية، وذلك في العصور كلها.

٣ - لم يعد الإسلام، في الممارسة السياسية الإسلامية السائدة، ولا سيما الإخوانية، "ديناً"، وإنما أصبح "حزباً". وفي هذا إشارة إلى تخلف الوعي الديني نفسه، من جهة، وإلى غياب الأفق الحضاري - الإنساني، من جهة ثانية.

هكذا يُحوّل الإسلام في بلدان العالم الإسلامي كله، على تنوعه وغناه وتعذده واثساعه، إلى "أحزاب"، ويُختزل في "منظمات" و"جماعات".

٤ - في هذا كله يرى المسلم أن "الرأي" أو "النظر" مقدّم على الإنسان. الرأي الديني، أولاً، ثم الإنسان. وهذه ذروة الانفلاق الفكري. وهي نقيض كامل للحياة والإنسن في أن. ذلك أنها تحوّل الحياة إلى جحيم، والإنسان إلى آلة، والوجود (على الأرض) إلى سجن هائل. العقل يقول إن الدين نفسه وُجد من أجل الإنسان، وإن الإنسان وُجد من أجل أن يبني عالماً أفضل.

٥ - الطاقة الكبرى هي الاستنجاد بالأجنبي من أجل بناء سلطة "وطنية" أو "دينية"، حتى لو أدى هذا الاستنجاد إلى تدمير "الوطن" أو تفكيكه.

وهذا يحتاج إلى دراسة خاضة، ربما سيكولوجية في المقام الأول: كيف نرفض دينياً و"ثقافياً" قوى خارجية، ونتوسل هذه القوى في الوقت نفسه لكي تضقنا إليها "سياسياً"، وأن تسمح لنا بالدخول في كف سلطتها؟

II - مفصل تاريخي

١ - ٢٠ يونيو مفصل تاريخي، نهاية وبداية في آن: نهاية للممارسة السياسية السابقة في مصر.

٢ - العمل على أن تكون مصر "أفضل وأعدل وأجمل وأغنى": هذا هو الدافع الأساس، والمحرك الأول. لا بلوغ السلطة في ذاتها، ولا إسقاط النظام في حد ذاته. لا القتل، لا الوصولية ولا الانتهازية. لا النهب ولا التدمير.

٣ - الخلاص من العنف، في جميع أشكاله، ومن الشناعات التي حوّلت "الثورة" إلى مناخ تجارة وتبعية، وجرائم من كل نوع. كأنما هناك شعور سائد هو أنه لم تبق أهمية لأي شيء، ولهذا أصبح كل شيء ممكناً. وهذه عبثية كاملة.

٤ - تتمتع الأجيال المصرية الشابة، نساء ورجالاً، بقدرية كبيرة على الرؤية الكاشفة، والممارسة العالية. وهو ما يولد الأمل بنشوء مؤسسات تحتضن إبداعاتهم. إنهم يؤسسون لعلاقات جديدة مع أدوات الثقافة المعاصرة - الصورة، الفيديو والسينما والإنترنت، والكتابة والرسم التشكيلي والموسيقى والغناء، تفتح آفاقاً جديدة لظهور كتاب ومفكرين وفنانين من طراز مختلف، جديد، ومدهش، وفقال.

إنهم يمثلون لاستجابة الحية للقاعدة الفئرية الراسخة وهي أن الفن، جوهرياً، تحوّل دائم - وأن الثقافة هي كذلك تحوّل دائم.

٥ - استحالة التخلص من العنف "العملي"، إذا لم نتخلص من العنف "النظري". والثقافة العربية نهضت، ولا تزال، على كثير من الدعائم اللإنسانية في مقدماتها "العنف". وتجسيد ذلك في الميدان السياسي واضح لمن يريد أن يرى. بل لا يزال العنف جزءاً أساسياً من الشعور ذاته، أي من اللغة ذاتها: الهجاء، مثلاً، عنف ضد الآخر لا يقل تأثيراً، في بعض وجوهه، عن العنف المادي. وهو مقبول "أدبياً" و"اجتماعياً" و"سياسياً".

غير أننا لا نستطيع أن نقضى على هذا العنف النظري، خصوصاً ذلك الذي يكمن في بنيتنا العقلية والثقافية، (متمثلاً، خاصة، بعدم الاعتراف بالآخر المختلف) إلا إذا قضينا على مصادره وأسبابه. والسؤال، إذاً، ذلك الذي يواجه هذه الأجيال هو: كيف نقضى على العنف، وكيف نستأصل أسبابه؟ كيف نحوّل الطاقة المدمرة في الإنسان العربي إلى طاقة بناء وخلاقة - في اتجاه الآخر، في اتجاه الصداقة، والعدالة، والإبداع؟ كيف نخلق الشروط التي توصلنا أو تساعدنا في تحقيق ذلك؟

٦ - أعمق ما يشخص ثقافة "أهل الجزية والتكفير"، الذين يتخذون التاريخ الماضي، أو تاريخ الماضي، مرجعيةً مطلقة، نراه في ما يقوله بول فاليري حول التاريخ. فالتاريخ "يسكر الناس، ويجعلهم يستعيدون ذكريات خاطنة، ويضخم انفعالاتهم، ويترك جراحاتهم تنزف، ويخلق لديهم إما هذيان العظيمة، أو عُقد الاضطهاد"⁽²⁾

(2) مارك بيوخ، دفاعاً عن التاريخ، ترجمة أحمد الشيخ، المركز العربي للدراسات الإسلامية، القاهرة ٢٠١٣

واستناداً إلى هذا "السُكْر" بالتاريخ، نقول: إذا أصّر "أهل الجزية والتكفير" على موقفهم، ونمط تفكيرهم، وصولاً إلى السلطة، فإنّ معنى ذلك أنّ المجتمع العربي سيفشل، بوصفه مجتمعاً، في إيجاد مخرج أو حلول لمشكلاته. وسيكون وصولهم إلى السلطة بمثابة الخطوات الأولى نحو الهاوية. وهذا ما سفيته، في مناسبات سابقة، بحالة "الانقراض" مُشيراً إلى نهاية "الحضور العربي"، - على ساحة العالم، إبداعاً وفعالية، ومشاركة في بناء عالم المستقبل. وهو ما يسقيه سمير أمين، في تنويع سياقي آخر، "الانتحار الجماعي"⁽³⁾.

(3) سمير أمين، ثورة مصر، دار العين، لإسكندرية، ٢٠١٢، ط٢، ص ٢١٢.

في الدستور المصري الجديد قضايا كثيرة (امتيازات الجيش والسلطة، الشريعة - فهماً وتفسيراً) تثير خلافات كثيرة، وتستدعي مناقشات متنوعة، لا أحب أن أدخل فيها، الآن. لكن هناك ما ينبغي رفضه مباشرة، ودون أي نقاش، لأنه ضد الحياة والإنسان، عدا أنه يعود بمصر إلى عالم القرون الوسطى، وهو ما يتعلق بحريات الفرد وحقوقه، وبخاصة المرأة. لم يولد بعد الإنسان، الفزذ، المستقل، الحز في نظر واضعي الدستور. الوجود الوحيد هو الجماعة - لسلف، من جهة، وهو من جهة ثانية النض الديني، وخياً وسلّة، لكن كما تفهمه الجماعة، أثباعاً. مصر، من جديد، في زنزانة القرون الوسطى: اجتماعياً وسياسياً وثقافياً.

أليس كارثياً، على المستويين الإنساني والتاريخي، أن تكون مصر ما قبل الإسلام أعظم فكرياً، وأكثر انفتاحاً، وأعمق إنسانية، منها بقيدة السلفيين والجهاديين وحلفائهم؟

كارثي أيضاً أن تنضم مصر إلى المسيرة السياسية التركية، كما يخطط هؤلاء. فتركيا الآن "تجاهد" لكي تتخلى عن كونها وطناً تعدياً، وتتقلص في "مذهبية واحدة"، وفي عرقية قومية واحدة. وهي لذلك "تجاهد" للقضاء على أهم إنجاز ثقافي - اجتماعي في تاريخها كله: العلمنة التي حققتها كمال أتاتورك، وأتاحت لها أن تكون جزءاً من "حادثة" العالم.

هكذا تعمل التيارات الدينية على قتل المستقبل باسم الماضي وإلغاء الحرية الفردية التي لا معنى للمجتمع إلا بدءاً منها واستناداً إليها، باسم الأمة والسلطة، وعلى مخو الثقافة والإبداع باسم الشريعة والفقه.

إنهم يديرون وجه مصر إلى الوراء، فيما تتجه إلى الأمام وجوه البلدان في العالم كله.

لماذا لا يُعنى العرب المسلمون بالمستقبل - مستقبل بلدانهم وشعوبهم؟ لماذا يبدوون كأنهم يعيشون على هامش الزمن، داخل زمن خاص بهم وحدهم؟ لماذا هذا الهيام بالواحدية، في كل شيء وعلى جميع المستويات؟ لماذا لا يعنون بالقضايا الأكثر حضوراً في الثقافة الكويتية والتي تشغل العالم كله: التعددية، والتنوع، والاختلاف، والقيم الحياتية المدنية، العلمانية، وحرّيات الإنسان وحقوقه - وبالأخص الحريات الفردية الخاصة: في التفكير والتعبير، في الحب والجسد، في التدين واللاتدين؟ إضافةً إلى قضايا البيئة، وتغيرات المناخ، والتلوث، والفقر، والبطالة، ووحشية التقنية، وبخاصة الحربية؟

هل الهيام بالواحدية هو الذي يصرفهم عن التفكير في هذا كله، أو بعضه؟ هل هذا الهيام تابع لهيامهم الآخر بالعنف وثقافة العنف، أو هو نتاج له؟ ولماذا لا يُعنون بتحليل تلك العلاقة المعقدة بين الواحدية، من جهة، والعنف والطفان والشمولية، من جهة ثانية، أو بذلك الاقتران العضوي بين السياسة والسلطة والمال، من جهة، والشمولية والطفان، من جهة ثانية؟ هل من الواحدية الدينية تجيء، أساسياً، الواحدية السلطوية؟ ألا يكفي أن تظل المجتمعات العربية - الإسلامية هي نفسها بؤراً لأمراضها وانقساماتها وصراعاتها؟ ألا تكفي تجاربها المريرة الدامية، واللاإنسانية غالباً، على مدى أربعة عشر قرناً، ومن ضمنها الأندلس، بسبب الواحدية دينياً وسياسياً؟ وكيف إذاً ستواجه هذه المجتمعات مشكلاتها: الفقر، الجهل، التصحر، ضحالة التعليم، المرض، قلة الموارد، تزايد عدد السكان، شح المياه، البطالة - وانهيار "الإرث" الوحيد الباقي: اللغة العربية؟ ولماذا، إذاً، هذا السفر الأعمى في محيطات الماضي؟

الحاجة، اليوم، ماسة أكثر من أي وقت مضى، إلى أن نرفض، على نحو قاطع، كل ما يحوّل الإنسان إلى مجرّد وسيلة أو أداة من أجل تحقيق أهداف أياً كانت - سواء تمثّلت في المقدّس أو الدين، في الوطن أو الدولة، في التقدّم أو العلم. الإنسان هو الغاية. وكل شيء من أجله. الدين نفسه وُجد من أجل الإنسان.

لكن انظروا هذا العالم العربي: الإنسان هو الأدنى قيمةً بين جميع الأشياء.

- ٥ -

كان تاسيت، المؤرخ اللاتيني، يقول: "الزمن رخو، والتاريخ قذر".

- ٦ -

خير لك، أيها الكاتب، أن تكتب في زمن الحرب عن جمال العواصف، وعن الأمواج، وصخب الزعد، من أن تكتب عن السيارات المقبلة التي تنفجر حاصدة البشر، وعن الرؤوس المحروقة، والأطراف المقطعة، والأجسام المسحوقة.

- ٧ -

قال لي مزه في طوكيو فيلسوف ياباني: "السز في وحدة الشعب الياباني، على الرغم من تناقضاته، يكمن في تقاليده الحربية القديمة. كان العمل الأول الذي يقوم به المنتصر هو الانحناء أمام المهزم، تحية له." كنا نحن العرب نمارس ما يناقض ذلك تماماً. منذ تعاليم التوراة، يميل تراثنا إلى مفهوم الإبادة، إبادة المهزم، بشكل أو آخر: إما أنت أو أنا. الواجهة دائماً. تراث ضد الإنسان.

- ٨ -

كان روبسبير يقول: "الفضيلة دون إرهاب عاجزة". وهو قول تطور كثيراً، ويكاد أن يصل في تطوره عربياً وإسلامياً إلى هذه الصيغة: "إن كانت هناك فضيلة فهي الإرهاب". وتقول المائدة السادسة من قانون "الإرهاب الكبير" في الثورة الفرنسية: "يجب تدمير كل شخص لا يرفض النظام القديم".

وبعد أكثر من قرنين، ووفقاً للقانون غير المكتوب في الثورات العربية
- السلفية، نقرأ: "يجب تدمير كل شخص يرفض النظام القديم!"

- ٩ -

تعميقاً لمفهوم الإبادة وشغفاً به، يتأسس في الحياة المعاصرة، على
مستوى الكون، نوع آخر من أنواع الضيد هو اصطيد البشر. لكن فن
الإجهاز على الظريدة يبدو، لعمقه البدائي وتأضله، كأله فطري طبيعي
يتفوق على جميع الفنون.

من جميع الجهات التي تحيط بالظريدة البائسة تعلو الأصوات:
"ضعوا سكيناً بين الفكّين. خنجرأ على الحنجرة. سيفاً على الرقبة. لا
تنسوا الأقدام والأيدي. وليكن اختيار السلاسل دقيقاً وجيداً. لا تعذبوا
جسم الأرض بحفره لاستقبال جسم الظريدة. احرقوه، أو اتركوه للضباع
وغيرها من الحيوانات والحشرات اللاحمة.

ولكم أن تسقوا هذا كله... ماذا؟

لكم أن تبتكروا أسماء جديدة لتسمية هذه المنجزات الضخمة، تليق
بها، وتكون في مستواها".

هذا النوع من "الاحتفاء" باصطياد البشر شكل "مكبوت" من أشكال
الطبخ، وإعداد المائدة لنوع آخر من الطعام.

وفي قولٍ للعلماء المختضين أن الإنسان القديم البدائي لم يكن يهتم
كثيراً بأكل اللحم. كان يأكل ما يتيسر له من الأعشاب والنباتات. هكذا كان
حجم دماغه لا يزيد عن ٥٠٠ سنتيمتر مكعب.

الإنسان النياندرتالي كان يأكل اللحم كثيراً، وكانت اللحوم تشكل نسبة
٩٠ بالمئة من طعامه، حتى شُبه بالذئب. هكذا كان حجم دماغه ١٦٠٠
سنتيمتر مكعب.

والسؤال هو: ما حجم أدمغة البشر اليوم - خصوصاً أولئك الذين
"يأكلون لحوم إخوتهم"؟ ومن نسال؟

أظن أننا، في هذا الميدان "المعرفي"، نجد "علماء" عرباً كثيرين لا
يبرزهم أحد.

- ١٠ -

يقول فرونتون Fronton، البلاغي المشهور وأستاذ الأمبراطور أوريل، إن اللغة الإنسانية "تأكل الضوز كما يُقتلَع اللحم بالأسنان". وكان يُعنى كثيراً بالشكل، وترك مدائح نثرية عن الذخاير والغبار. ومنذ أن افئدي إسحاق "بذبح عظيم" يقل دائماً: المستقبل زاهر. وسوف تعم السعادة والعدالة. وسوف تزول الحروب، وجميع أشكال العنف... إلخ. ولا يزال الموعودون ينتظرون "سوف"، فيما يتابعون أكل لحوم بعضهم بعضاً، ويموت كلٌ منهم وفي نفسه شيء من "سوف".

- ١١ -

الدالّ يموت تحت غطاء المدلول. المخوق الضحية عشبة يابسة في صحراء الخلق.

- ١٢ -

ما أكثر، في عالمنا الراهن، تلك الحروب التي لا ينتصر فيها إلا الذين يجب أن ينكسروا.

- ١٣ -

في المادة الثالثة من إعلان حقوق الإنسان، أن مبدأ كل سيادة قائم في الوطن.

ربما ينبغي، في ضوء سياسة العولمة، اليوم، أن تُعدّل هذه المادة، وتصبح هكذا:

"مبدأ كل سيادة قائم خارج الوطن!"

تحية إلى مصر وإلى ميادين تحريرها

الجرارك في مصر ضد "اخونة" المجتمع المصري فاصل تاريخي. فهو يتيح لنا القول بأن مدنية الدولة لم تغد مجرّد رأي نظري تقول به أوساط ثقافية عربية ضيقة وهامشية، وإنما أصبحت حركة شعبية. أصبح الفرد، غيز "المفكر" اختصاصاً، شريكاً للفرد المفكر في رأيه وعمله. نشأ بين الفكر والحياة اليومية لقاء سيامي ففان، للمرة الأولى في تاريخ العمل السياسي لعربي. ولهذا اللقاء أهمية فريدة وخاصة تتمثل في أنه ليس حزبياً، وليس إيديولوجياً. إنه لقاء حياتي. لقاء تجارب وأعمال وتطلعات. إنه اللقاء لحقيقة: الفكرة الخاصة تحوّلت إلى وعي عام.

هذه هي النواة الأساسية للعمل الذي يمكن وصفه بأنه ثوري: عمل في قاعدة يضيئه نظر في القاعدة أيضاً. عمل - نظر / نظر - عمل في أفق سياسي - ثقافي - اجتماعي:

- 'المدنية العلمانية،

- حكم القانون: الحرية، المساواة، العدالة،

- نبذ العنف بجميع أشكاله النظرية والعملية،

- الاستقلالية، والرفض الكامل لأي تدخل أجنبي،

المرأة شريك للرجل في بناء الحياة والمجتمع، وفي جميع الميادين، دون تمييز أو فزق إلا في ما يخضع للطبيعة.

هذا يعني أن اللقاء الذي أشير إليه يناهض "العقلية الإخوانية" التي تُحوّل الإسلام - الوحي والشفافة والحضارة، إلى مجرّد حزب يتمثل فيه، وحده، الإسلام "الصحيح"، وإذا المجتمع "الصحيح"، والسياسة "الصحيحة" هكذا يُحوّل الإسلام إلى "فلاك" خاص، وتُحوّل الحقيقة. هي كذلك، إلى فلاك خاص. وهكذا يسمح امتلاك "الدين" بامتلاك "الدنيا"، بل يقتضيه حكماً.

تؤدي مناهضة "العقلية الإخوانية" ومناهضة كل تحزيب أو تسييس آخر للدين. وعلى 'خلاف المذاهب، إلى التأسيس لفهم جديد للإسلام. فهو على الصعيد الحضاري - الإنساني مناح ثقافي متميز وخاص، وهو على الصعيد الفردي تجربة روحية متميزة وخاصة في العلاقة مع الإنسان ومع العالم، ومع العيب، لا تُلزم إلا صاحبها.

هكذا يظل الدين في مستواه الكوني، ويظل أن يكون أداة أو آلة سياسية أو سلطوية لأي فرد أو أية جماعة.

وفي هذا العلق الذاتي يفيض تحزُّرُ المسلمين عن كونه تحزُّراً مما هو
"خارج"، ويصبح كذلك انعتاقاً من "داخل". لا تعود "الأمّة" مفهوماً
سياسياً، وإنما تصبح كياناً روحياً: مجموعة الأفراد الذين يعيشون الإسلام،
بوصفه تجربةً روحيةً خاضة، في العالم والإنسان، وفي المصير والموت
وما وراء العالم. وفي هذا يتأكد النظر إلى الذين بوصفه فردياً، وغايةً لا
وسيلة؛ وبوصفه تجربةً في تحزُّر الإنسان وسموّه، لا أداةً لترويضه
واستعباده.

الإنسان، حقوقه وحياته، أو الهاوية

(رسالة مفتوحة إلى الرئيس بشار الأسد)(4)

(4) نشرت في جريدة السفير (الثلاثاء، ١٢ حزيران/يونيو ٢٠١١)

- ١ -

السيد الرئيس،

لا يصدق العقل ولا الواقع أن الديمقراطية سوف تتحقق في سورية، منذ أن يسقط نظامها القائم. لكن بالمقابل، لا يصدق العقل ولا الواقع أن يظل النظام العنفي الأمني في سورية قائماً. وذلك هو المأزق: من جهة، استحالة نشوء الديمقراطية في سورية، إلا بعد نضال طويل، وإلا ضمن شروط ومبادئ لا بد منها. لكن، لا بد من التأسيس لذلك، ومن البدء، الآن لا غداً. من جهة ثانية، بغير الديمقراطية ليس هناك غير التراجع وصولاً إلى الهاوية.

- ٢ -

صار من النافل القول إن الديمقراطية، سياسياً، لم يعرفها العرب في تاريخهم الحديث. لم يعرفوها أيضاً في تاريخهم القديم. وهي، ثقافياً، من خارج التراث الثقافي العربي. غير أن هذا لا يعني إطلاقاً استحالة العمل على التأسيس لها. وقد بُدئ هذا العمل مع بدايات الاستقلال. وكان شجاعاً وبناءً. وإنما يعني أن هذا العمل يقتضي شروطاً أساسية، ولن يكون مجدياً إذا لم تتحقق، بدنياً. وبين هذه الشروط ما حال، ماضياً، دون أن يأخذها العرب من الآخر ويمارسوها، كما أخذوا أشياء كثيرة، نظرية وعملية، ومارسوها ويمارسونها، وبرعوا فيها ووبرعون. أول هذه الشروط هو الخروج بالمجتمع، ثقافياً وسياسياً، من "زمن السماء، الجمعي والإلهي" إلى "زمن الأرض، الفردي والإنساني". أو هو،

باللغة السياسية المدنية: الفصل الكامل بين م هو ديني وما هو سياسي واجتماعي وثقافي. وقد ناضل من أجل ذلك، منذ القرون الأولى لتأسيس الدولة الإسلامية - العربية حتى اليوم، مفكرون وشعراء عرب كثيرون، غير أنهم لم يفسلوا فقط وإنما سَفَّهوا وكَفَّروا وقَتَلوا، تبعاً للوضع والمرحلة التاريخية. كان الدين المؤسسي هو الذي غلب ولا يزال يغلب. والمزج بين الديني والسياسي لا يزال قاعدة النظر والعمل في الحياة الإسلامية - العربية. وهو مزجٌ شهدنا ونشهد رسوخه وآثاره المدمرة، كل يوم، وفي مختلف المجالات. إنه قاعدةٌ يُقتل فيها الإنسان شرعاً: 'حياناً يُقتل فكراً، وأحياناً يُقتل جسداً، من أجل "النص" أو تأويلٍ معيّن للنص.

كيف يمكن أن تنشأ الديمقراطية في مناخ لا يقيم وزناً لحرية الفرد وللتجربة الإنسانية، ويرفض الآخر المختلف - نبذاً، أو تكفيراً، أو قتلاً، ولا يرى الحياة والثقافة والأزمة والأمكنة والحضارات البشرية إلا في مرآة النض؟ والنض، مهما كان عظيماً، يصغر إذا قُرأه عقلٌ صغير، كما يحدث اليوم غالباً.

ولا ديمقراطية أساساً في الدين، بالمعنى الذي تتفق عليه وتندوله في إطار الثقافة اليونانية - الغربية. الدين بطبيعته انحيازٌ سماوي يلحق الأرض بالسما، والبشر بنصوصه.

وهو، على مستوى التعامل مع الآخر المختلف، لا يمكن أن يتخطى التسامح، في أرقى حالات انفتاحه. لكن التسامح هو نفسه نقيضٌ كذلك للديمقراطية. تتسامح هذه الجماعة مع تلك المختلفة عنها، مضمرّة أنها الأكثر صحةً. ويكون تسامحها نوعاً من الهمة أو التفُضُّل والتكزم. يكون، إذاً، شكلاً من أشكال احتكار الحقيقة، ومن التعالي والتفوق والعنصرية. هو في كل حال ضد المساواة. والإنسان لا يريد التسامح، وإنما يريد المساواة. دون مساواة، لا حقوق. لا اعتراف بالآخر. لا ديمقراطية. هكذا تبدو الديمقراطية في المجتمع العربي مجرد لفظة نتشذق بها. مجرد لغو.

- ٣ -

يبدأ التأسيس للديمقراطية، إذاً، بالفصل الكامل بين ما هو ديني، من جهة، وما هو سياسي واجتماعي وثقافي، من جهة ثانية.

وهذا ما لم يفعله الحزب، كما كان منتظراً، وهو الذي قاد البلاد، منذ حوالي نصف قرن. على العكس، لبس الثوب القديم: هيمن على حلبة "اللعب" القديم، وساس وقاد بالعقلية القديمة، متبنياً سياقها الثقافي -

الاجتماعي. هكذا لم يكن بد من أن يتحول إلى حزب فاشي طغياني - وعنصري، في كل ما يتعلق بالإثنيات غير العربية، وبخاصة الأكراد. وفي هذا كله أصبح حزباً "دينياً" أو ذا بنية دينية: كما أن الانتماء إلى الإسلام امتياز فكري - إنساني، في النظرة السلفية، فإن الانتماء إلى حزب البعث كان امتيازاً، هو أيضاً، فكرياً - وإنسانياً، على الصعيد النظري، وامتيازاً سياسياً وظيفياً وتجارياً، على الصعيد العملي. وهكذا أخذ الحزب يناضل لكي يدخل المجتمع في "دينه" هو، بدلاً من أن يناضل لكي يحزّر المجتمع من التدين - المؤسسي، ويقيم مجتمع المواطنة، حيث لا فضل لأحد على الآخر بدينه أو بحزبته بل بعمله وكفاءته.

- { -

السيد الرئيس،

يتفق جميع المختصين على القول إن التجربة الحزبية الإيديولوجية في الحياة العربية فشلت على جميع المستويات، كما فشل نموذجها الشيوعي. حزب البعث العربي الاشتراكي جزء من هذه التجربة. هو إذاً جزء من هذا الفشل. ولم ينجح في البقاء مهيمناً على سوريا بقوة الإيديولوجية وإنما نجح بقوة قبضة حديدية - أمنية، ساعدت ظروف كثيرة ومتنوعة على تهيئتها وإحكامها.

وتؤكد التجربة التاريخية أن هذه القبضة التي كانت شديدة وقوية لا تقدر أن تؤمن الهيمنة إلا فترة محدودة، مرهونة بالأوضاع الداخلية والخارجية، وأنها لا تقدم للشعب الذي تهيمن عليه إلا التفكك والتخلف، إضافة إلى الإنذال واستباحة الكرامة البشرية.

لا هيمنة في الأخير إلا للحرية. ولا أمن في الأخير إلا بالحرية.

وتلك هي المفارقة اليوم: حزب حكم، باسم التقدم، باسم الخروج بالمجتمع من أحواله المتخلفة إلى أحوال ناهضة، يجد نفسه اليوم، بعد نصف قرن، أنه متهم ومسؤول تماماً، كممثل الجماعات التي تعارضه، عن الانهيار الأخذ في التحقق، انهيار سورية وتشويه صورتها الحضارية بوحل الطائفية والعشائرية والمذهبية ووحل التدخل الخارجي ووحل التعذيب والقتل والتمثيل بجثث القتلى.

وإنها لمهزلة فاجعة أسهم حزب البعث نفسه في تكوينها، أن تكسى الأحداث السورية اليوم - على أسنة الحكام الغربيين - بعباءة الدفاع عن حقوق الإنسان، وأن تكون هذه العباءة واسعة تتسع لعرب جميعاً من

المحيط إلى الخليج، باستثناء فئة عربية واحدة: الفلسطينيين. فهؤلاء لا حقوق لهم في نظر المدافعين الأميركيين والغربيين عن حقوق الإنسان العربي. والأكثر مأساويةً هو أن العرب أنفسهم جميعاً دون استثناء يشاركون حزب البعث في تأليف هذه المهزلة الفاجعة، وفي أدائها وتمثيلها والتصفيق لها، والترحيب بها.

- ٥ -

أكيد، وهذا ما قد توافق عليه أغلبية العاملين في الحزب، أن أعمال السلطات التي حكمت باسمه لم تكن في مستوى مبادئه. كانت على العكس تتناقض معها - خصوصاً في كل ما يتعلق بالحياة المدنية وحقوق الإنسان وحرياته. هكذا يتوجب عليه، أخلاقياً، أن يعترف بأنه لم يؤسس لأي شيء يمكن حسابه جديداً وخلاقاً، ومهماً، في أي حقل. إنه، على المستوى الثقافي الخالص، حزب تقليدي، ورجعي ديني في حالات كثيرة - خصوصاً في حالات التربية، والتعليم، والمدارس والجامعات. ولم يُعط أية مكانة للإنسان بوصفه إنساناً، في ما وراء انتماءاته، أو للحقيقة في حد ذاتها. ولم يبين الحزب جامعةً نموذجيةً واحدة، ولا مؤسسةً معرفيةً أو فنيةً نموذجيةً واحدة.

كان أشبه بجمعية "دينية" دمّرت الثقافة المدنية الحرة، ودمّرت كذلك أخلاق لبشر. وأقام الثقافة على الولاء له، وعلى معاداة أعدائه، وعلى الشعارات والتبشيرات الساذجة المضحكة.

وإنها لمأساة لهذا الحزب، مأساة داخلية في علاقته ببنية المجتمع وعقليته، أن يحاربه معارضوه، هو الوحدوي القومي العلماني... إلخ، تحت راية "جمعة العشائر" بعد أربعين سنة من سيادته وحكمه باسم العلمانية والتقدمية.

ما قامت به السلطات التي حكمت باسم "حزب البعث العربي الاشتراكي"، طول أربعين عاماً، يؤدي، طبيعياً، إلى الحال التي تعيشها سورية اليوم. وهي حال تستغلّها وتستثمرها القوى الأجنبية والعربية المعادية.

الخلل الأساس في حكم هذه السلطات أنها تبنت السياق التقليدي القديم، وأكدت "منطقه" تاريخياً، وأساليبه. اندرجت في نص سياسي - ديني لا يمكن إلا أن يبتلع كل من يدخل فيه. هكذا سادت ثقافة المساومات، والترضيات، والابتزازات، والاحتكارات، والإقصاءات،

والتكفيرات، والتخوينات، إضافة إلى ثقافة القبلية والطائفية والعشائريات والمذاهب.

وقد تبنت هذا كله من أجل غاية واحدة: البقاء في السلطة، والحفاظ عليها. كانت السلطة بذاتها تهفها أكثر مما يهتمها تحويل المجتمع وبناءه في اتجاه التغير نحو حياة جديدة، ومجتمع جديد، وثقافة جديدة، وإنسان جديد. هكذا تحولت بالممارسة إلى سلطات رجعية، لا تحتاج إلى ثورة لإسقاطها، وإنما تحمل في ذاتها بذرة سقوطها. وفي ذلك حكم مبرم، موضوعياً، على حزب البعث بوصفه سلطة. لقد فشل كلياً في تفكيك البنية القديمة ودفع المجتمع في اتجاه التقدم. وفي هذا دليل عملي على أن المدة الثامنة من الدستور يجب أن تلغى أولاً وقبل كل شيء، ذلك أنها الرمز المباشر للطغيان والاستهتار بالإنسان والعقل والحرية.

ما يُطلب اليوم من قادة حزب البعث هو أن تكون لهم الجرأة الأخلاقية والتاريخية على الاعتراف بخطأ التجربة التي قادوها، وأن يعملوا على نقدها وتحطيمها، وفتح صفحة جديدة ديمقراطية لبناء سلطة جديدة تشارك فيها جميع القوى السياسية والفكرية الفاعلة، وبخاصة النسائية والشبابية - تحقيقاً للخروج من السياق التقليدي القائم، في اتجاه مجتمع مدني ديمقراطي.

- ٦ -

لا يشك أحد في أن المطالبة بالديمقراطية لا تتضمن بالضرورة أن الذين يقومون بهذه المطالبة هم ديمقراطيون حقاً. كيف أكون في المعارضة ديمقراطياً عندما أرفع الديمقراطية شعاراً، وفي الوقت نفسه أبذ كل الذين يخالفون هذه المعارضة الرأي، أو يُقتلون، أو يُسكت على أفكارها وأخطائها وممارساتها التي تتعارض مع الديمقراطية؟ لا تتحقق الديمقراطية إلا بأمرين:

١- أن أنتمي، بوصفي مواطناً (رجلاً أو امرأة)، إلى المجتمع بوصفه وحدة لا تتجزأ، قبل انتمائي إلى دين أو قبيلة أو طائفة أو إثنية.

٢- أن أعترف بالآخر المختلف (رجلاً أو امرأة) بوصفه مثلي عضواً في هذا المجتمع، وله حقوقي نفسها وحراتي نفسها.

ومن الصحيح أن الفكر يوجه أو قد يوجه. لكنه لا يحكم أبداً. وفكر المعارضة يجب إذاً أن يكون واضحاً ودقيقاً. علماً أن المعارضة حق للناس وشرط أساسي وغير شكلي للديمقراطية. وعليها أن تعلن نقدها إذا كانت

اعتراضاتها جزئية، أو تعلن مشروعاتها وخططها البديلة إذا كانت اعتراضاتها شاملة. وما دامت المعارضة في سوريا تطالب بإسقاط النظام، فإن عليها أن تقول خططها وأهدافها لما بعد إسقاط النظام، كما أن عليها أن تقول إلى أي مدى ووصولاً إلى أية جذور تريد أن تصل في مشروعها التغيير.

- ٧ -

لكن، من هذه المعارضة، اليوم؟

I- هناك "أصوات": مفكرون، كتاب، شعراء، فنانون، مثقفون، شبان وشابات، لكن لا تجمعهم وثيقة، ولو على مستوى الرمزية التاريخية، تحمل أفكارهم، وتوضح أهدافهم لما بعد النظام القائم. الصوت، إذا لم يتجسد، يظل صوتاً. لكنه لا يدخل بالضرورة في شبكة الواقع العملي. يظل في ما دونها، أو في ما فوقها.

II- وهناك "أعمال": تظاهرات، اصطدامات، محرضون، رافعو رايات وشعارات، قتلى، مقاتلون، وقتلة.

وهؤلاء تجمع في ما بينهم، كما يبدو، "لحمة" ضدية عنيفة، تغلب عليها نبرة "التهيج"، و"الثارية"، والدينية "الطائفية" أو "السلفية"، دون أن نستهيئ بما يتخللها من تجففات ومواقف مثالية أخلاقية أو وطنية مخلصه لمبادئ ومثل.

الأرجح، تبعاً للتجربة التاريخية، أن الغلبة، في مثل هذه التمردات ذات الطابع الثوري، تكون للأكثر تنظيماً بين هؤلاء، والأكثر عذة وعدداً. ومعنى ذلك أن "العمل" هو الذي يقود، وينتصر. وسيكون مستوى العمل في مستوى الفكر الذي وجهه.

هكذا لا تكفي دعوة النظام معارضة إلى الحوار.

لا بد من طرح مفهوم الحكم، وآليات الوصول إلى الحكم وتداول السلطة، واعتبار السلطة في متناول كل مؤهل يختاره الشعب بلا تحديد، والآليات التي تسوغ للمحكوم أن يقول رأيه في السلطة وأدائها.

لا بد من الدعوة إلى مشروعات واضحة - في السياسة، في التربية، في التعليم، في الاقتصاد، في الثقافة والفنون، في الحياة المدنية، وبخاصة في كل ما يتعلق بالمرأة وحقوقها وحريات.

السيد الرئيس،

التحدي الذي يواجهك مزدوج: هو، أولاً، أن تمارس نشاطك اليوم. لا بوصفك رئيس حزب، بل بوصفك قبل كل شيء رئيس بلاد وشعب. ولا بد، بوصفك خصوصاً رئيساً منتخباً، من أن تمهد لتداول السلطة بموجب اقتراع حزبي بشروط مسبقة. لأن آلية التداول الحر هي ما يؤكد شرعية سنوات الحكم.

وما دام الشعب مصدر السلطات، فلا حزب ولا زعيم يختزل الشعب وإرادته ويحتكر الكلام والفعل نيابة عنه، إلا عبر تفويض محدد.

وهو، ثانياً، أن تقتنع بأن الأغلبية الساحقة من الشعب ترفض قيادة الحزب وسياسته، نظرياً وعملياً، وأن بقاء هذه القيادة في السلطة لا يركز إلا إلى العنف. وهو عنف لا يمكن أن يدوم، لا يمكن لأية قوة عسكرية مهما كانت مدججة أن تتغلب على شعب، مهما كان أعزل.

وعلى قادة الحزب أن يعترفوا هم أنفسهم، بشجاعة وموضوعية، أن علاقة الشعب بالحزب اليوم تراجعت كثيراً عما كانت عليه سابقاً، إلا في إطار المصلحة والانتهاز.

هكذا لم تعد لمسألة أن ينقذ النظام نفسه، المسألة هي إنقاذ سورية: شعباً وأرضاً. دون ذلك، سيكون الحزب مشاركاً أول، لا في تهديم نفسه وحدها، وإنما كذلك في تهديم سورية كلها.

السيد الرئيس،

لا يمكن أي عاقل أن يأسف على نهاية التجربة التي يمثلها حزب البعث العربي الاشتراكي، نظراً وعملاً، ثقافة وسياسة. إنها الجزء الأكثر بروزاً ودلالة في فشل لتجربة الحزبية الإيديولوجية برمتها في العالم العربي. فهذه الإيديولوجية لم تخنق الفكر وحده، وإنما كادت أن تخنق حركة الإنسان وحركة المجتمع.

هكذا يبدو أن قدرك هو أن تفتدي أخطاء هذه التجربة. أن تعيد الكلمة والقرار إلى الشعب. وأن تمحو صورة الرئاسات السابقة في سورية، خصوصاً تلك التي وصلت في قطار الانقلابات العسكرية.

أَكِيدُ أَنَّ أعداءك أنفسهم سيقولون عنك، آنذاك، إنك أسست لمرحلة سياسية جديدة في تاريخ سورية، وربما في تاريخ المنطقة العربية كلها. بلى يمكن أن نقول: التاريخ اليوم في جهة، وضيق الأفق والتعنت والاستهتار في جهة ثانية - فإِذَا مَا أَنْ تعمل، على الرغم من جميع الصعوبات، ما يضعك في قلب الحركة التاريخية الخلاقة، وإِذَا مَا أَنْ تعمل وفقاً لما يتناقض معها، فتخسر كل شيء، وتدخل سورية من جديد في متاهة التمزقات.

- ١٠ -

السيد الرئيس،

تحتاج سورية، اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إلى أن تبتكر للعرب أبجدية سياسية، استكمالاً لما ابتكرته سابقاً في ميادين كثيرة. تقوم هذه الأبجدية على نبذ المماهة بين الوطن والحزب وبين القائد والشعب. لا يقوم بهذه المماهة إلا الطغاة. لا الخليفة عمر مارسها، ولا الإمام علي - إن كان لا بد من الأمثلة التاريخية، ولكي لا نسقي إلا رمزين تاريخيين. وأنت الآن مدعو، تاريخياً، لكي تفك هذه المماهة بين سورية وحزب البعث العربي الاشتراكي. فسورية أرحب، وأغنى، وأكبر من أن تُخْزَل في هذا الحزب، أو أي حزب سواه. أنت مدعو، إِذَا، إنسانياً وحضارياً، أن تكون إلى جانب سورية، لا إلى جنب الحزب. أو أن تكون معه بقدر ما يندرج هو في سياق حركيتها، وبقدر ما يعمل على السمو بها، مع غيره من أبنائها، - خصوصاً أن الحزب أعطي فرصة طويلة ونادرة على مدى أربعين سنة - لكي يندرج في هذه الحركة الخلاقة، عاملاً على السمو بهذه البلاد الفريدة. غير أن التجربة تؤكد فشله لكامل. لا تنفع المكابرة في ذلك، ولن تجدي القوة أو العنف في إثبات العكس. تتسع السجون للأفراد، لكنها لا تتسع للشعوب. يستحيل سجن الشعب. ولا تشير السجون السياسية إلا إلى الفشل. ولا تجدي القوة. مهما كانت، في قمع هذه الحقيقة أو طمسها. بل إن الحزب في ممارسته السلطة طول هذه الفترة أساء كثيراً إلى الهوية الثقافية السورية. قذم على عروبة اللغة والثقافة عروبة العنصرية، ضد السوريين الأكراد، على الأقل، لكي لا نخوض في تفاصيل أخرى. هكذا أسس لثقافة ذات بعد واحد، ينتجها مجتمع يبعد واحد. ثقافة ضيقة، اجترارية، تنهض حصراً على الضدية: "تكفير" المختلف وتخوينه أو نبذه أو تهميشه. عروبة حلت محل اللاهوت. وها هي الثقافة في سورية، اليوم،

تسير في أفق معرفي وكتابي ضحل وسطحي. ولا يُطرح فيها أي سؤال جذري، على أية مشكلة.

فُكِّك المجتمع وأعيد بناؤه: الحزب - القائد - السلطة، من جهة، والشعب من جهة. وإمعاناً في هذا التفكيك لم يكن يُقَرَّب إلا المناصرون. وكان يُنبذ المعارضون، ويُشَرَّد الرافضون.

هكذا أنتج الحزب، طول أربعين سنة من حكم سورية، المتنوعة المتعددة، ثقافة أحادية مغلقة وقُفعية: نعم نعم، لا لا.

لم يُنتج، على سبيل المثال، من داخله وباسمه، خلاقاً واحداً، مفكراً كبيراً، أو كاتباً كبيراً، أو شاعراً كبيراً. وانذين كانوا بين أعضائه، يعدون بمثل هذه الطاقة على الخلق، هُفَشُوا في أبسط لحالات، أو تخلَّوا هم أنفسهم عن الحزب.

هكذا تحوّلت الثقافة في سورية إلى تبشير وإلى إعلام ودعاية بارتباط كامل مع الأمن وسياساته. وحوصرت الثقافة السورية بين عقليتين مغفقتين: السلفية، باسم الدين والتراث والماضي، والحزبية البعثية، باسم عروبة قامعة للحريات وتتناقض مع أبسط حقوق الإنسان. تتناقض خصوصاً مع التعددية التي هي قوام الشخصية السورية.

أعرف ويعرف كثيرون غيري أنّ الغرب، وبخاضة الأميركي، لا يدافع عن الشعب السوري ولا عن حقوق الإنسان في سورية، وأنه يدافع عن استراتيجياته ومصالحه. لكنه "موفِّق" في "الحجّة" التي تقدمها له سورية، وفي "التسويغ" الذي يتيح له أن يقنع استعماراه الجديد بالدفاع عن الإنسان وحقوقه. هارباً بجبانة واستخذاء من المعركة الحقيقية: معركة الإنسان وحقوقه في فلسطين.

لا بد من إعادة النظر الجذرية. إذ لن يستطيع حزب البعث أن يوقف الثورة عليه، وإنما سيكون عاملاً أساسياً في الانهيار الكامل: في دفع سورية إلى حرب أهلية طويلة الأمد، قد تكون أشدَّ خطورة مما حدث في العراق، لأنها ستكون تمزيقاً لهذه الأرض الجميلة الفريدة التي اسمها سورية. وستكون، إلى ذلك، دفْعاً لجميع سكانها، خلاقي الأبجدية، إلى التشرد في أنحاء أرض لم تعد تتسع إلا لأحصنة الملائكة التي تطير بأجنحة السماوات السبع.

أحييك أيها السيد الرئيس آملاً أن يجد صوتي طريقه إلى عقلك وقلبك معاً.

رسالة مفتوحة إلى المعارضة حول التغيير في سورية، وبخاصة تغيير الدستور(5):

أبعد من النظام، وأوسع من السياسة

(5) نُشرت في جريدة السفير (١٣ تموز/يوليو ٢٠١١)

- ١ -

هاذا لم ننجح، نحن العرب، حتى اليوم، في بناء مجتمع مدني، تكون فيه المواطنة أساس الانتماء، بدلاً من الدين، أو المذهب، ومن القبيلة، أو العشيرة والعائلة؟ فالحق أن ما نطلق عليه اسم "مجتمع" ليس إلا "تجمعات" من عناصر متناقضة تتعايش في مكان واحد، يُطلق عليه اسم "وطن". وليست السلطة هنا إلا "نظاماً" لغلبة والتسلط في حيف "يجمع" بين مصالح المنسلطين. والصرع السياسي هنا، هو أيضاً، صراع لتغيير السلطة، وليس صراعاً لبناء مجتمع جديد، وهكذا كانت السلطة في المجتمعات العربية عنفاً مركباً في بينها ذاتها، وكانت ممارستها نوعاً من التآرجح بين العنف "الطبيعي" والعنف الآخر الممؤد، ثقافياً، والذي يسمى "التسامح".

من الحاكم؟ تلك هي المسألة الأولى، عند العرب، وهي ترتبط، على نحو عميق، بالمسألة الدينية. مسألة "تطبيق للإسلام" أو "مبادئ الإسلام الصحيحة"، إشارة إلى أن هناك "إسلاماً" غير صحيح، أو "مبادئ إسلامية غير صحيحة". وهذه صامّة دينيّة - سياسية كبرى نرزع في سلاسلها، منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. واليوم تمارس التنويع الحديث على الأسئلة القديمة: هل الإسلام الصحيح هو كما يراه علي، أم هو كما يراه معاوية؟ هل هو في القول بأن "القرآن مخلوق"، أم "غير مخلوق"؟ هل هو في الإيمان بالجنة والنار، حرفياً أم رمزياً؟ هل هو في العقل أم في النقل؟ هل هو في المساواة الكاملة، حقوقاً وواجبات، بين الرجل والمرأة، أم هو، على العكس، في أفضلية الرجل وأولادته؟ هل هو في التسنن، أم في التشيع؟... إلخ، إلخ.

ومنذ ما سفيناه بـ"عصر النهضة" نمارس التنويع على هذه الأسئلة. واندرجت في آلية هذا التنويع جميع "الثورات" العربية الحديثة، ومن ضمنها "ثورة" عبد الناصر. وتبين أنها كانت "ثورات" من أجل السلطة، لا من أجل "المجتمع". وقد وصل هذا "التنويع" إلى ذروته اليوم، بتسمية الأشياء، جرياً على عاداتنا وتقاليدينا، بغير أسمائها: نقول عن الدولة التي يوجهها الدين بأنها "مدنية"، ونسقي الصراع على السلطة "ثورة". ونقول عن عبودية المرأة إنها "حرية". وهكذا، وهكذا.

والحق أن كثيرين من الكتاب العرب المهتمين مأخوذون بالتعجل: وهم لذلك يعزفون عن المناظرة إلى المهاترة. وتبعاً لذلك يسارعون فيضفون على الأحداث والأشياء زغباتهم وأحلامهم. ويسقونها بأسماء لا تنطبق عليها.

نحن مدعوون، إذاً، إن كنا نعمل حقاً على الذهاب إلى أبعد من تغيير السلطة والسياسة، إلى بناء مجتمع جديد، - مدعوون إلى معرفة أنفسنا، وتاريخنا. ولماذا، مثلاً، لا يزال انتماؤنا دينياً، يحمل أربعة عشر قرناً أو أكثر من "التمردات" و"الانشقاقات" و"الأهوال" و"المذابح"؟ ولماذا، تبعاً لذلك، لا يزال انتماؤنا العميق قبلياً عشائرياً؟

نحن كذلك مدعوون إلى اكتشاف هذه البداهة وهذه البساطة: ليس غريباً أن تكون جميع الأنظمة العربية، اليوم، دون استثناء، أنظمة طغيانية. إذ متى كانت لدينا أنظمة حرة وديمقراطية وعادلة، وتؤمن بالإنسان وحقوقه؟ وعلى هذا المستوى، يصح القول إن "الربيع العربي" ظاهرة يصح وصفها بأنها فريدة، وعظيمة. وبأن الذين قذموا حياتهم من أجلها، قصداً أو عفواً، هم طليعة نضال ضروري مشرف، بناء، وإنساني. لكن علينا في الوقت نفسه أن نتذكر أولئك الذين قذموا حياتهم أيضاً، بدءاً من خمسينيات القرن الماضي، فرادى وجماعات، من أجل بناء مجتمعات عربية، حرة وديمقراطية. وعلينا تبعاً لذلك، وفي ضوء "الربيع العربي" نفسه، أن نتساءل، لماذا قامت الأنظمة العربية، منذ تلك لفترة، باسم الحرية والديمقراطية، لكنها لم تنتج إلا العبودية والطفيان، ولم تكن إلا هوساً بالسلطة وامتيازاتها، ولم يكن الإنسان الذي وقف إلى جانبها أو ضحى من أجلها إلا مجرد سلم، ومجرد أداة؟

كلا لا يتم تقدّم المجتمع اعتماداً على ما مضى، أو انطلاقاً منه. التقدّم نوع من ولادة ثانية. فلا يمكن بناء الغد بما صار ماضياً، أو بما رفضه، أو وضعه موضع لنقد والتساؤل مفكرون وكتاب كثيرون في الماضي، يُهدّوا، أو سقّوها، أو قُتلوا.

أن يكون الإنسان دائماً مع الحرية والعدالة وإلى جانب المضطهدين، المستضعفين، الفقراء، الضحايا، أمر لا يحتاج إلى وصايا وخطب واتهامات وبطولات. يحتاج إلى الوعي بأننا لا نستطيع أن نكون حقاً معهم إلا إذا كنا، بدنياً، نعمل على تخليصهم من الشروط التي تكمن وراء اضطهادهم وفقرهم واستضعافهم. وهي شروط كامنة في هذا الحاضر السياسي - الاقتصادي الذي ليس إلا ماضياً متواصلاً: تسييس الدين وتدين السياسة. فهذان هما نواة الحلف السلطوي الذي يحول "المجتمع" إلى شركة ترأسها السلطة، ويحول "الوطن" إلى "مشجر" يقوده أهل السلطة وأتباعهم. ولماذا إذاً، في ضوء هذا كله، لا نجهر قنلين: تكون الثورة قطيعة كاملة مع هذا الحاضر - الماضي المتواصل، في مختلف المجالات، وعلى جميع الضعف، أو لا تكون إلا تحزكاً باسمها وإلا استمراراً قد يكون أشد ظلاماً من جميع أنواع الظلام التي "تفضل" بها علينا الصراع القديم على السلطة؟

- ٢ -

استناداً إلى ما تقدم، أوجز الأطروحة التي أنطلق منها في ثلاث نقاط:

١ - المجتمع العربي - الإسلامي مؤسّس، سياسياً وثقافياً واجتماعياً، على الدين في ارتباطه الوثيق ببنية القبلية - الإثنية، وبالسلطة والصراع التاريخي، العنفي، الدموي غالباً، حولها وعليها. وهو أمر لا يزال قائماً حتى الآن.

٢ - كل تغيير في أي ميدان لا يمكن التعويل عليه إذا لم يكن صادراً عن إعادة نظر جذرية، وعلى نحو شامل، في هذا الأساس. هذا، إذا كانت الغاية من التغيير بناء مجتمع جديد، لا مجرد اختزال يتمثل، على الطريقة التقليدية السياسية، في "الإطاحة بالنظام سريعاً وبأي ثمن".

٣ - المعارضة، خصوصاً في هذه المرحلة الفاصلة من تاريخ العرب، إما أن تكون على مستوى التاريخ والمستقبل: عملاً لبناء مجتمع مدني إنساني جديد، وإما أن تندرج في سياق المعارضات التقليدية: الاكتفاء بتغيير النظام القائم، سياسياً.

وفي هذا تكون موجة قامت باسم التحرر، لكنها ظلت كغيرها من الموجات السابقة، بدءاً من الانقلابات العسكرية السورية المتوالية إلى الموجة الكبرى - عبد الناصر، تنوعاً آخر على تعطيل الحياة العربية، وتعطيل الحريات والحقوق التي قامت باسمها.

يقوم البيان الختامي لاجتماع المعارضة، الأول، في دمشق على شقين: مبدئي، وعملي. المبدئي هو، كما جاء في البيان: "الانتقال إلى دولة ديمقراطية مدنية، تعددية، تضمن الحقوق السياسية والثقافية والاجتماعية، وحرّيات جميع المواطنين السوريين، كما تضمن العدالة بين جميع المواطنين، بغض النظر عن العرق والدين والجنس".

والعملي هو: "إنهاء الخيار الأمني، والتحقيق في جرائم القتل (الموالية والمعارضة)، وضمان حزية التظاهر، وإطلاق سراح المعتقلين دون استثناء، وحرّية الإعلام وموضوعيته، وإدانة التحريض الطائفي، وإعادة المهجرين إلى قراهم وبلدانهم، والتعويض عليهم، ورفض التدخل الأجنبي، والسماح للإعلام العربي والدولي بمتابعة ما يجري في سورية بكلّ حرية".

ليس عندي إلا التأييد الكامل للجانب الثاني العملي، بمرتكزاته وتفاسيها، مضيفاً إليها التحقيق أيضاً في جرائم التحريض الطائفي من أي جهة جاءت. فلن كانت جرائم القتل العادي - المادي "عمياء"، فإنّ جرائم التحريض الطائفي "بصيرة"، وهي، إنّا، أشدّ هولاً وفتكاً.

لكن بالمقابل، أودّ أن أناقش الجانب المبدئي، مع أنني نظرياً أوافق عليه كلياً. غير أنّ "النظري" هنا "تجريدي" ولا يعني شيئاً على المستوى العملي، إلا إذا كان مرتبطاً عضوياً بالأسس التي تتيح له أن يصبح عملياً، أو أن يتحقّق في الحياة، وفي المؤسسة، وفي النظام. خصوصاً أنّ هذا الجانب المبدئي ينهض على كلام عام قيل كثيراً في الموجات التي أشرت إليها، غير أنّ التجربة أكّدت أنّ قادة هذه الموجات، أنظمة وأفراداً، وفي طليعتها حزب البعث العربي نفسه في دمشق وبغداد، أفرغوا تلك المبادئ من معانيها، وامتهنوها. هكذا أصبح هؤلاء القادة، وهذه لأنظمة، جزءاً من "الفساد" القديم.

الأخطر من ذلك: هذا الكلام المبدئي العام تحوّل في الثقافة السائدة إلى غطاء معقّد وكثيف لتمويه الاستبداد في جذوره الثقافية والسياسية والدينية والاجتماعية.

النظام السوري، كمثّل الأنظمة العربية، إنّما هو نتيجة لأسباب وعوامل. مجرد تغييره، مع بقاء هذه الأسباب والعوامل، لن يعني، في أفضل

الحالات، أكثر من تغيير نظام سيني بأخر أقل سوءاً. هل سيعني مثلاً تغيير الملك المغربي، اليوم، أو الأردني، أو لسعودي، أكثر من ذلك - إن لم يكن أقل من ذلك ما دامت "إمارة المؤمنين" والملكية الوراثية، والملكية العائلية، باقية؟

والمهم إذاً هو تغيير الأسباب والعوامل. فهذه بالنسبة إلى النظام السوري قائمة على ثقافة قروسطية، يلعب فيها الدين، مقترناً بالعصبية المذهبية - القبلية، الدور الحاسم الأول. يستحيل في هذه الثقافة، مثلاً، التصور بأن يكون رئيس مصر قبطياً، مهما كان الأقباط عظماء، ومهما كان هو عظيماً بشخصه. أو أن يكون رئيس سورية آشورياً أو كلدانياً أو سريانياً، أو مارونياً، أو أورتودوكسياً أو بروتستانتياً. لكن، بأي حق يستحيل هذا التصور؟ وكيف نقبل بهذه الاستحالة، إذا كنا حقاً "مجتمعاً مدنياً"، وبشراً متساوين؟

إن "أهل الذمة" في سورية، وهم سكانها الأصليون، لا يزالون يدفعون الجزية، سلبياً: حرمانهم من أن يكون لهم الحق في رئاسة وطنهم الأصلي، (لا بوصفهم الأقلوي أو لانتمائهم الديني)، الذي لا تزال تهيم عليه ثقافة الفتح والغلبة. فمنطق الفتح والغلبة والصراع الديني الذي ينتمي إلى تاريخ البدايات الإسلامية هو ما يستمر وهو الذي يحكم، لا منطق التآزر ووحدنة الانتماء والمساواة في المواطنة، فضلاً عن منطق الكفاءات الفردية.

الخلاص من هذه الثقافة التي تصبح في الوضع الحالي لا إنسانية، والتأسيس للمواطنة وثقافتها الإنسانية، هو ما يجب أن يكون لها جس الأول الموجه في أفكار المعارضة وأعمالها. وهو ما لم يعمل له حزب البعث العربي، رغم اتعائه العمانية، وتلك هي، في رأبي، خطيئته الأولى.

كيف يمكن إذاً أن تنشأ في سورية "دولة ديمقراطية، مدنية، متعددة"، إذا كان مستحيلاً أن يُسن أي قانون أو تشريع لا يتفق مع "المفهوم الإسلامي الصحيح" وفقاً لعبارة الجامع الأزهر في وثيقته الأخيرة، أو "الرؤية الإسلامية الصحيحة" وفقاً لما جاء فيها؟

ومن غير المفيد أن نسأل: ما هذا "المفهوم"؟ وما هذه "الرؤية"، وما معيبرهما، ومن يقرّر ذلك، وباسم أي سلطة؟ وبموجب أي اجتهاد؟ من غير المفيد أن نسأل لأنّ الجواب جاهز: تلك هي لأكثريّة، وتلك هي إرادتها، وذلك هو "مفهومها"، وتلك هي "رؤيتها". لكن السؤال الآخر، الذي لا يُطرح ولا يُجاب عنه، هو: لماذا تكون الأكثريّة السياسية من الدين الأكثري عندما لا يتصل الأمر بالشؤون الدينية، بل بالأمور التي تهتم الجميع بلا تمييز؟

ولماذا لا يُبنى الاختيار هنا على أساس الحاجات والمطالب الوطنية وليس على أساس الدين أو الانتماءات العقائدية الخاصة بكل دين؟

ومن أين لسورية، إذاً، أن تكون مدنية وتعددية؟

والجواب أيضاً يجيء من وثيقة الأزهر: "تطبيق الشريعة الإسلامية هو ضمان للتعددية، وحرية الاعتقاد، وممارسة العبادات لأصحاب الديانات السماوية الأخرى الذين تكفل لهم الشريعة الإسلامية أيضاً الاحتكام إلى شريعتهم في ما يتعلق بشؤونهم وبالأخص في الأحوال الشخصية".

وهو جوابٌ يُجَلِّ الشريعة الإسلامية محل الدولة، وبلغى بشكل قاطع "هوية" غير المسلمين بحيث يجعلهم، هم أيضاً، تابعين لهذه الشريعة.

الدولة، إن كانت مدنية، تكون هي نفسها الضمان. ولا يكون لأي دين، كثر أتباعه أو قَلَّوا، أي سلطان عليها، في أي ميدان. إن سلطة التشريع هي للمدينة، للمدنية، للإنسان المدني، وليست للدين. يجب أن تنتهي ثقافة القرون الوسطى التي كانت تعلم أن الإنسان خلق من أجل الدين. نعم يجب أن تنتهي. فالدين هو الذي خلق من أجل الإنسان.

هكذا لا تعني عبارة "الدولة المدنية التعددية" شيئاً، إلا إذا عنت أن انتماء الإنسان هو، أولاً، انتماء للأرض، للوطن، للمجتمع، وليس للدين أو القبيلة أو الطائفة أو العشيرة أو العرق، كما هو قائم، فعلياً، في سورية.

وهكذا يكون للسوري غير المسلم الحقوق نفسها التي يتمتع بها السوري المسلم. المجتمع حقوق وواجبات وحرّيات، وليس كنائس وجوامع وخلوات. هذه للأفراد. ولكل فرد حقه الخاص فيها. وهو حق يجب أن يُحترَم ويُصان. كذلك لكل فرد الحق في أن يرفضها أو "يعتزلها"، وفي أن لا يتدين. فحق اللادين يجب أن يُحترَم ويُصان كحق التدين. كذلك لا تعني الحرية والديمقراطية شيئاً إلا إذا عنت، أولاً، هذا الانتماء. وها هو لبنان مثال حي.

لا أحد يقدر أن ينكر وجود الحرية في لبنان، السياسية والفكرية والاقتصادية والتنظيمية. أو ينكر فيه الممارسة الديمقراطية التي مهما قيل فيها تظل أفضل بكثير من الممارسات التي توصف بها الديمقراطية في البلدان العربية. لكن السؤال هو التالي: ماذا فعلت هذه الحرية وهذه الديمقراطية على الصعيد المدني - التعددي، بالمعنى الثقافي الحضاري والإنساني، في لبنان: لبنان - الدولة والمجتمع؟

ثم، أليس الدور التهدي - الإقصائي الذي يلعبه الانتماء الديني - الطائفي العامل الأساس في تعطيل الحرية والديمقراطية في لبنان؟

ليس النظام في سورية مجرد شأن سياسي. إنه نظام مركب سياسي - ثقافي، وديني - اجتماعي. له "تراثه"، وله "أجهزته" الإيديولوجية، وله مؤسساته.

المعارضة التي تعمل على إسقاطه، سياسياً، يجب، في الوقت نفسه، أن تعمل على الخلاص من مرتكزاته الثقافية والتاريخية التي تكمن وراء أسباب نشوئه. دون ذلك تكون المعارضة مجرد عمل سياسي يطرد حكماً ليجل مكانهم حكماً آخرين. معارضة لا تهتم بالأسس، وإنما تهتم بالسلطة والهيمنة. وليس لها أي عمق أو بُعد تغييري جذري: ليس هاجسها تغيير المجتمع، بل تغيير الحكم.

وفي مجتمع مركب كالمجتمع السوري، متعدد الأديان والمذاهب، متعدد الإثنيات، ومتعدد الثقافات، لا تكون المعارضة التي تكتفي بإسقاط نظامه إلا تنوعاً آخر على هذا النظام نفسه، لأنها تتكوّن من الطينة ذاتها التي يتكوّن هو نفسه منه. وهي، على هذا المستوى، لا تعني أكثر من كونها صراعاً سياسياً على المصالح. ومن هنا نفهم غياب "الأقليات" عن جسم المعارضة، إلا شكلياً ورمزياً، تماماً كما هو الشأن بالنسبة إلى النظام. المسيحيون، تحديداً، بمختلف فئاتهم، وهم كنز بشري وثقافي فريد، لا مثيل له في العالم، غير "موجودين" في المعارضة، وغير "موجودين" في النظام - إلا بوصفهم "ديكورا"، في بعض الأحيان. وهكذا يُنظر إليهم، موضوعياً، كأنهم "لاجنون" أو تحت "الحماية" أو "الوصاية". و"إضاعة" النظام والمعرضة إياهم تشعرهم أنهم هم أنفسهم "ضائعون". لا "وطن" لهم في وطنهم الأصلي الأول. يعبر عن هذه المسألة حبيب أفرام، رئيس الرابطة السريانية، بعمق صامت ضائع قلق وحزين (النهار، ٣ تموز/يوليو ٢٠١١).

ولا نتحدث عن "الأقليات" الأخرى داخل الإسلام، والتي تعذها الاكثريّة الإسلامية "غير مسلمة"، وهي، إذاً، مرشحة لمصائر سوداء - استمراراً للسواد الكارثي في تاريخها.

لهذا أقول وأكرر: ليس النظام في سورية مجرد شأن سياسي، أو مجرد أجهزة قمعية، يصلح كل شيء إذا تم القضاء عليه.

هكذا، أكرر أيضاً: تأخذ المعارضة في سورية قيمتها وأهميتها، بقدر ما تقرر معارضتها السياسية بمعارضة ثقافية، بالمعنى الواسع الشامل، والجذري. وإذا، لا بد لها من أن تؤسس اعتراضاتها على الخلاص من

الأسس الثقافية للنظام الذي تعارضه، وفي مقدمتها الفصل الكامل بين الدين والدولة، وبين القبيلة والمجتمع، على جميع الضفد، وفي مختلف المستويات.

- ٦ -

أسوأ ما يشوه المعارضة هو أن تبدو كأنها منساقة، باسم تصفية حسابات معينة، مع نظام استبدادي يجب أن ينتهي، - منساقة في تيار "أكثري"، تيار عقول ذكورية بطرقية، لا تزال تؤمن أنها "الأب"، وأن امرأة لا عقل لها. عقول قدر أصحابها تاريخياً ويقدرّون الآن، استناداً إلى أسباب وعوامل كثيرة، أن يخلقوا نساءً يقعونهنّ حتى بالدفاع عن استحسان عبوديتهنّ، واختيرها، والبقاء فيها، وصيانتها. وهي ظاهرة لا وجود لها إلا في العالم الإسلامي: هذا العالم العظيم بإمكاناته وطاقاته وعبقريته، لكن الصغير بأنظمته وخططه وسياساته. وفي مثل هذا المجتمع يستحيل أن تكون الحرية والديمقراطية إلا كلمات جوفاء وأقنعة.

وقبول المعارضة بهذا الانسياق يمؤه جذور الطغيان، ويختزلها في السياسة - النظام. وهي نظرة جزئية، وغير كافية. بل تبدو المعارضة هنا كأنها، هي نفسها، تعذ نفسها لكي تكون النظام اللاحق لخلافة النظام السابق.

هكذا لا يجوز أن تكون المعارضة السورية مجرد تصفية لحسابات متنوعة مع نظام مستبد، قلت وأكرر أنه يجب أن يتغير. المعارضة هي، أولاً، العمل على إزالة العقبات التي تحول دون نشوء مجتمع ديمقراطي حرّ وعادل. والقضاء على النظام الاستبدادي جزء ضروري، لكنه لا يختزل المشكلة كلها.

لدينا أمثلة: ماذا أفادت إيران من القضاء على نظام الشاه الاستبدادي، باسم الليبرالية، وإحلال نظام آخر محلّه، استبدادي هو أيضاً، لكن باسم الدين؟

الاستبداد باسم الدين أشدّ خطراً لأنه شامل: جسمي وروحي. ولعلنا أخطأنا جميعاً نحن الذين وقفنا إلى جانب الثورة الإيرانية ظناً منا أنها ستعمل من أجل الحزّيات حقاً. لكن، كان هذا الظنّ، في المحضلة، إنمّا. وما يُقال عن إيران يُقال عن الأنظمة العربية كلها.

أكزّر هنا للتوكيد، متسائلاً: ما جدوى المعارضة السورية، على سبيل المثال، إذا كان لا يحقّ للسوري، امرأة أو رجلاً، المسيحي أو الكردي أو

الأشوري أو الكلداني، أو غير السني، أن يترشح لمنصب الرئاسة السورية؟ أو لا يُعترف بالحقوق اللغوية والثقافية لجميع من يندرجون تحت اسم الأقلية؟ ألن تكون المعارضة هي هنا كذلك عنصرية كمثل النظام الذي تثور عليه؟

- ٧ -

هكذا تواجه المعارضة عملياً مهمة التأسيس للمواطنة، حيث يزول مفهوما "الأكثريّة" و"الأقلية"، إلا بالمعنى السياسي الانتخابي. وهذا يعني النظر إلى سورية بوصفها مجتمعاً واحداً تنصهر فيه جميع الانتماءات المذهبية والإثنية والثقافية، في "سلالة تاريخية" واحدة، في ما وراء الإثنيات والأديان.

وصولاً إلى هذه الغاية، ولأوضاع تاريخية واجتماعية معينة، ينبغي البدء بالتأسيس لمرحلة انتقالية يُنصّ فيها صراحةً، بوثيقة تاريخية، على حقوق الأقليات الإثنية واللغوية والمذهبية، وهي كثيرة في سورية: إسلامياً ومسيحياً، عرباً وأكراداً وشراكس وتركماناً... إلخ. ويجب الحرص بخاضة على حقوق الجماعات التي تمثل الجسر الحضاري بين حديث سورية وقديمها: الصابنة، الكلدان، الآشوريين، السريان... إلخ.

هكذا تنهض المعارضة على مبادئ إعادة تأسيس المجتمع. وتقوم هذه الإعادة على الأسس التالية:

- أ - احترام الدين في ذاته. غير أن الدين للفرد، وليس للمجتمع.
- ب - حق اللاتدين مصون كحق التدين.
- ج - المجتمع مدني، يتساوى فيه أفرادُه جميعاً، واجباتٌ وحقوقاً. ولا أولية في ذلك للدين، بل للعقل والحرية والكرامة البشرية وحقوق الإنسان.
- د - الديمقراطية، حريةٌ وسياسةٌ وعدالةٌ، نظراً وعملاً.
- هـ - مدنية الثقافة، في معزل كامل عن التحليل والتحريم الدينيين.
- و - لا فكر، لا إنسان، إلا بالحرية الكاملة، دون أي قيد.
- ز - مدنياً وإنسانياً، لا يجوز أن ينص الدستور على دين الدولة أو دين رئيسها.

ليست المسألة، إذاً، أن نصلح الدين، أو أن نعيد تأويله، بحيث يتلاءم مع الحياة الاجتماعية. المسألة هي أن نعيد لدين إلى طبيعته الفردية، بوصفه تجربة خاصة. تكون الحياة الاجتماعية مشتركة ومدنية، ويكون الدين شأناً فردياً خاصاً لا يُلزم إلا صاحبه. الدين للفرد، وحده، وليس

للمجتمع بوصفه كلاً. لا يُفرض الدين وراثياً، أو سياسياً، وإنما يكون اختياراً جزأً بوصفه حقاً فردياً. ولا يُفرض بالأكثريّة العدديّة في المجتمع. ومن حقّ الفرد ألاّ يتدين، وأن يختار الدين الذي يشاء، دون أيّ إكراه. الدين حرية فردية. والمجتمع حرية مدنية. لكن ليس للدولة أو المجتمع أن يدين إلاّ بالإنسان وحقوقه.

في القرنين الماضيين (التاسع عشر والعشرين)، عشنا ما سقيناها "نهضة". وكانت سمئها الأساسيّة: الإصلاح وبخاصة الديني. وسواء اتّخذ هذا الإصلاح منحى اجتماعياً أو سياسياً أو دينياً، فقد أدّى في النتيجة إلى تجزئة الفكر، وحتى إلى منعه. وصارت الحركة الفكرية العربية حشداً من المتوازيات، كلّ منها ينبذ الآخر. متوازيات لا تتلاقى. وكن الدين في هذا كلّه المعيار، والحكم، والفصل.

والنتيجة أننا وصلنا إلى نتائج كارثيّة، على جميع المستويات. لقد انتهى عصر الإصلاح. ذلك أنه انطلق من إيمان كامل بالمسبق الديني. والتغير يحتاج بدنياً إلى نقد هذا المسبق وإلى نقد المسبقات كلّها، وإلى الخروج منها.

كل مساومة أو مسامرة للإيديولوجيا الدينية، بحجة أو بأخرى، ولو كانت التحرر من الخارج، إنما هي مساومة على مصير الإنسان في هذه المنطقة من العالم. فالعودة إلى الدين - سياسياً واجتماعياً - هي، في أقلّ ما توصف به، في إطار الثقافة الإسلامية - المؤسسية، عودة إلى سلاسل أخرى وسجون أخرى.

الأصولية الدينية إنما هي إخضاع للآخر أو استتباع، أو إلغاء. هي أمور لا تخرج من "المادة" وحدها، وإنما تخرج كذلك من "الروح". الكتاب هنا يصبح أحياناً لقبلة، وتصير الكلمة أختاً للرصاص. على هذا المستوى، تحديداً، يمكن القول إنّ القتل لا يجيء من الرصاص وحده، وإنما قد يجيء كذلك من الكلمات.

في ضوء اللحظة السورية (6)

(6) نشرت في جريدة الحياة (٢١ آذار/مارس ٢٠١١).

- ١ -

اليوم، ينكشف الواقع العربي، عبر سورية، على وجهه الأكثر صحة ودقة. فحيث يكون التاريخ أشد كثافة وتعقيداً، تكون تحولاته أكثر إضاءة وكشفاً. وسورية فلتقى الروافد البشرية والحضارية، منذ أكثر من خمسة الاف سنة. وهي، إذاً، ملتقى الإبداعات والتخطيات، بقدر ما هي فلتقى الهشاشات والمخاطر، الانطلاقات والكوابح. تكفي الإشارة هنا إلى أن هذه البلاد هي المكان الذي تم فيه التأسيس لحضارة الإنسان، كونياً: الأبجدية، الدولار، افتتاح البحار، القانون، الوحدانيات الثلاث، تمثيلاً لا حصراً. وهي إلى ذلك "واسطة العقد" العربي.

- ٢ -

كان لكل مرحلة في تاريخ هذه "الواسطة"، وهذا "العقد"، حصاؤها - المتألق، حيناً، والمرير، غالباً.

وها هو حصاؤها في بدايات القرن الحادي والعشرين: منذ أكثر من نصف قرن، يتم التفريق العربي باسم التجمع، والانشقاق باسم الوحدة، والشبات باسم اليقظة، والجهل باسم العلم، وهباء العدة والعذر، والتخلف باسم التقدم.

هل يكتشف، اليوم، أهل اليسار والثورة الذين حكموا البلدان العربية ويحكمونها، منذ أكثر من نصف قرن، أنهم لم يتركوا وراءهم، على أرض الحياة، أرض العمل والفكر، إلا التفكك والتراجع والانهيار، وإلا المرارة والعذاب؟

هل سيترفون أنهم لم يبرعوا في شيء، طول هذه الفترة، كما برعوا في الاستئثار، والاحتكار، والاتجار، والانحدار؟ أنهم أقاموا سلطة ولم يبنوا مجتمعاً؟ أنهم حولوا بلدانهم إلى فضاء من الشعارات والرايات، دون أي مضمون ثقافي أو إنساني؟ أنهم ذمروا بعضهم بعضاً، فيما كانوا يدقرون

موطنهم - تخويناً، وسجناً، تشريداً وقتلاً؟ أنهم لم يضعوا أساساً عميقاً واحداً لبناء مجتمع جديد، أو وطن جديد، أو إنسان جديد، أو عقلية جديدة، أو ثقافة جديدة، أو حتى مدرسة نموذجية واحدة، أو جامعة نموذجية واحدة؟ - وأضرب صفحاً عن المعامل والمصانع والمشروعات الاقتصادية العامة؟ أنهم زلّوا جميع القضايا التي يمكن أن تُمهّد للتخلص من القبيلة، والعشيرة، والطائفة، باستقلال سيد عن الخارج، وزفّض نير وخلق لجميع أشكال التبعية؟ أنهم، في هذا كله، كانت شهواتهم السلطوية التسلطية تزداد تكالفاً وتوخشاً، وكان طغيانهم يزداد توسعاً وفتكاً، وكانت حقوق الإنسان وحياته تزداد غياباً وضياءاً؟

- ٣ -

هكذا، يبدو الأفق العربي، اليوم، كمثل بيت يسكنه عاشقان: التمرد والحرية.

التمرد على السلطة الفاسدة ومؤسساتها، تخلصاً من مخازيها.
والحرية، تخلصاً من القيود التي تشل الحياة والفكر.
وكان الإنجاز، حتى الآن، مُهماً وحيوياً. وهو أخذ في الاتساع لكي يشمل المناطق العربية الباقية، بعد تونس ومصر.

- ٤ -

غير أن لدى العرب تجربة في العراق أثبتت أن مجزّد الخلاص مما هو قائم: من الأحكام العرفية المهينة، وثقافتها الرقابية الأمنية الأكثر إهانة، ومن السلطة الفاسدة ومؤسساتها وأصحابها، ليس كافياً.

لا يتم تغيير المجتمع بمجزّد تغيير خُكّامه. قد ينجح هذا التغيير في إحلال خُكّام أقلّ تعقّناً، أو أكثر ذكاءً. لكنه لا يحلّ المشكلات الأساسية التي تُنتج الفساد والتخلف. إذ، لا بُدّ في تغيير المجتمع من الذهاب إلى ما هو أبعد من تغيير الحُكّام، وأعني تغيير الأسس الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية. فهل في هذا الأفق الذي نشير إليه ما يشير إلى هذا التغيير الذي يتخطى السطح إلى العمق، والشكل إلى الجوهر؟ تلك هي المسألة.

دور ذلك، ستتحول المشروعات السياسية في البلدان العربية، من مشروعات لبناء المجتمع والدولة إلى مشروعات تُستعاد فيها القبائل

وانتماءاتها، والمذاهب الدينية وتناقضاتها.
وفي العراق ما يُضيء. وفيه كذلك ما يُجيب، ويؤكد.

- ٥ -

في هذا الإطار، تقول لنا الأحداث الجارية في العالم العربي، بدءاً من الحدث التونسي، أشياء كثيرة، أقتصر هنا على الوقوف عند أمرين:
الأول، هو ضرورة القطيعة الكاملة، نظراً وممارسةً، مع منطق الحلف الظاهر الفعّال بين الدين والسياسة، (وبينهما المال).
الثاني، هو ضرورة التوكيد، جهراً، على بناء المجتمع العربي المدني، والدولة المدنية.

وهي، إذاً، أحداثٌ تقول لنا، على مستوى آخر: كلّ "معارضة" أو كلّ "ثورة" لا تُجهر بضرورة قيام الدولة المدنية، والمجتمع المدني، والثقافة المدنية، لن تكون إلا شكلاً آخر لما "تعارضه" أو "تثور" عليه، ولن تكون إلا استمراراً في "مستنقع الفساد" - لكن، بشكلٍ آخر من "السباحة"، قد يكون أقلّ قُبْحاً من الأشكال التي سبقت.

وآنذاك، يحق لنا أن نسأل: ماذا يجدي، مثلاً، على المستوى الإنساني الكياني، التغيير في مصر، إذا بقي وضعُ الأقباط فيها كما كان سابقاً: "مواطنين" يقومون بجميع الواجبات كمثّل غيرهم، لكن ليست لهم جميع الحقوق التي يتمتع بها غيرهم؟

ويمكن أن نعطي أمثلةً أخرى متنوعة في البلدان العربية الأخرى. هكذا، يجب أن يتم تغيير الأنظمة الراهنة في ترابط عضوي مع التغيير، مدنياً، على نحو جذري وشامل. دون ذلك نخاطر في ألا يكون تغيير الأنظمة إلا نوعاً من التغيير "القنزحي" - الشكلي.

- ٦ -

يُخَطِرُ لي ها سؤال قد يكون سابقاً لأوانه: ماذا نفعل إن كان في هذه الأحداث ما يُنبئ بالعمل على التأسيس لهيمنة ما يُطلق عليه الفكر السياسي العربي الراهن اسم "الإسلام المعتدل"؟ وماذا يعني "الاعتدال" داخل الإسلام ذاته؟ وماذا يعني خارجه - في العلاقة مع الآخر الذي

ينتمي إلى أقليات مذهبية أو إثنية أو غير مسلمة داخل المجتمعات الإسلامية؟

ما تكون، وفقاً لهذا "الاعتدال"، حقوق هذا الآخر، وحرياته، الثقافية والاجتماعية والمعتقدية - تديننا، أو لا تديننا؟ وكيف؟ وهل سيواجه أنواع "الإقصاء" و"التهميش"، و"التكفير"، و"الدونية"، كما عُرفت، في بعض مراحل تاريخنا، القديم والحديث؟

- ٧ -

كلاً، لن تكون الشمس في المجتمع العربي جديدة بالضرورة كل يوم - إلا بشرط واحد: تأسيس المجتمع المدني، والدولة المدنية، والحياة الإنسانية المدنية، فيما وراء الانتماءات كلها - الدينية والإثنية واللغوية.

شرارات

- ١ -

الخبز مقابل الخضوع: سياسة الطغاة من كل نوع.

- ٢ -

- "لماذا تبحث عن الخبز؟ جسدي بين يديك، يا حبي": شطران من أغنية امرأة عاشقة.

- ٣ -

كيف يمكن أن يكون سعيداً في عالم غائب، شخص يعيش شقياً في العالم الحاضر؟

- ٤ -

هاتي مذكراتك، أيتها الريح، وردي التحية لحقول الحرية.

- ٥ -

نقطة عَظُرٍ تُفَلت الآن من يد الأرض العريية، وتُصعد لكي تنزل على غنق السماء.

- ٦ -

تُرَدِّدُ الشمس، اليوم، خلافاً للعادة، في رسم وجهها على غلاف الأفق.

- ٧ -

لم يكن الحلاج يرى إلا بعين الحب، لهذا كان يرى العالم كله ضوءاً.
ولم يكن المعزي يرى إلا بعين الحياة، لهذا لم يكن يرى إلا الموت.

- ٨ -

إن كان هناك جواب عن سؤالٍ تطرحه، فعليك أن تُعيد النظر في هذا السؤال.
لا جواب لأي سؤالٍ كياني.

- ٩ -

لست أنت من يبتعد عن الحياة. الحياة هي التي تبتعد عنك.

- ١٠ -

ربما ليس العدم إلا ثقباً كبيراً في ثوب الحياة. غير أنه ثقب لا يُزْتَق.

- ١١ -

صحيح، بكل يوم شقة.
لكن، صحيح أيضاً أنه يمكن أن تكون كل دقيقة فيه تزيافاً.

- ١٢ -

أدرك ظهرك للسماء، واترك لصدرها أن يتكئ على كتفك.

- ١٣ -

لا أحب الكتاب الذي يقدم نفسه إلى القارئ كأنه النعيم. أحب، على العكس،
الكتاب - الجحيم.

- ١٤ -

يمكن كل عضو في جسمي أن يكون خبازاً إلا قلبي: لا يقدر أن يكون إلا
بخاراً.

- ١٥ -

كيف نستطيع أن نفهم العالم، ونحن لا نرى منه إلا يديه وقدميه؟ أرى
وجهك، أيها الهارب.

- ١٦ -

"لا أعرف إن كان لي نور"، تقول الشمس.

- ١٧ -

الأزياء حجب على وجه الواقع.

لماذا تبدو الكتابة العربية، اليوم، كأنها نوعٌ من الطاعة لما تراه العين؟
أن نكتب هو، بالنسبة إلي، على النقيض تماماً: أن نُفضي ما تراه العين.

الموت هو الكلمة الأخيرة في سفر الكون. غير أنه يسفر - سفرٌ لا نهاية له.
إذا مات الموت انتهت الحياة.

اللحظة السورية، مزة ثانية (Z)

(Z) نشرت في جريدة الحياة (الخميس، ٥ أيار/مايو ٢٠١١).

- ١ -

سقوط الخلافة العثمانية، حلول الانتداب محلها، مجيء الاستقلال: ثلاث مراحل تاريخية حاسمة سبقت ولادة سورية الحديثة. وقد وُلدت لا بوصفها جسماً مكتملاً، بل بوصفها جرحاً. من هذا الجرح، كانت تنزف دماء تمتزج فيها الذكريات التاريخية الأليمة بالوقائع الفاجعة. ولم يندمل هذا الجرح حتى الآن. مُؤه، غُظي. بُني فوق التمويه والتغطية سقفٌ كثيفٌ من الأوهام الأيديولوجية المتنوعة. وكانت الفترة التي ساد فيها حزب البعث العربي الاشتراكي ذروة هذا التمويه وهذه التغطية.

الآن، ينفتح الجرح السوري من جميع الجهات. ينفتح في جسم "مقسم" في جسوم كثيرة" وفقاً لعبارة عروة بن الزرد. وهو لذلك ينفتح كأنه فضاء من الدماء، تبدو فيه سورية على حقيقتها التاريخية: قوميات، إثنيات، أقليات، مذاهب دينية، طوائف، قبائل، عشائر. كما كانت ماضياً. قُدامُها ابتعت أحداثها. ذلك أن الذين تعاقبوا على حكمها أرادوا ثرواتها أكثر مما أرادوا بناءها. هكذا أنشؤا نظاماً ولم يؤنسوا مجتمعاً.

منذ الانقلاب العسكري الأول، عام ١٩٤٩، انتهت الحياة البرلمانية، وصودرت الحياة السياسية. وكانت الطاقة الكبرى في بداية الستينات حيث وُضعت سورية كلها، بتاريخها كله، وبتعديدها كله في إناء واحد، من أجل تنويعها وصهرها في سائلٍ أيديولوجي واحد: ضد الحقيقة وضد الواقع، وضد الطبيعة.

- ٢ -

منذ عام ١٩٦٣، وصل الحزب الواحد إلى السلطة بانقلاب عسكري، أي بنوع من الاغتصاب، محتكراً حق تمثيل الشعب المتعدد المتنوع. استبعد، تبعاً لذلك، جميع الأطراف الأخرى إلا إذا قلت الالتحاق به، والعمل تحت رايته.

وقد جعل هذا الاحتكار قاعدةً وطنية نُص عليها في دستور البلاد، (المادة ٨). وهو عملٌ بدا في الممارسة كأنه "دينٌ" آخر، مغلق، وعنفي. وكأنه لم يكن ضد السوريين، حقوقاً وحزبات، بقدر ما كان ضد الحياة ذاتها في المطلق، والإنسان ذاته في المطلق. وكان، إلى ذلك، تأسيساً دستورياً للامتيازات والانتهاكات والاحتكارات، وتأسيساً للعنف الذي يحمي هذا كله ويسوقه.

الحزب الواحد استنساخ مزدوج للعنف الروحي - الفكري التقليدي، وللعنف المادي الذي يستتبعه. وهو في ذلك تجسيمٌ لسلطة الواحد. إنه إعادة إنتاج للخضوع والتبعية للحاكم الأوحد.

والواقع أنه كن إلغاءً للتعدد وللتنوع اللذين يميزان المجتمع السوري. وكن أيضاً إلغاءً لهوية هذا المجتمع، من حيث إنه يضع مقاليد الفكر والحياة في يد الحزب الواحد والسلطة الواحدة، وإلغاءً لثقافته من حيث إنه يخضعها إلى معايير هذا الحزب وسياساته. وهو، قبل كل شيء، ضد التاريخ. ففي البدء، تاريخياً، كانت الكثرة وكان التنوع والتعدد. وليس الواحد في هذا الإطار إلا تجريداً محضاً، أو ليس إلا وهماً سرعان ما تفضحه التجربة.

هكذا ينبغي الخروج من السياق السلطوي الأحادي. فهو سياقٌ يحول المجتمع إلى آلة: نعم نعم، لا لا. ولا بد، تبعاً لذلك، من المبادرة فوراً إلى إلغاء المادة الثامنة في الدستور السوري، والتي هي أساس الوباء في الحياة السورية الراهنة: سياسياً واقتصادياً، ثقافياً واجتماعياً، إنسانياً وحضارياً. ولا بد من أن يرافق هذا الإلغاء قانون يسمح بتأسيس الأحزاب. فالتعدد والسجال وطرح الآراء والنظرات المتنوعة أساس الحياة السياسية السورية. ولا بد من أن ترافقه، كذلك، دعوة لانتخاب تشريعي حز، يؤسس لعهد جديد في سورية، تتنافس فيه القوى الاجتماعية السياسية، كلها من دون استثناء، في مناخ ديموقراطي وعلى نحو إنساني وخلّاق، ويتم فيه تداول السلطة سلمياً ووفقاً للمعايير القانونية.

لقد أثبتت التجربة، منذ ١٩٦٣، أن سيطرة الحزب الواحد على الدولة والمجتمع فشلت اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً. وكان فشلها كارثياً. إن جوهر الاجتماع الإنساني يقوم على الاختلاف والتنوع والتعدد. وفرض الواحدية عليه إنما هو قضاء على الإنسان وإبداعه، وقضاء على المجتمع.

والحاجة الماسة الآن، والملحة، هي إلى الاجتماع والتشاور والعمل مع أهل الفكر والرأي ومنظمات حقوق الإنسان ومع القوى السياسية المدنية والعلمانية. وذلك لوضع خطوط أساسية والعمل للخروج من الأحادية

القائمة، مع الفصل الكامل بين الدين من جهة، والسياسة والدولة من جهة ثانية، من دون المساس بحرية التدين والمعتقد، أيّاً كان. خصوصاً أن استخدام الدين سياسياً إنما هو عنفٌ آخر. ولعلّه، في إطار الدولة وثقافتها وسياساتها، العنف الأكثر نزوعاً إلى الإقصاء والإلغاء.

ولا يكتمل هذا العمل إلا بعزل القضاء والتربية والجيش وقوى الأمن عن السياسة، على نحو كامل وشامل وجذري، وإعطاء النساء حقوقهن المدنية الكاملة، في مساواة تامة مع الرجال. هكذا لا تعود السلطة الحاكمة طرفاً سياسياً أو حزبياً وإنما تصبح حكماً. وهو ما يجب أن يبدأ الآن، وأن يُعلن الآن.

هذه القضايا كلها جديرة بأن يدعى إلى دراستها، ومناقشتها، رئيس البلاد، في حوار وطني عام، لوضع الأسس التي تكفل الانتقال بسورية إلى حياة ديموقراطية، تعددية، تقوم على القانون، وعلى القداسة الكاملة لحرّيات الإنسان وحقوقه.

- ٣ -

الأساس الذي يجب توكيده، في المجتمعات العربية كلّها، وبخاصة في الحالة السورية، هو الحيلولة، بمختلف الوسائل، دون استخدام الدين سلاحاً في الصراع السياسي. فهو، عدا أنه استخدام للعنف، كما أشرت، يستنفر الذاكرة التاريخية التي تقطر دماً: ذاكرة الصراع - مذهبيّاً، وثقافياً، وسياسياً، ويستنفر العصبية القبلية والعشائرية والإثنية. هكذا يخرج هذا الصراع من الإطار المدني - الثقافي الوطني. وقد يحوّل النصوص الدينية ذاتها، كما تعلّمنا التجربة التاريخية، إلى مجرد أدوات عنفية. إنّ سياسة تقاد باسم الدين في عربة يجزّها حصانان: النعيم والجحيم، إنما هي بالضرورة سياسة عنفية، وإقصائية.

وعليّنا أن نعترف بأنّ الأنظمة أوصلت الطفيلان إلى درجة دفعت بمعارضها جميعاً إلى الركوب في هذه العربة التي يقودها، أحياناً، حصانان آخران: المال والقتل وبينهم الكامخ الأميركي - الإسرائيلي.

- ٤ -

كان منتظراً أن يحدث ما حدث في سورية، في شكل أو في آخر. أن يستيقظ النائم أو المُنوم. أن يتحرك الناس في طلب الحرية، والكرامة البشرية، والقضاء على الظلم، وتوزيع الثروة بعدالة، وإلغاء الاعتقالات بسبب الرأي... إلخ. ولا تهم هنا الأقلية العددية. العدد هنا رمز. والأقلية في العدد هي هنا أكثرية في الرمز.

نعم، كان منتظراً أن يحدث ما حدث. وها هو الحاضر في سورية ليس في بعض أشكال انفجاراته إلا استنساخاً بأدوات حديثة لبعض أحداث الماضي. طفل يلعب أو يدرس يخترقه رمح السلطة. رأس يفكر يحتزّه السيف. أجسام تُقَطَّع بالفؤوس، وتُطْرَح على الدروب. هول ينزل من أعلى، من السلطة، وهول يصعد من أسفل، من الناس. المجتمع يتحرك جحيمياً. والنار الأكلة لا تشبع.

والأكثر عبثيةً واستدعاءً للسخرية هو ما يُقال حول تدخل الأميركيين والأوروبيين. يحسبون العرب بلا ذاكرة ولا قدرة على الربط. أين تدخلوا وخرجوا، أو حلّوا مشكلة؟ في فلسطين؟ في العراق؟ وها هي ليبيا في التجربة والثوار يدفعون الثمن وحدهم. لا أشك في أن السوريين يرفضون قطعياً أي تدخل أجنبي في شؤونهم الداخلية. فهم الأكثر وعياً والأكثر قدرةً على حلّها.

نعم، كان مُنتظراً، بالنسبة إليّ، على الأقل، أن يحدث ما حدث. ولا أعرف أن أبكي. لو أنني أعرف لكنّ حوّلت عيني إلى ينبوعين من الدمع: جنوبيّ في درعا، وشماليّ في بانياس وجبلة.

من أجل "سورية ديموقراطية" (8)

(8) كلمة أليوب في افتتاح المؤتمر الدولي السوري: "من أجل سورية ديموقراطية ودولة مدنية"، الذي طمعه "المعهد الإسكندريافي لحقوق الإنسان". (جنيف، ٢٨-٢٩ كانون الثاني/يناير ٢٠١٣)

- ١ -

أيّتها الصديقات، أيها الأصدقاء
نجتمع من أجل "سورية ديموقراطية"، ومن أجل "دولة مدنية" فيها،
وفقاً لموضوع هذا المؤتمر.

السؤال المباشر الذي يفرض نفسه، في هذا الضدد، هو: هل نؤمن
جميعاً أن الوسيلة جزء لا يتجزأ من الغاية؟

إذا كان الجواب بالإيجاب، وهو ما أفترضه شخصياً، فإن علينا أن
نعترف بأن الوسائل العنيفة المسلحة القائمة، اليوم، إنما هي وسائل
تتناقض كلياً وجوهرياً مع هذه الغاية. إنها، بالأحرى، قضاء على
الديمقراطية والمدنية، عدا أنها لا تقيم أي وزن لحياة الإنسان ولحقوقه
وحزياته، إضافة إلى أنها تحتقر تاريخه ومنجزاته العمرانية والحضارية.

والحق أننا عندما ننظر إلى ما يحدث الآن في سورية، مربوطاً
برمزيتها التاريخية، على المستويين الحضاري والكوني، ندرك مباشرة كيف
أن الصراع فيها تحول إلى صراع إقليمي ودولي في آن، وكأن مقصد
الجميع يتخلى تهديم النظام إلى تهديم سورية. فسورية، بلد الحضارة
والتعدد، هي مفترق وملتقى. من الأبجدية التي ابتكرتها وغيّرت وجه
الإبداع الحضاري، إلى سلسلة طويلة من المراكز والمنجزات الحضارية، إلى
الدولة العربية الأولى في دمشق التي أنشأها معاوية وحملت البذور الأولى
للثقافة المدنية وكانت النواة الأولى للفصل بين الدين والدولة، أو لإعطاء
"ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، إلى الأندلس التي أسست لكونية الثقافة
وإنسانيتها، إلى انتصار الشاطيء المتوسطي الشرقي على الشاطيء
الغربي انتصاراً عسكرياً بقيادة صلاح الدين الأيوبي، - أقول في هذا كله،
كانت سورية ولا تزال تمثل التجفّع البشري الأكثر قدماً وغنى وتنوعاً
وانفتاحاً بين بلدان العالم. ففيها التقت ولا تزال تلتقي أديان وسلالات
قديمة، وتتعايش مع بعضها بعضاً. ولا يضيء سورية في ضون الجماعات
المتباينة، دينياً على الأخص، وفي استقبال الهجرات الجماعية للمضطهدين

وتوطئتهم، أي بلد في العالم. ولهذا كانت في جغرافية العلم المشرقي المتوسطي لعقدة الأكثر استعصاء في استراتيجيات العالم الحديث، سياسة وثقافة واقتصاداً.

هكذا يبدأ العمل من أجل "سورية ديمقراطية" ومن أجل دولة مدنية فيها بأن نرفض قطعياً تحويل سورية، بحجة تغيير النظام، إلى ساحة لمباريات القوى الأجنبية الاستعمارية في تدخلها باسم الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، علماً أن ثقة بلداناً كثيرة، عربية وغير عربية، أولى بهذا الدفاع. هذا من جهة. ويجب أن نرفض، من جهة ثانية، تحويل سورية، باسم هذا التغيير أيضاً، إلى ميدان للجهاد الديني تشارك فيه جميع المعسكرات الأصولية الإسلامية في العالم. كأن سورية بلاد كفر يجب أن تُغزى وأن تُفتتح. وهذا عنف عابر للقارات يُفرق البلاد في ظلامية القرون الوسطى، ويعقق جذوراً لا إنسانية في تاريخنا، ثقافية واجتماعية وسياسية، خصوصاً في ما يتعلق بالآخر المختلف؛ ولا معنى لأي تغيير أو لآية ثورة في سورية إذا لم يكن اقتلاع هذه الجذور هدفاً أول.

والمسألة العميقة، إذاً، في سورية لا تنحصر في مجرد تغيير النظام أو السلطة. فالديكتاتورية ليست مجرد بنية سياسية. إنها أساساً بنية ثقافية - اجتماعية. إنها في الرأس، قبل أن تكون في الكرسي. لا بد إذاً في الثورة، إن كانت حقيقية، من أن يقترن مشروع تغيير السلطة أو النظام السياسي اقتراناً عضوياً بمشروع آخر هو تغيير المجتمع سياسياً وإدارياً، ثقافياً واجتماعياً.

وفي أساس هذا التغيير، الذي يركز جوهرياً على وحدة الأرض السورية، المساواة الكاملة بين جميع السوريين، في معزل عن الجنس والدين والمنشأ الاجتماعي أو الإثني اسلالي. ومعنى ذلك التأسيس علمانياً، للديمقراطية، ولمذنية الحياة والدولة والمجتمع، إرساءً للتعددية وتوطيداً لحقوق الإنسان وحزباته، وفي مقدمتها تحرير المرأة من القيود التي تكبلها، فتعيد لها حضورها الإنساني الكامل، ولا تعود مجرد آلة للحرب والإنجاب، وتؤكد أن الثورة في معناها العميق ليست ذكورية، وإنما هي إنسانية، ثورة المرأة والرجل معاً، كأنهما عقل واحد وجسم واحد.

وهذا ما يتيح لسورية الحديثة أن ترتبط بمنجزات الإنسان الحديث، في ميادين الفكر والعلم والتقنية، وأن تتأصل، في اوقته نفسه، في تاريخ حضاري عريق.

إذ ما تكون، مثلاً، جدوى ثورة في سورية أو في غيرها من البلدان العربية لا تؤسس لولادة الفرد الحز المستقل، سيد نفسه، وحياته،

ومصيره؟ وما جدوى ثورة يحكمها تأويلٌ خاض وسياسي للنض الديني، في معزل كامل عن الواقع، وعن الطبيعة، وعن الحياة، وعن لثقافة، وعن الإنسان نفسه؟ وما جدوى ثورة تتكلم بلغة غير إنسانية، لغة "الأكثرية" و"الأقلية" - ولا تلتفت إلى أن المجتمع يقوم على الوطنية الواحدة، لا أكثرية ولا أقلية، بالمعنى العرقي أو الديني أو اللغوي، بل حصراً بالمعنى الديمقراطي المدني، الذي يقوم على الرأي الحز، الفردي، ويتجلى في صناديق الاقتراع.

وما معنى ثورة لا تؤمن بحق الإنسان في أن يكون معتقده الديني شخصياً لا يلزم أحداً غيره ولا يخضع لمحاسبة أحد إلا الخالق، وأن يعتقد ما يشاء في الطبيعة وفي ما وراءها، في لثقافة والحياة والموت وغيرها، وأن يفصح عن هذا الاعتقاد بحرية كاملة؟ وما جدوى ثورة لا يصل سقفها الثقافي الإنساني إلى أعلى من التسامح؟ ذلك أن في التسامح نوعاً من العنصرية. أتسامح معك، لأن الحق معي، ولأن الحقيقة هي ما أؤمن به، لكن أتفضل عليك، وأتيح لك أن تقول رأيك ضمن حدود معينة.

الإنسان لا يريد التسامح. الإنسان يريد المساواة.

المقدمة لأولى للعمل من أجل هذا كله، أيتها الصديقات، أيها الأصدقاء، هي الفصل الكامل بين ما هو ديني، من جهة، وما هو سياسي ثقافي اجتماعي من جهة ثانية. هذه ألفباء كل ثورة حقيقية.

وفي أساس ذلك، الخروج من جحيم النظام العسكري المستمر والمتصاعد، بصيغ مختلفة، منذ ١٩٤٩، والخروج، تبعاً لذلك، من الجحيم الأخرى: جحيم العسكرية وإباحة الساحة لكل مفاخر، والاقتتال المسلح، والنظرة الواحدة الشمولية.

هكذا، لا بد من أن يكون التغيير في الأسس. دون ذلك، لا ديمقراطية ولا مدنية، لا مواطنة ولا تعددية، لا حقوق ولا حريات. ودون ذلك لا يكون التغيير إلا انتقالاً من عبودية إلى أخرى.

تحية عالية إلى الذين هتأوا هذا اللقاء، وإلى جميع المشاركين فيه.

"لم تعد هناك إلا وسيلة واحدة للتنبؤ بالمستقبل، هي أن نبتكره"، هذا ما قاله قبيل موته ستيف جوبز (Steve Jobs) الذي يتحدر من أب سوري. صوت مفرد وخلاق ونبوئي، وأشعر أنه يخاطب السوري خصوصاً، فيما يخاطب الإنسان بعامة.

لكن، كيف تستطيع أن تبتكر المستقبل بلاد لا تكون سيدة نفسها ومصيرها وقرارها؟ بلاد تعيش وتعمل وتفكر، نظاماً ومعارضة، في تبعية شبه كاملة. بلاد تقبل أن تكون مجرد أداة، وشكل، ورقم، مجرد صورة، مجرد خرائط جغرافية. بلاد تعجز عن إقامة سلطتها، نظاماً ومعارضة، إلا على العنف والقتل. بلاد ترقد فوق مستنقع ضخم من الفساد، والتعفن، والتفكك. بلاد لم تحدث أي قطيعة أخلاقية أو عملية مع الطغيان بمختلف أشكاله ومستوياته، حيث بقي الفرد البشري فيها موضوع امتهان وازدراء، حتى اليوم يهان ويُنتهك، في حقوقه وحرياته وفي إنسانيته. وفي هذا كله، يتساوى النظام وقسم كبير من المعارضة.

بدءاً من البدايات، قبل الخلافة الأموية وفي أثنائها وبعدها، قبل الخلافة العباسية وفي أثنائها وبعدها، قبل الخلافة العثمانية وفي أثنائها وبعدها، قبل الخلافة البعثية في بغداد ودمشق وفي أثنائها وبعدها في مختلف البلدان العربية...

تاريخ طويل، غير إنساني، ومهين.

ولا يمكن فهم الأوضاع الدامية الفاجعة في سورية اليوم فهماً صحيحاً إلا إذا نُظر إليها في سياق هذا التاريخ. فالمسألة في العمق تتخطى السلطة إلى بنية المجتمع. وهي لذلك مسألة ثقافية قبل أن تكون سياسية. إنها ثقافة نفي الآخر المختلف، ثقافة "الإكراه"، والكراهية، ثقافة الإبادة الذاتية.

هناك عرب، شبان وشابات، خرجوا عقلياً ونفسياً من هذا السياق. عرب كثيرون، هم الذين كانوا محركي "الربيع العربي" وقادته الأول. هؤلاء هم "مادة" المستقبل، وهم الذين سيبتكرونه. لم يعودوا يرون حلولاً لمشكلاتهم في الرؤية الماضوية للإنسان والعالم.

حضور هؤلاء الشبان والشابات في قلب المجتمع العربي جدير بأن يذكرنا جميعاً بحضور آخر مناوئ: "الإرهاب". أن يذكرنا كذلك بالزعم القائل "إن الغرب يحارب الإرهاب"، وبضرورة التدقيق في هذا الزعم. الغرب (الولايات المتحدة خصوصاً) يحارب الإرهاب في "الصورة"، غير أنه يسالمة في "المعنى". يضرب هنا بعض الصور، وهنالك يرشح المعنى. مادته الأولى، والوحيدة تقريباً، هي "الإسلام والمسلمون". ميدان واسع مستحدث يتيح للغرب أن يختبر، وأن يمارس فيه تجارب متنوعة، وخططاً عديدة، ورؤى مستقبلية متنوعة، بدءاً من "ترويض" ديار الإسلام الكبيرة، العنيدة، الغنية، بخلق التصدعات والانشقاقات في ما بينهم. يقتتلون، يتأكلون من داخل. تتفتت ثرواتهم في سبيل كل شيء إلا التنمية والتقدم وتوفير الحياة الكريمة لكل مسلم. ويتفتتون. في أثناء ذلك، يعمل هذا الغرب على ترسيخ مصالحه العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية، فيما يعمل على إفشال أي نهوض إسلامي حقيقي، وعلى إبقاء العالم الإسلامي، العربي على الأخص، في تبعية كاملة، وامتداداً للقرون الوسطى: عالماً يسكنه أبناء ديانات ومذاهب، لا أبناء أوطان وحضارات.

- ٣ -

هل يحق لي، باسم الشبان والشابات العرب، أن أحلم بدور آخر للعرب في العلم يكون دوراً قيادياً؟ أن يبدأوا فيفكروا لا في قتل هذا الفعارض، أو شراء ذلك في إمته هذا النظام، أو إحياء آخر، أن يذهبوا إلى ما هو أبعد وأعلى وأعظم: الانهماك في بلدانهم، بوصف كل منها مجتمعاً واحداً لا يتجزأ، في حرياتها وحقوقها، في سعادتها وتقدمها. وأذكر هنا بهذا الواقع:

يشكل سكان آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية خمسة وثمانين بالمئة من سكان العالم، ويشكل مستعبدوهم الرأسماليون ما تبقى: خمسة عشر بالمئة من هؤلاء السكان.

كيف لا يفكر العرب، انطلاقاً من تاريخهم وموقعهم الجغرافي وثرواتهم المادية والبشرية، أن يكون لهم هنا دور من يشارك في تحرير البشرية، لا من يخضع ويعيش تابعاً لأولئك الذين يخنقون العالم؟ السلطة تعلو بعلو صاحبها. الإنسان هو الذي يعطي للسلطة مجدها ومعناها، ولا يُعزف الإنسان بالسلطة، وإنما السلطة هي التي تُعرف بالإنسان. حقاً، يبتكر الإنسان المستقبل أو لا يكون إلا قشة في يد الريح.

حاشية

يبدأ الشبان والشابات العرب هذا الابتكار فيما يناضلون يومياً، وفي جميع المجالات، لتحقيق أهداف ثلاثة:

١. الديمقراطية، من أجل إنهاء النظام العسكري الأمني.
٢. العدالة والمساواة والتحرر من مقتضيات الليبرالية الاقتصادية، التي لا تؤدي إلا إلى أن يزداد الفقير فقراً والغني غنى، ولا تؤدي بالتالي إلا إلى زيادة الفقر والبطالة.
٣. التحرر من التبعية للهيمنة الخارجية، التي تتمثل خصوصاً في الولايات المتحدة، والتي ليست غالباً إلا تأسيساً للاستعباد باسم التحرر. وليست في الواقع، إذًا، إلا هيمنة إمبريالية، مهما كانت "الأزياء" التي تتزينا بها.

(الحياة، الخميس ٢٢ شباط/فبراير ٢٠١٢)

عشر أطروحات حول التمردات العربية الراهنة

١ - الأطروحة الأولى

ماذا يخسر العرب، اليوم، لو فقدوا أنظمتهم كلهم؟
في الجواب عن هذا السؤال ما يُحدّد قيمة هذه الأنظمة ومستواها. وأغلب الظن أن جواب الأكثرية الساحقة من العرب: لن نخسر شيئاً. لكن هذا الجواب هو نفسه ما يجعل من العمل على تغيير هذه الأنظمة مسؤولية تاريخية كبرى، ثقافياً وإنسانياً. لا يجوز، خصوصاً، أن يكون هذا التغيير مقتصرًا على الجانب السياسي - السلطوي، وحده. يجب أن يكون شاملاً وجذرياً بحيث تتغير البنية الثقافية - الاجتماعية التي نهضت عليها هذه الأنظمة. النظام السياسي جزء من كل، ومجرد تغييره، وحده، بصفته سلطة، سيكون عملاً سطحيًا، وسيردنا، عاجلاً أو آجلاً، إلى المشكلات ذاتها.

والحق أن مسألة السلطة عند العرب كانت، على امتداد تاريخهم، مُشكلتهم الأولى. وكان الصراع من أجلها في أساس الفتن والحروب الداخلية. بل كان في أساس الانقسامات والمذاهب المتنوعة. ولم تكن السلطة تنبثق من الناس بحيث تكون تعبيراً عن إرادة شعبية، وإنما كانت تجيء من فوق، وهذا مما جعل الغنم والإكراه والقسر عناصر مصاحبة لها، على نحو شبه عضوي.

هذا لا ينفي أن العرب عرفوا خلفاء - حُكّاماً قاموا بإنجازات ثقافية وحضارية مهمة. وهذا، بدوره، لا ينفي أساسية الصراع على السلطة في تاريخ العرب، وأوليته.

الأمثلة كثيرة. منذ حروب الإسلام الداخلية. بدءاً من العهد التأسيسي، عهد الخلفاء الراشدين، مروراً بالعصرين الأموي والعباسي. من دون أن نهمل الإشارة إلى المثال الصارخ الذي تقدّمه الأندلس.

وبدأ من سقوط الخلافة العثمانية، قام الحكم العربي، مستعيداً نموذج الخلافة - بأسماء وأشكال متنوعة: "ملكية"، "ديموقراطية"، "جمهورية"، "ليبرالية". وأمثلة التحالفات في الإسلام، حفاظاً على السلطة، حتى مع أعداء الإسلام، وافرة يعرفها جميع المعنيين.

وفي هذا المسار من الهوس بالسلطة، رأينا ونرى، قوى أجنبية، "عظمى" خصوصاً، تدعم سلطة هذا الحاكم العربي أو ذاك، توكيداً

لمصالحها، على رغم قناعتها بفساد حكمه. وإذا رأت أن عرش سلطته بدأ يهتز، تُسارع إلى التخلي عنه. بل ربما تدخلت عسكرياً للإطاحة به. المهم، بالنسبة إليها، هو المشاركة في لعبة السلطة العربية لغاية واحدة: أن تضمن الهيمنة عليها.

وتتقدم فلسطين مثلاً فاجعاً على الهوس بالسلطة عند العرب. فالأحزاب الفلسطينية، "الثورية" المنشأ، والتي تتلاقى في الهدف الأول لوجودها، وفي مواجهة الخطر لمصري الواحد، يوجهها في المقام الأول هاجس السلطة، والصراع عليها. نضيف أن مشكلات الصراع على السلطة، على نحو فتاك، داخل الحزب الواحد، منذ أواسط القرن العشرين المنصرم، كانت، بنتائجها ودلالاتها، لا تقل خطراً عن مشكلات الصراع مع الخارج الاستعماري: (اليمن الديموقراطي، العراق، سورية، تمثيلاً لا حصراً).

٢ - الأطروحة الثانية

النظام القائم في أية دولة عربية هو، من حيث آلية السلطة، تنوع على نظام الخلافة، كما أشرت. وهو، إذاً، ليس مجرد حكم ورجال يحكمون. إنه، قبل كل شيء، ثقافة: ثقافة بالمعنى الواسع الذي يقابل الطبيعة. إنه دين وفكر وأدب وفرق وقيم وأخلاق وأعمال ورؤى. اختزال معارضته في السياسة، في مجرد الإطاحة به، بصفته حكماً أو سلطة، حصراً، إنما هو اختزال لهذه المعارضة نفسها. تصبح مجرد عمل سياسي: تغيير حكم طغياني فاسد بحكم آخر، يؤمل أن يكون أقل طغياناً وفساداً. وأقول "يؤمل" لأنه يستحيل أن يكون ديموقراطياً، إذا لم تتغير البنية الثقافية - الاجتماعية برمتها. هكذا ينبغي على المعارضة أن تكون سياسية - ثقافية، تعمل على تغيير الأسس التي قام عليها النظام الذي تعارضه: الدينية، المذهبية، القبلية، الطائفية. دون ذلك، لن تكون المعارضة أكثر من شكل آخر للسلطة التي تُعارضها.

٣ - الأطروحة الثالثة

اليوم، بفعل التمردات العربية التي يحركها الشباب والشبان، يُتاح التأسيس لمثل هذا التغيير، أكثر من أي وقت مضى. وهو تغيير يتيح

بدوره العمل على بناء مجتمع عربي جديد، وحياة إنسانية عربية جديدة، في تحرر كامل من ثقافة السلطة في الماضي.

الماضي، بتنوعاته الدينية والسياسية والاجتماعية كلها، ليس مرجعاً. إنه نقطة استنشاء. النظر إلى الماضي بصفته مرجعاً يعني استمرار الارتباط بالمذاهب والقليات وبكل ما يردنا إلى الوراء.

ماضياً، كانت السلطة تجيء من فوق كما أشرت: إما وراثته، خلافة أو ملكاً، وإما غزواً تقوم به فئة ضد أخرى. "الانقلاب العسكري" في العصر الحديث يمثل أبشع أشكال هذا الغزو، وأشدّها ضراوةً وجهاً.

اليوم، تذكرنا التمردات العربية بأن السلطة يمكن أن يؤسس لها من أسفل: من الشارع والناس والحياة. وهذا جديد كلياً في الحياة العربية. لهذا يجب الاحتفاء به، والحفاظ عليه، ودعمه، وتعميق أصوله، والانضمام إليه. إنه مجزّد "زرع"، غير أن "الحصاد" يحتاج، لكي يكون مثمراً وخلاقاً، إلى نضال مزدوج ومتلازم:

ضد السياق الذي سارت فيه السلطة العربية، السياق القروسطي - الديني، في مختلف تنوعاته وتشابكاته.

و ضد الثقافة التي أسست لهذا السياق ورشخته.

في هذا الإطار، تحديداً، قلت وأكّرت: لا قبل أن أسير في تظاهرة سياسية تخرج من الجامع بشعارات سياسية. الجامع رمز ديني، والخروج منه باسم السياسة لأهداف سياسية يحوّل هذا الرمز إلى مجزّد أداة سياسية. وفي هذا ما يفسد جوهرياً الفكر المعارض المدني، والعمل المعارض المدني، ويُعطى الواجهة والقيادة للدين وللتدين. لا تعني المعارضة إذا لم تكن مدنية، وخارج كل أفق ديني.

٤ - الأطروحة الرابعة

المسألة في هذا كله ليست دعوة ضد الدين في ذاته، أو ضد التدين. وإنما هي دعوة لرفض استخدام الدين سياسياً واجتماعياً.

لا جدال في حق الفرد بالإيمان والتدين. إنه حق أحترمه، وأدافع عنه. لكن المجتمع، بصفته كلاً، لا يقوم على المواطنة الدينية، وإنما على موطنة مدنية.

بهذا وحده تُضمن حقوق الإنسان، في معزل عن المعتقد، والانتماء، وعن الجنس والعرق، والمنشأ الاجتماعي.

كل استخدام سياسي للدين إنما هو نفسه شكلاً من أشكال العنف: لا ضد "الجسد" وحده، وإنما كذلك ضد "الروح". وهو، في هذا، أشد أنواع العنف ازدراء للإنسان. لأنه يصيبه في كيانه الإنساني العميق: في ضميره، وفي حريته، وفكره، وحتى في مخيلته.

٥ - الأطروحة الخامسة

لا بُد، استناداً إلى ما تقدم، أن تمارس المعارضة خطاباً يتخطى مفهومي "الأقلية" و"الأكثرية"، إلا بالمعنى السياسي - الديمقراطي في انتخاب تشريعي حز. وتأسيساً على ذلك، يتعدّر قيام الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وحرياته إلا في مجتمع مدني. كل مجتمع تختلط فيه السياسة بالدين نقيض كامل للديموقراطية.

الدين من عالم خاص بالفرد وحده، وحقوق المجتمع والإنسان عامة، ومدنية - اجتماعية. فالشرع الديني هو، حصراً، شأن الفرد المتدين، لا شأن المجتمع. والوقوف، إذاً، ضد أي شكل من أشكال التداخل بين الدين، من جهة، والدولة ومؤسسات المجتمع وسياساته وفنونه وثقافته، من جهة ثانية، مسألة بديهية. ولا معنى لأية معارضة عربية، خصوصاً في البلدان المتعددة الأديان، إذا لم يكن هذا الوقوف قاعدة أولى لفكرها وعملها.

إن معيار النظر إلى الإنسان، دينياً معيار الإيمان والكفر، ليس مجرد ظلم أو طغيان. إنه غير إنساني، وضد إنسانية الإنسان. ذلك أنه معيار إلغائي ينكر حقوق الآخر المختلف وحرياته.

إن مجتمعاً يتألف من أديان كثيرة لا يكون في الواقع المدني مجتمعاً، بالمعنى العميق الإنساني، وإنما يكون كتلاً بشرية متجاوزة شكلاً، ومتنازعة جوهراً. كل شرع ديني يسر، بطبيعته، التناؤد.

٦ - الأطروحة السادسة

على هذا المستوى، وفي هذا السياق، ما يكون معنى أو قيمة التغيير في المجتمع، إذا لم يقترن جوهرياً بتحرير المرأة من جميع قيودها المفروضة عليها؟ وما يكون معنى المجتمع نفسه إذا لم تكن المرأة فيه حرة، كمثل الرجل، في جميع الميادين وعلى جميع الأصعدة؟

هكذا لا بُدَّ من أن يكون في أساس فكر المعارضة وعملها القضاء على شلل المجتمع العربي وعدم التكافؤ فيه، وذلك بتحرير المرأة. ويجب على هذه المعارضة أن تُعلن هذا التحرير في وثيقة أو نص ليكون، تاريخياً، موازياً لإعلان حقوق الإنسان.

٧ - الأطروحة السابعة

يلزم، في هذا الإطار، أن ننظر بعين النقد البصيرة إلى مصطلحات إسلامية تُطلق وتُستخدم جزافاً. مثلاً: ما معنى "إسلام سياسي"، أو "إسلام معتدل"؟

هناك مسلمون سياسيون، ومسلمون معتدلون. لكن الإسلام بصفته ديناً لا يصح أن يوصف بأنه "سياسي" أو "معتدل" - في الكلام على الشؤون السياسية والاجتماعية والثقافية. القبول بمثل هذا الوصف يقود إلى القبول بأوصاف أخرى، كمثل "التطرف" و"التشدد" و"التزمّت" وغيرها. هكذا يدخل الإلهي في "الجدل" ويتحوّل إلى أيديولوجية.

مثلاً، ما معنى "الإسلام المعتدل" على مستوى مدنية المجتمع، أو الفن، أو الفكر، أو الموسيقى، أو حياة الجسد والجنس والحب، ومن يقرر درجة هذا "الاعتدال"، وكيف؟

ومن أين تجيء "ماهية" هذا الاعتدال؟ أمن قراءة خاصة، وفهم خاص، وكيف؟ وما يكون مكان الشرع في هذا الاعتدال، خصوصاً في ما يتعلّق بالمرأة، وبالأخر غير المسلم، وبالأخر الذي ولد مسلماً ويرغب في الخروج إلى لعالم المدني، كلياً؟

المسلم قابلٌ أو عرضةٌ لوصف، سلباً أو إيجاباً.

الإسلام لا يوصف إلا باسمه وبنفسه.

٨ - الأطروحة الثامنة

يتضح أكثر فأكثر، خصوصاً في ضوء التمردات العربية، أن الإسلام، بالنسبة إلى الغرب السياسي، الأميركي - الأوروبي، ليس إلا أداة. لا يهمه بصفته ديناً، أو ثقافة، أو حضارة. ما يهمه هو: كيف يستخدم هذا "الجيش" الضخم الذي يُسمى الإسلام وفقاً لخططه السياسية والاستراتيجية: تلك هي المسألة.

وهناك خطوط وخيوط تُحاك لإسلام الشرق الأوسط، وتشمل الإسلام الآسيوي الذي يرتبط به. ذلك هو "المحيط" الإسلامي: يحمي منابع البترول، وغيرها من الموارد. ويصّد المدّ الصيني. ويقول لروسيا: لا. ما يدعو إلى السخرية أن هذا الغرب السياسي يزعم أنه بعمله هذا يدافع عن حقوق المسلمين. يدعو إلى السخرية أيضاً أن كثيرين بينهم يصدّقونه، ويتحالفون معه. والأكثر مدعاةً للسخرية أن هذا الغرب يتابع عملياً، منذ قيام إسرائيل، ازدراء هذه الحقوق وتشجيع انتهاكها وسحقها في فلسطين.

هذا النفاق الذي يمارسه الغرب، إزاء العرب والمسلمين، إنما هو شكل آخر من استعمار الثقافة لهم. إنه دمار آخر.

٩ - الأطروحة التاسعة

أياً كانت الأوضاع، وأياً كانت نتائج حركات التمرد العربية (وهي، بالنسبة إليّ، إيجابية في جميع الأحوال وعلى أكثر من صعيد)، يتوجب على القوى التقدمية الديمقراطية في كل بلد عربي، خصوصاً في سورية، وعلى منظمات المجتمع المدني، والتجمعات الشبابية الديمقراطية، وبخاصة النسائية، أن تشكل تحالفاً ديمقراطياً للنضال، نظرياً وعملياً، من أجل إقامة الدولة المدنية، والمؤسسات المدنية، والمجتمع المدني. ومن أجل حماية البلدان العربية من الانزلاق نحو حكومات دينية باسم "الإسلام المعتدل"، أو حكومات طغيانية شمولية.

١٠ - الأطروحة العاشرة

يقول ستندال ما معناه: "إذا أراد الإنسان أن يكون عضواً بارزاً في تجمّع كبير، فإن عليه أن يكون بارعاً في تقديم توضيحات للإرادة العامة في هذا المجتمع، وإن كانت مخطئة. دون ذلك، لن يكون شيئاً، ولن يحقق شيئاً. ولا يستحق إلا هذا الاسم: "الابن الضال".

شخصياً، أفضل أن أكون "ابناً ضالاً"، على أن أساند الإرادة العامة المخطئة.

(الحياة، ٢٦ أيار/مايو ٢٠١١)

حول "غرب" العرب

فانتازيا حول الحلف الأطلسي المستعرب

(ضد القذافي، مع ليبيا الحرة غير الأطلسية)

- ١ -

الحلف الأطلسي صياد له شهية الذئب:
يعرف كيف يصطاد النياق النافرة، والنعاج الخبلى.

- ٢ -

أكبر جبل عربي يمكن أن يتحول في عين الحلف الأطلسي إلى نملة بانسة:
- "أذلك انبهز أم احتقار؟"، يسأل فقير هندي سائح صديقه الشاعر
العربي الذي لا يعرف السياحة أبدا.
بماذا يجيبه؟

- "الحلف الأطلسي عند سلطات العرب مرادف عسكري لحكمة إلهية
خفية. حيث الوَبأ يفرز الوَبأ، وحيث الوطن يلتهم بعضه بعضاً".

- ٣ -

بين المستقبل وسماء الحلف الأطلسي عهدٌ تتعلمُ السلطة العربية على
قراءته في مدرسة للعميان، حيث لا يُسمع إلا صرير منشازٍ يحزُّ عنق
الضوء.

الطفل العربي الذي وُلد، فجر هذا اليوم، صار في أحضان الحلف الأطلسي،
عشية هذا اليوم نفسه، شيخاً.
لا يفاجئك، أيها القارئ، هذا التحول السريع.
فرَّ السلطة عند العرب هو نفسه شاهد الولادة، وعزّاب الشيخوخة.

تبدو سماء الحلف الأطلسي، عند بعض العرب، بريئة كمثل الوردية التي
تُحدّث عنها أنجيلوس سيليسيوس: يفوخ عطرها لأنه يفوح، دون سبب.
دون "لماذا؟". وهكذا تغطي هذه السماء أرض العرب لأنها تغطيها.
والعجب أنها عين ترى كل شيء في العالم، إلا تلك البقعة النبوية
المسحوقة: فلسطين.

وهي لا ترى إلى الأرض العربية، أرضياً. وإنما ترى إليها، سماوياً.
تكاد، فيما تنتظر إليها، أن تُمطر فوقها صلاةً.
تكاد كل كلمة تقولها أن تتحول إلى محراب.

فنان بارغ هو الحلف الأطلسي:
كمثل النخات، لا يكتمل عمله إلا بالخذف، وإلا بالتصفية والتنقية.
وكمثل الغيب عند بعضهم: لا يرقى إليه أي تفسير.
وما يقوله تخضع له جميع الإرادات.
وصوته أكثر من أن يوصف بأنه شبه إلهي.

لسماء الحلف الأطلسي مخيلة تظل دائماً في درجة التوتر القصوى.
من يقول لنا، إذًا،
لماذا، كلما خطبت الأرض العربية خطوة إلى الأمام، أمسكت بها هذه
السماء وردتها إلى الوراء خطوات؟

ولماذا تحب هذه السماء أن تجثم على الأرض العربية، وتحول بينها وبين أن تنهض، أو حتى أن تتنفس أحياناً؟
ولماذا تكره أطفال الأرض والطفولة، خصوصاً أطفال العرب وطفولاتهم؟
ولماذا تستأثر دائماً بقصب السبق في جز أبناء الأرض إلى العذاب والخراب؟
ولماذا لا تريد لهم أن يبلغوا سنّ الزشد؟ ألّكي تعرف كيف تواصل رسالتها لهم، مبتكرةً حبيبهم وطرق رضاعتهم، إلى جانب الأسزة والذمي؟

- ٨ -

لا تأبه سماء الحلف الأطلسي لتلك الأصوات القليلة الضارخة:
ماذا يحول، أيتها السماء، دون طغيان يمكن أن يولد غداً على أنقاض الطغيان الذي تهزمينه؟ ولماذا عند العرب لا يحارب الطغيان إلا بطغيان آخر؟
وما يكون دور الشابات والشبان الذين تحضنهم الآن؟ هل سيقدرّون أيضاً على الغضب؟ هل ستحضنهم في هذه الحالة، وكيف؟ أم أن الغضب مُروّض مسبقاً؟ وهل ستكون سلطة الغد حرة وعدالة وكرامة، أم أنها ستكون تنوعاً "معتدلاً" على السلطة التي هدموها؟

- ٩ -

إنه الجواب - الخطاب المنتظر الذي ستوجهه إلى لشابات والشبان سماء الحلف الأطلسي:
"اشربوا، أيها الشبان والشابات، لبن الغضب وعسله كما تشاؤون، لكن في الكؤوس التي صنعتها خصيصاً لكم - بأعناقها المائلة، وألوانها النبيذية.
ولا بأس أن تأخذكم النشوة. أن يقتل بعضكم نفسه فيما يقتل غيره، تؤكد على براءة التضحية، وصدق الشهادة. ولا بأس أن يبدو الإنسان أقل قيمة من دجاجة، وأدنى من ضفدع. ولا بأس أن تتحول أرضكم العربية إلى مجازر ومقابر. فذلك ضروري لا من أجل "التطهير" وحده، وإنما أيضاً من أجل "التطهر".

وسوف نتابع طريقنا:
نعذ الرؤوس كرة كرة، أو رصاصة رصاصة،
قبل أن نربطها بحبل غروية وثقى،
مشدود إلى عمود سماوي.
حيث الفضاء صاروخ كروي،
والكذب الخبز والمزهم.
هكذا تكون الكلمة ثقباً في اللسان،
ويكون اللسان ثقباً في الرأس.
يقال: الإنسان أمام الأشياء كلها.
وأقول لكم، أنا سماء الأطلسي: الإنسان وراء الأشياء كلها.
اخترخوا. لا تترددوا.
بعضهم يؤمن لكي يفهم، وهؤلاء هم الفائزون.
وبعضهم يفهم لكي يؤمن، وهؤلاء هم الخاسرون.
طوبى، طوبى!

- ١٠ -

لا تصلي سماء الحلف الأطلسي إلا للأنقاض.
لم نسمع قبل أن الآلهة تبكي.
اليوم نراها تبكي تحت هذه السماء، ونسمع الزفير والشهيق.
هاتوا، إنذا، أغطيّة - بيضاً أو خمراً، وغطوا هذه الجثة الضخمة التي
تسقى الحرية العربية.
وها نحن الذين نقول عن أنفسنا أننا أبناء اللغة التي نطق بها الله،
والقاموس جذنا الأول، نسير وراء سلحفاة التاريخ:
الكون طابع بريدي،
ولا نعرف أن نكتب رسالة واحدة.

فانتازيا ختامية (حول المعارضات العربية)

١ - لا تزال الحياة العربية تتقلب في جحيم القرون الوسطى. ولا معنى
لآية ثورة عربية إذا لم تكن قائمة، أساسياً، على رادة الخروج من هذا
الجحيم، ومن ضمنه "نعيم" الحماية والتدخلات الدولية، بمختلف

أشكالها ومستوياتها. يحتاج العرب، إذًا، إلى ثورة مختلفة، جذرية وشاملة، لا تعرفها أبجدية الثورات التقليدية، ولا يمت فيها إلى الدولة بأية صلة كل ما يمت إلى الدين بأية صلة.

دون ذلك لن تكون ثوراتنا أكثر من صراخ في أبواق الغيم، أو: لن تكون إلا تنويعاً آخر على عبديّاتنا، وما أكثرها.

٢ - يتحدث اليوم معظم الكتاب في الصحافة العربية عن المسلمين (بمختلف طوائفهم)، والمسيحيين (بمختلف طوائفهم أيضاً)، لا بوصفهم مواطنين يتساوون في المواطنة، بل بوصفهم جماعات دينية، وبوصفهم أكرليات وأقليات دينية. تماماً كما يتحدث الكتاب الأجانب. وهم في ذلك يطمسون مفهوم المواطنة، وأبعادها السياسية والثقافية والاجتماعية، ويطمسون الفرد - الإنسان، وحقوقه وحرياته بوصفه فرداً حراً لا يخضع ثقافياً للجماعة وقيمها؛ وفي طمسهم هذا يرسخون قيم القرون الوسطى وينظرون إلى المسلمين بوصفهم غزاة، يطلبون إليهم أن يسلكوا مع غيرهم من سكان البلاد التي فتحوها سلوك التسامح... إلخ.

لا بد من تغيير هذه الطرق في الكتابة عن الأوضاع العربية الراهنة. لا بد من أن يتم النظر إلى الجميع بعين المواطنة، لا بعين الدين، أو بعين الأكثرية والأقلية دينياً. ويعرف الذين يتحمسون لحقوق الإنسان وحرياته، ولو نظرياً ولفظياً، أن الحق ليس أكثرية أو أقلية. وأن هذين مفهومان سياسيان، مرتبطان بالنظام الديموقراطي وآلياته السياسية الانتخابية. ولا أظن أن هؤلاء الكتاب يريدون حقاً أن نواصل الحياة والفكر، كما لو أننا نعيش في القرون الوسطى.

(جريدة السفير، ١٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١١)

بين "أسطول الحرية" و"أسطول الحضور التركي"

١ - المفجّم

للسياسة الإسرائيلية معجّم خاض - لغوياً، وفكرياً، وأخلاقياً. من يخالف قواعده ومقاييسه، فهو مخطئ سلفاً، وإن كان مُصيباً. لا مكان للحقيقة خارج هذا المعجّم. ولا مكان للغة.

وهو معجّم دولة لها من يمثلها في دول العالم كلّ، وبينها دول عربية. أنت الإنسان المتضامن مع حق الحرية والعدالة، مُقتلاً في فلسطين، مجرّم، سلفاً. أو على الأقل، "مُتهم". وترى السياسة الإسرائيلية أن من "حقّها" أن تُصّحح خطأك وتردك إلى الضواب. وهذا التصحيح قد لا يكفي بالردّ عليك، لغوياً أو فكرياً أو أخلاقياً. ولا بُدّ، إنذاً، من سجنك، أو تشريدك، أو قتلك، أو احتلالك، واحتلال أرضك. كأنّ من "حق" هذه السياسة أن تمنع الإنسان من الخطأ في "حقّها". و"حقّها" هذا مفتوح، كيفي، اعتباطي، و"كلّ يوم هو في شأن". كما تهوى، وكما تشاء.

وإذا كان هذا جزاء الذين يناصرون الفلسطينيين وحقوقه، فما بالك بجزاء الفلسطيني نفسه؟

منذ أكثر من نصف قرن، تطبق السياسة الإسرائيلية هذا المعجّم، وتمارس وظائفها استناداً إليه، في ازدياء شبه كامل للإنسان وحقوقه، للعقل ومبادئه، للفكر وقيمه، وللمؤسسات الدولية وقوانينها.

ولن يكون "أسطول الحرية" الشاهد الأخير على هذه الممارسة. مرّة، قال لي إيلي فيزيل، الكاتب الأميركي اليهودي، (جائزة نوبل للسلام):

- أصرحك بأنني غاضب جداً من الفلسطينيين.

قلت له متعجباً:

- غاضب؟ ولماذا؟ من واجبك الإنساني والفكري أن تغضب لهم، لا عليهم.

- غاضب لأنهم بالضبط هم الذين يجبرون جنود إسرائيل على تشريدهم وقتلهم.

ولم أجد ما أقوله إلا التذكير بمعجّم السياسة الإسرائيلية. بلى، هذه السياسة أكثر من أن تكون سجناً فلسطينياً. إنها كذلك سجنٌ لليهود أنفسهم.

ربما ستخطو السياسة الإسرائيلية خطوةً إلى الأمام: تحاصرك من جميع الجهات، وعلى جميع المستويات، "رأفة" بك، و"حرصاً" عليك، لكي تحول بينك وبين الخطأ في "فهم" هذا المعجم!

٢ - "أسطول المعرفة"

لا ينشأ لدى الشعوب علم حقيقي بالواقع إلا بدءاً من علمية المعرفة. لكن يبدو أننا، نحن العرب، استثناء في هذا المجال. ربما لهذا يظل الواقع العربي في حركة دائمة من الهرب إلى اللغة وإلى المخيلة وإلى "الزجاء". ربما لهذا لا يزال معظمنا يحلم بأن تهبط عليهم "الدولة الفلسطينية" مثل هدية تهبط من السماء.

ربما لهذا، على رغم "أسطول الحرية"، و"أسطول الغضب التركي"، لا نزال نرفض أن نتعزف، بصدق وشجاعة، على الهوة التي ننحدر فيها، وأن ننزع عنها أخيراً أقنعة الألفاظ والشعارات. ربما لهذا لا تزال السياسة التي "ترعى" هذه الهوة سياسة "يسغ كرسيها" كل شيء.

في رواية أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يقول عندما يواجه أمراً صعباً: "أعوذ بالله من كل معضلة ليس لها أبو حسن!" ويقصد صديقه الإمام علياً. (لسان العرب، مادة: غَضَل).

وفي رواية أن الخليفة معاوية كن يقول هو كذلك عندما يواجه أمراً صعباً: "معضلة ولا أبا حسن!"

غير أن الناس كانوا يحارون في تفسير ما يقصده معاوية. هل كان يعني: "لا يحلها إلا أبو حسن"، أو كان، على العكس، يعني: "لا يحلها حتى أبو حسن"؟

ماذا لو قال أحدنا اليوم عن فلسطين: "معضلة ولا الولايات المتحدة"؟
أصوات:

- هذه معضلة لا يحلها إلا العرب أنفسهم.

- وهم قادرون، لو شاؤوا.

- لماذا لا يشاؤون؟

- "ن تشاؤوا إلا ما يشاء الله".

"إنه الواقع"، يقول صوت آخر. ويتابع:
- الغريب أن هذا الواقع تتعذر رؤيته إلا في الظن.

صوت آخر:
- يجلس الجش كنيباً،
يقلب رأسه على ومادة النض.

٣ - "تطور"

"نستقر" نحن العرب في عالم لا يستقر، و"نتطور" في سياق خاص بنا
وحدنا: وطن ينكمش في نظام، نظام ينكمش في سلطة، سلطة تنقلب إلى
ملعب.

العرب، اليوم، ملعب.

تركيا آخر لاعب. وهو يدخل بقوة التحزب، والحزبات والحقوق. بقوة
هؤلاء الذين يملأون هذا الملعب. فرق أساس بينه وبين اللاعب الإيراني.
هكذا تستطيع تركيا أن تكون "نموذجاً"، عى العكس من إيران. فهذه، مهما
ساعدت الفلسطينيين، ومهما هددت إسرائيل، ستظل "غريبة"، لأنها تدخل
إلى هذا الملعب الخارجي من باب تديني أيديولوجي، ويطغى نظمها في
الدخل إلى درجة أنه يماهي بين معارضيه، من جهة، والشياطين والكفار
والعملاء، من جهة ثانية، في استهتار شبه كامل بالإنسان وحقوقه
وحرياته. وما دام الحكم في إيران قائماً على هذا الطغيان، فسوف يظل
"غريباً"، خصوصاً أن التشيع، في دلالته الأساسية الأولى، اعتراض جذري
على جميع أشكال الطغيان في الإسلام. وهو، إذاً، هجس كياني بالحرية
والعدالة والمساواة. وهو، تبعاً لذلك، سؤال من داخل الذين، غير أنه
مطروح باستمرار على الذين، سياسة، وفكر، وعملاً.

٤ - شطحات

زمنٌ عربيّ يَمُتْ،

لا يحمل في عينيه إلا نَعَاشَ التاريخ.

- ٢ -

هل يصح أن نصف الأرض العربيّة بأنها مُجَزَذُ خيالٍ في عين الحزينة؟

- ٣ -

لا يتوقّف بحر الكتابة العربيّة عن "التأليف"،

لا يتوقّف موج السلطة عن "التفكيك".

- ٤ -

الحاجة دائماً ملخّة في الكتابة العربيّة:

لا إلى خلق الوهم،

بل إلى تدميره.

- ٥ -

يتيح لنا اليأس أن نرى الأمل وهو يتطوّح في منحدره الأخير:

كشفٌ لا يُتيح له الأمل نفسه.

- ٦ -

الشروق، شروق الشمس في البحر العربي،

قاربٌ بصيادٍ وحيدٍ مُرهقٍ،

يتوشد موج المصادفات.

(جريدة الحياة، ١٥ حزيران/يونيو ٢٠١٠)

يمكن أن يتحوّل التدخل العسكري الأميركي في سورية إلى شكل من أشكال الإبادة البشرية. ربما سيشبه إبادة الهنود الحمر في أميركا الشمالية التي أصبحت تُسمى "الولايات المتحدة الأميركية". أو ربما ستشبه الإبادة التي قامت بها النازية. أو تلك التي قامت بها تركيا مطلع القرن العشرين ضد الشعب الأرمني والأقليات التاريخية المسيحية من سريان وكلدان وآشوريين. خصوصاً أن السياق الذي يتم فيه هذا التدخل معقد، غير واضح، بل أعمى.

١ - إن كانت المسألة حقاً إنسانية، ودفاعاً عن حقوق الإنسان العربي، فإن المهفات المنوطة براعية هذه الحقوق أشمل بكثير من أن تنحصر في سورية. إنها تحيط بهذه الراعية ألى توجهت إلى حليفاتها من الدول العربية، وإلى حليفتها الأولى: إسرائيل.

دون هذا الوعي والأخذ به، ستكون الولايات المتحدة أداة لخدمة الطغاة في الشرق الأوسط.

٢ - يتم هذا التدخل في مناخ صراع ملتبس لا بد من رؤية بعده الديني. وتعرف الولايات المتحدة معنى الحروب الدينية. وهي اليوم، موضوعياً، لا تدخل حكماً في هذا الصراع، وإنما تدخل طرفاً. فهل في هذا الانحياز خدمة للتقدم، أو للإنسان وحقوقه؟ أو خدمة للسلام والحرية؟ الصحيح الواقعي هو أن أميركا تنتهك في تدخلها حقوق الإنسان باسم الدفاع عنها. وليس هذا دفاعاً عن النظام الذي قلت وأكّرت أنه يجب أن يتغير، وإنما هو دفاع عن سورية - الأبجدية، وعن تاريخها العريق، وعن الشعب لسوري، وعن المبادئ الإنسانية الكبرى.

٣ - لكن لنتذكر أن الولايات المتحدة في عام ٢٠٠٣ أعلنت الحرب على العراق مساندةً للطرف الآخر. فماذا كانت النتيجة بالنسبة للدولة العراقية؟ وماذا عن عشرات آلاف الضحايا الأبرياء وعن تسقم البيئة؟ وأين هي "أسلحة الدمار الشامل"؟ أظن أن كثيرين ممن اضطهدهم صدام حسين يتأسفون اليوم على زوال نظامه.

طبعاً، كان ضرورياً أن يزول هذا النظام، لكن بطرق أخرى.

تعرف الولايات المتحدة (وقد لا تعرف) أن التاريخ العربي والإسلامي يتقظر دماً منذ الدولة الإسلامية الأولى. الصفحات الغالبة لهذا التاريخ يكتبها الصراع المذهبي ممزوجاً بالصراع على السلطة. هل تأجيج هذا

الصراع، والدخول طرفاً فيه، هو ما يخدم السلام والعدالة والحرية وحقوق الإنسان؟

خصوصاً أن من يعرف التاريخ يدرك أن المفاوضات الأكثر طولاً تبقى الأكثر قصراً من أي حرب. والكلام على الحروب الخاطفة والضرر المحدود (التشريحية أو المخبرية) وهم ودعاوة مضللة. فعندما تبدأ الحرب يصير الميدان وتحولاته ومفاجأته الحاكم صاحب القرار.

٤ - لا تزال الولايات المتحدة تصرّ على تجاهل المعارضين السلميين المتعذدين في داخل سورية وخارجها. أصفت إلى كل من قال بالعنف ولم تستمع إلى أقطاب المعارضة السلمية. على الأقل لمعرفة ما يقولون، للتعرف إلى سرّ معارضتهم السلمية، إلى وجهات نظرهم، فلعلّ لديهم مقترحات أكثر إنسانية، وبالنتيجة أكثر فاعليّة وأقلّ تطلباً للضحايا والخراب. إنه موقف يدعو إلى العجب حقاً.

منذ القديم لم تتطور الأفكار والقيم الخاضعة بالحرب والقتال، أي بالقتل. لا تزال الحرب تُعدّ العملية السحرية العظمى لحل المشكلات وتسجيل البطولات. الحرب تدور وتقتل حتى من أجل السلم. القتل! هذا هو العلاج السحري للجميع.

ما أشدّ عطش السلام إلى الدماء!
إن الحكمة العربية القديمة "وداوني بالتي كانت هي الداء" حكمة قاتلة في الحروب. لكن كيف يتعزج المنطق ويمضي نحو ذلك الإغراء الشيطاني: الحرب! فهل نقول أيضاً:
ما أشدّ عطش العدل إلى الدماء!
وعلى سبيل المثال، هل تمكّن الرئيس أوباما، على الرغم من نواياه الحسنة، المش بحرية حمل السلاح في أميركا؟ السلاح صار من صلب التقاليد الأميركية الحديثة.

لأنّ "الناس على دين ملوكهم"، كما يقول المثل عندنا. ألم يتحول القتل إلى "أسطورة" العصر، (وفي أميركا أولاً) لا في الأفلام وحدها، بل في الحياة اليومية؟

٥ - هكذا يبدو أن تفكير الإنسان في سبل حلّ الخلافات لم يتطور. لا يزال إلغاء المختلفين السبيل الواقعي المثبع لحل الاختلاف.

لا شيء تطوّر إلا الأسلحة وقدراتها المتعاظمة على الدمار وتسميم الكرة الأرضية، بيتنا الوحيد. الأسلحة تطوّرت بنسب هائلة. ولا تزال أرفع الصفات البطولية وأشرفها تسميات للقتل والقتال، لا لحكمة الحوار وابتداع الحلول السلمية وإنقاذ البشر وأرضهم المقدسة.

وكلمنا "أبدع" المحارب في ابتكار "فنون" القتل انهالت عليه الأوسمة والمدائح ودخل التاريخ.

لنتذكر أميركا - وليتذكر حلفاؤها أيضاً - أنها أعلنت الحرب على العراق للقضاء على الرئيس العراقي البعثي وفريقه الحاكم. لكنها حزكت الصراع المذهبي (الذي يستمر في القتل يومياً)، وقلبت التوازنات والتفاهات المذهبية في اتجاه يلائم خصمها التقليدي الجديد (إيران) ويناقض مصالح حلفائها الدائمين. فحسابات الحروب لا تجيء، في الغالب، بما يشتهي الطرف الذي أعلنها.

لنتذكر أميركا، وليتذكر الرئيس الذي جاء باسم السلام والوئام، أن الحرب التي لا تقتل أبرياء لا وجود لها في التاريخ، وبالأخص لا إمكان لتبرئتها في الحاضر. فكم قتلت من الأبرياء تلك الضربات الموحدة المبرمجة المجهرية الموجهة إلى العراق وإلى القاعدة في أفغانستان وغيرها.

الخطاب الطوباوي لا يغير الواقع الجهنمي.

٦ - وإذا أسأل الرئيس أوباما، "سفير" التجارب التاريخية المريرة، لا الانتصارات وحدها، وحامل الوعود بمساندة المحرومين، كيف يقاتل باسم العدل والسلام في سورية ولا يرى الاعتداء التاريخي المتواصل كل يوم على الإنسان الفلسطيني والأرض الفلسطينية وعلى القوانين ولأعراف الدولة؟ ولماذا لا يرى كذلك مدى انتهاك حقوق الإنسان في البلدان التي يتحالف معها؟

إن تفضيل الضربة العسكرية على التفاوض في مؤتمر جنيف هو عملياً تقديم للحل العسكري، وإسقاط مبدأ الحلول المفترض اعتماده بموجب شرعة الأمم المتحدة، وعن طريق مجلس الأمن. بل هو تكريس لمبدأ الحلول العسكرية.

فالحل العسكري هو الخطيئة المميتة التي انزلق إليها كل من المعارضة المسلحة والنظام في سورية.

والحقيقة أن لدول الكبرى، وفي المقدمة الولايات المتحدة، تبارك هذا الخيار العسكري وئزعاها. لا سيما أنها تتجاهل، في شكل كامل، وجود المعارضة السلمية، ولا تمنحها أي قدر من الاعتبار، بينما تتبنى المعارضة المسلحة على جميع المستويات. وها هي تتخذ الخطوات للتورط في هذا الخضم العسكري دعماً لها.

٧ - يمكن تفهم دفاع أميركا عن بعض الأنظمة العربية بوصفها البلدان التي تحكمها مصادر للطاقة الأميركية. لكن كيف نفهم رضوخ الدولة

الأميركية الكبرى لخطط هذه الأنظمة ذات الحكم القبلي - العائلي،
ولسياساتها في محاربة كل من تعده عدوًّا لها، وكيف تقبل أميركا أن
تجندها هذه الأنظمة لإعلان الحرب على خصومها.
وستبدو أميركا في هذا كله جزءاً من اللعبة السياسية - القبلية
والمذهبية في الشرق الأوسط، وشريكاً أساسياً في عرقلة تحرره، وعرقلة
العمل على بناء مجتمع حديث، وإنسان حديث، وثقافة حديثة. سوف
تبدو، بعبارة ثانية، أنها القوة الكونية الأولى التي تؤسس للاستبداد
والاستعباد، وتدافع عنهما، وتحمي الأنظمة التي تنهض عليهما، وفي
مقدمتها الأنظمة العربية والإسلامية.

(نشر في الجريدة الإيطالية *La Repubblica*،

٥ أيلول/سبتمبر ٢٠١٣)

- ١ -

لا خلاف، مبدئياً، على محاربة الإرهاب. القضاء عليه أمر تفرضه ضرورة القضاء على كل ما هو مظلّم ووحشي في الإنسان. واستنصاله، إذًا، ضرورة مُطلقة.

لكن، هناك اختلاف على طرق المحاربة. خصوصاً أن بعضها يُمارَس، اليوم، عشوائياً، بحيث تبدو كأنها إرهاب آخر. خصوصاً أن الإنسان يكاد أن يُعامل، اليوم، بوصفه إرهابياً، أو نصيراً للإرهاب، أو متعاطفاً، أو شريكاً. ثقة نزوع متزايد لعولمة الإرهاب: خزباً به، وخزباً عليه. الإرهاب لا يُحارب بالإرهاب.

- ٢ -

يجزّدون الإرهابي من ظروفه كلها. من عوامل لتاريخ، ومن دوافع النفس. من العلاقات والمصائر. من الأحلام والطموحات. فما يشغل الفكر والعقل والقلب. من الهزائم واخيبات والانسحقاقات. ينظرون إليه كما لو أنه كتلة صفاء. كأنه مجزّد قنبلة، مجزّد حجر، مجزّد قُح.

هكذا لا يرون منه إلا سلاحه. لا يرون من هذا السلاح إلا فعله المخزّب. أما تلك الطاقة الداخلية التي تحزّكه، فلا يعباون بها. هكذا، يطاردون السلاح ويهملون "الروح" التي تقوّده وتوجّجه. يحاربون "الزهبة" وينسون "الرغبة". يقفون عند "الإرهابي" في لإنسان، اختزالاً، وتبسيطاً، ولا يقفون عندما يخبئه "إرهابه" من "الرغبة"، إنسانياً، ومن "الرغبة"، و"الرغبي"، دينياً. لا يُصفون إلى ما يُصغي إليه: "عليكم بالجهاد فإِنَّهُ زُهْبَانِيَّةُ أُمْتِي" (حديث نبوي)، وإلى القول السائر: "سنأخذ الإسلام الجهاد في سبيل الله".

- ٣ -

"الإرهابي"، الذي لا يحاربون فيه إلا سلاحه "الظاهر"، مؤمن أولاً، وقبل كل شيء، إيماناً كاملاً بمطلقه الديني. مؤمن أن المعنى الأخير لوجوده نايغ من

هذا المطلق. أن حياته، تبعاً لذلك، لا تجد حقيقتها إلا فيه، ولا تجد خلاصها إلا به.

لماذا، إذاً، لا يستسلم لكل ما يعزز هذا الإيمان؟ لماذا، إذاً، لا يعمل على هزم كل ما يناقضه؟ ولئن أعوزه السلاح الآلي، فإن عنده سلاحاً آخر: جسده نفسه - ذلك السلاح الحيوي، الطبيعي، الذي لا "يستورده"، والذي هو وحده صانعه، وسيّد عليه، والذي لا مَرَدَّ له، ولا غالب حتى الموت نفسه. ماذا أقول: الموت نفسه جزء من هذا السلاح.

- ٤ -

لماذا لا ينظرون، في هذا الأفق "الإرهابي" أو "الزهابي"، إلى الحياة العربية - الإسلامية في واقعيتها المرئية والملموسة؟ ألا يكاد الشبّات الذي يهيمن عليها أن يكون أشدّ خطورةً من الفوضى؟ الأول دليل الجمود واللامبالاة والتعفن. الثانية دليل قلق وحيوية، وإن كانت دليل استهتار ولا مبالاة. ويمكن السيطرة على الفوضى، بحيث يحل محلها الاستقرار. غير أن التغلب على الشبّات يحتاج إلى ثورة ليست الحياة العربية، الآن على الأقل، مهيأة لها.

لماذا لا ينظرون، في هذا الأفق، إلى "براكين" الإرهاب: الفساد، الفقر، الأمية، البطالة، القمع، الطغيان، العدوان الخارجي على جميع المستويات، الكارثة الإنسانية المتواصلة منذ أكثر من نصف قرن في فلسطين، والنزعة الجامحة في السياسة الإسرائيلية - تشريداً، وتهديماً، وغزلاً، وتوسّعاً، واستملاكاً، وظرداً، وسجنًا، وقتلاً، ولا مبالاة؟

لماذا لا يخطر في بالهم أن القضاء على الإرهاب، إن كانوا يريدون ذلك حقاً، لا يبدأ من مطاردة السلاح، وإنما يبدأ بالعمل على الخلاص من هذا كله؟

لماذا لا يلاحظون أن هذا كله لا تريده ولا تعمل له - لا الأنظمة العربية أو الإسلامية، ولا الأنظمة الأجنبية، ولا إسرائيل طبعاً؟

لماذا لا يرون، استناداً إلى ذلك، أن كلامهم على السلام لا يُنظر إليه إلا بوصفه غطاءً آخر للحرب المتواصلة التي لا يتمزّق فيها إلا جسمان: الجسم العربي، بخاصة، والجسم الإسلامي، بعامة؟

لماذا لا يعقلون أن حربهم على الإرهاب لن تُفهم إلا بوصفها حرباً على البشر أنفسهم، وعلى ثقافتهم، وعلى منجزاتهم، وعلى طموحاتهم، وعلى حقوقهم؟

لماذا لا يفهمون أن كل ما يعزز إنتاج السلاح، وما يدمر طاقات البشر ومواردهم ومصادرهم، إنما هو خميرة الإرهاب الأولى؟
لماذا لا يتأملون في هذه البداة: الإرهاب الحقيقي، في هذا المنظور، كامن في هذه الحرب الغاشمة الجاهلة على الإرهاب، الحرب التي تمارسها الولايات المتحدة، "زعيمة العالم الحر"، وحلفاؤها غرباً وشرقاً، مسلمين وعرباً؟

- ٥ -

غير أن "الساحر" لا يجيب، لا يقدم حلولاً. الساحر "يوهم" و"يموه". "يُخِيل"، و"يشبه"، و"يصطنع".
هكذا، سوف يتخذ هذا "الساحر" من الإرهاب "ذريعة" و"واجهة" لحرب أخرى يفرض فيها سيطرته وهيمنته. يغزو، دون "غزو" يحتل، دون "احتلال". يدعم الأنظمة الحليفة، دون "نغم"، ودون "تحالف".
ثم تقدم "وقائع" الإرهاب الوسائل التي تكتمل بها "الحبكة": الانفلاق الديني، الأعمال "النضالية" التي لا تميز بين أبرياء والمجرم، بين الطفل والكهل، أو حتى بين "المؤمن" و"الكافر". ويسهل عند ذاك القول بعبثية النضال العربي أو الإسلامي، أو بوحشيته. و"الأخطر" يسهل القول: الأقوى مغلق في وجه أولئك المجانين الذين يتصورون أن في الإمكان بناء مجتمع عربي جديد، ومختلف عما هو اليوم. وليس عليهم إلا أن يزدادوا يقيناً بأن "العصر الذهبي" الذي يحلمون به لن يكون إلا عصراً آخر من الحجر.

- ٦ -

خطأ، في ظني، تشبيه الأصوليات الإسلامية، بتجلياتها المتعددة والمتنوعة، بالأصوليات الأخرى: القومية الوحشية، والشيوعية المؤسسية، واليساروية. وبأنها، خصوصاً، حلت محلها، مألوفة الفراغ الذي تركته في المجتمعات العربية والإسلامية. هذا تفسير "غربي" محض، بالمعنى السياسي السيئ والسلبى. وهو لذلك تبسيطي، اختزالي، سطحي.
الأصولية في هذه المجتمعات هي المادة والترتبة والواقع. هي الأساس. غير أنها كانت، لظروف تاريخية، "نائمة" أو "منومة". والتاريخ لا

ينام. وها هي مثله "تستيقظ". ولم يكن الدين، بحصر المعنى، مُنْبهها الأول، إذ ليست هناك قراءات جديدة دينية - روحية لهذه الأصول، في ضوء الانقلابات المعرفية والعلمية الكبرى التي عرفتتها العصور الحديثة، على مستوى الكون.

كانت السياسة، بصورها الأيديولوجية المغلقة، هي ذلك المنبه. ولهذا يمكن القول إن تلك الأصوليات تمثل اتجاهات سياسية - أيديولوجية تلبس، بطبيعتها، لبوس الدين. وليست الكتلة بين المسلمين والعرب هي التي تنهض بأشكالها وممارساتها العنيفة، سواء في النظر أو العمل. تنهض بها، على العكس، قلة قليلة، قياساً إلى الجمهور، العربي - الإسلامي، الضخم والذي لا يميل، إجمالاً، إلى العنف.

وصف إسخيلوس، المسرحي الإغريقي الكبير، بلسان بروميثيوس، المحزر، سارق النار، أناس العالم القديم قائلاً: "كانوا يُبصرون دون بصيرة، ويسمعون دون أن يَفُوا، ويعملون دون تفكير". هذا ينطبق تماماً على أولئك "الغربيين" الذين يزعمون أنهم يحاربون الإرهاب "الإسلامي"، ويقودون سياسات هذه الحرب التي تُلْزِمنا بأن نضيف إلى ما يقوله إسخيلوس جملةً أخرى تختص بهم: "ويقتلون ويهدمون دون وازع أو رادع". تُلْزِمنا كذلك بأن نستنتج: إن بناء الحضارة في "العالم الأول"، إذ يزعمون أنهم يقضون على الإرهاب في "العالم لثالث"، إنما يقضون، عملياً، على البشر.

لهذا لا نعجب من أن هؤلاء لا يُحسّون بضرورة البشر في هذا "العالم"، ولا بصيرورتهم. لا يُحسّون بالمآسي والخيبات التي تنهش أعماقهم. لا يُحسّون بالحياة التي يعيشونها كأنها هاوية بلا قرار، تقذف بهم إلى لا قرار. لا يُحسّون بهول الخواء الذي يجوّفهم ويحوّلهم إلى كائنات من الهباء. لا يُحسّون بالسجون، المادية والروحية، التي تطبق عليهم من جميع الجهات.

وكيف لا ينبث الإرهاب، إنأ، في مثل هذا لعالم الذي لا يتوقف قاداته عن المطالبة بالحرية والتحرر، ولا يمارسون في الواقع إلا نُشْر العبودية، وتمجيذها، وإلا الطغيان؟

الإرهاب هو حيث لا مكان للإنسان وحقوقه.
والعالم الذي لا حقوق فيه للإنسان، ليس عالماً للإنسان.

خاتمة - إشارة:

سقاني بعض الكتبة والفشكتكتبين "وهابياً" لأنني كتبت عن الحركة الوهابية، من أجل فهمها، وفهم موقعها في حركة الثقافة العربية - الإسلامية،

وسقوني "كردياً" لأنني زرت إقليماً عراقياً، اسمه كردستان، وسقوني "خمينياً"، لأنني كتبت عن الثورة الإيرانية، ضد نظام إمبراطوري،

ألن يسقوني، إذاً، الآن "إرهابياً"، لأنني أكتب عن الإرهاب، من أجل فهمه، وفهم "موقعه"، خصوصاً، في حركة التحرر من هيمنة "الغرب"؟ ولن أفاجا.

- ١ -

قليلة جداً، في حدود علمي، إن لم يكن منعدمة، تلك الدراسات التي يعالج، فلسفياً وحقوقياً، مفهوم السلطة عندنا نحن العرب، ومكان الإنسان فيها، ومعناها، ثقافياً واجتماعياً وحضارياً (السلطة شيء، والسياسة شيء آخر). الأبحاث التي قام بها خيراؤنا في علوم السياسة والدولة لا تتعدى وصف لممارسات، ومزج الأشكال، وكيفيات تداول الحكم: بقيت في حدود لظاهر المباشر، ولم تتجاوزها إلى الخوض في الأسس والدلالات. اليوم، أكثر من أي وقت مضى، تبدو الحاجة ملحة إلى أن نعرف لماذا تتغير أشكال الحكم عند العرب، ويتغير رجاءه، لكن السلطة تبقى هي هي: واحدة، وظيفائية؟ ولماذا لم ننجح، نحن العرب، منذ خمسة عشر قرناً حتى الآن، في إقامة دولة مدنية، بالمعنى الحقوقي الإنساني المعروف، والمثقف عليه، كونياً؟

- ٢ -

ستغلال سلطة الدين وتحويلها إلى "دين" للسلطة: تلك هي مسيرة الحكم في البلدان العربية، منذ خمسينات القرن الماضي، وهي بدايات المرحلة التي دشنتها 'الانقلابات العسكرية، باسم التحرر من الاستعمار، والقضاء على الرجعيات التابعة، سياسياً وثقافياً، اجتماعياً واقتصادياً، وباسم السيدة والحرية والتقدم. وه نحن، في ضوء التجربة، نرى أن الحكم في هذه المرحلة، حكم "لتقدميين، الأحرار"، لم يكن إلا استثناءاً لحكم "الخلفاء". وه نحن نكتشف، موضوعياً، كم كان هذا الاستنداف رهيباً وفادحاً ومنقراً، على جميع الأصعدة. كانت "فلسفة" هذا الحكم تقوم على أن السلطة هي "الشجرة - الأم"، وعلى أن الأفراد المحكومين نباتات تعزّش عليها، مجرّد نوايع وملحقات كمثل الأشياء. وعلى أن رأس السلطة يجيء في مرتبة أولى قبل المجتمع نفسه: كل شيء يدور حوله، هو، لا حول المجتمع، أو حول التحرر والحرية، أو حول التقدم.

هنا موضع الخل. هنا تكمن عناصر التزعزع الدائم، والانهيـار المتواصل.

- ٣ -

يمثل القذافي ذروة هذا الخل. وصل "جنون" السلطة عنده إلى أن "يذنبها" في شخصه: تجرد منها، شكلياً، وأضعاً نفسه فوقها، وفوق مصدرها - الشعب الليبي، لكي يُماهيها به. فهو "أسمى" من أن يُوصَف بالسلطة. هو السلطة، وليست هي هو. إنه "المُفَرَّد" الذي يصدر عنه كل شيء، ويعود إليه كل شيء. وهكذا يُصبح هو نفسه الشعب كله. ليس هذا مجرد "جنون". إنه مرض مركَّب نفسي - عقلي يجدُر بعلماء النفس أن يجدوا له اسماً خاصاً.

- ٤ -

يبدو اليوم، في ضوء التمزّجات العربية التحررية، أن الفرد العربي يعيش في مأزق: لا يستطيع أن ينخرط في تظاهرة سياسية تخرج من الجامع، ولا يستطيع، بالمقابل، أن ينضم إلى سلطة تعجز عن مواجهة هذه التظاهرة، إلا بالعنف والقُتل. توصله كذلك التجربة إلى أن يدرك أن المشكلة الأكثر مفارقة في الحياة السياسية العربية، اليوم، ليست أن نسأل، صارخين أو هامسين: من أين للحاكم العربي الحق في أن يُعطى أو يأخذ حقاً للمواطن؟ وإنما هي أن نسأل: هل للمواطن، أساساً، حق في نظر حُكّامه؟

- ٥ -

كيف تكوّنت "هوية" السلطة عندنا، نحن العرب؟ كيف تكوّن "فقهها"؟ ولماذا ترتبط، عضوياً، بالطغيان؟ والناس، عندها، اثنان: تابع، أو خاضع. والضمت عنها كذب عليها. والرغبة فيها رهبة منها. وما هذه السلطة التي يتجرأ صاحبها على قتل مواطنيه، وهدم قُراهم ومُدنهم، لكي يظل جالساً على كرسيها؟ وما هو الواقع العربي في ظل هذه السلطة: غابة لضيء الإنسان. وما هي الحياة العربية تحت ألوية هذه

السلطة: مزجّل ضخّم بحجم الفضاء، يمتلئ بحسّاء تتقلّب فيه أجسامُ العرب.

وليس هناك وجودٌ مشترك للعرب، في ظل هذه السلطة، وإنما هناك موثٌ مُشترك.

أهي تقاليدنا التي أشس لها قابيلٌ وهابيل:

- لم تكن المعرفة، في البدء، للإنسان بل للغراب.

- في البدء، لم تكن الكلمة، بل كان القتل.

- وليس الإنسان هو الذي يصنع السلطة، بل السلطة هي التي تُصنع الإنسان.

تباً لهذا الغراب، وتباً لهذه التقاليد.

- ٦ -

بفعل هذه السلطة، لا يمكن أن نتحدّث، مثلاً، عن الثقافة العربية، اليوم، إلا إذا بدأنا حديثنا بالفضفر والمكبوت، بالمحزّم والممنوع، بالرقبة والرقيب، بالعميل والكفر، بالعسكري والاعتقال، بالسجن والمنفى. وما يكون تاريخُ ثقافة هذا أمزها؟ وما قيمتها؟ وما معناها - بوصفها "وطنية" أو "قومية" أو "إنسانية"؟ وبفعل هذه السلطة، يُخبر المواطنُ على امتداح الحرية التي يتمتع بها أشخاص لا يجدون ما يأكلون. وامتداح سعة الثقافة عند أشخاص لا يجدون ما يقرأون. وامتداح المستقبل الزاهر لأشخاص لا يجدون ما يعملون. وبفعل هذه السلطة، يستنجد العربي بحكام الخارج - المُستعمر، لكي يحموه من عدوانها، ولكي يدافعوا عنه. وبدلاً من أن ينادي: وامتصماه! ينادي، على العكس:

وا أوبأها! وا سزكوزاها! هل تشعر هذه السلطة بهذه الإهانة الضخمة؟ بهذا الخزي؟ بهذا الازدراء الهائل - ليس لها وحدها، وإنما لواقع العربي ولتاريخ هذا الواقع بزمته؟

- ٧ -

أعترفُ عالياً:

التاريخ العربي، هذا التاريخ السلطوي، كرةٌ من النار تتدحرج في أحشائي.

لكن، فيما أعترف، يُخيل إليّ كأنني أسمع الشبان والشابات العرب
يعترفون، هم كذلك، عالياً:
الظلام الذي يهجم علينا يزيدنا تلالؤاً،
الوحش نفسه يتحوّل تحت أقدامنا إلى سلّم نُصعد عليه صوب القزید
من الثور.

(١٨/٤/٢٠١١)

- ١ -

صمّت شبه كامل، في الأوساط الثقافية، داخل إسرائيل، وخارجها في الغرب الأميركي - الأوروبي، إزاء ما قام به ويقوم الجيش الإسرائيلي، في لبنان، من خَرْقٍ لجميع المبادئ الإنسانية والثقافية، ومن استهانة بكرامة الإنسان وحرياته وحقوقه، ومن تدمير المقومات الأساسية لحياة شعب بكماله.

هكذا، من أجل شخصين اثنين، يُباد آلاف الأشخاص وثُباد لحياة في مصادرها الأولية، وفي وسائلها. ويُسمى خُطف أو أسر هذين الشخصين إرهاباً، وتُسمى تلك الإبادة دفاعاً عن النفس! خصوصاً أنّ هذه الأوساط كانت تنتصر لحرّيات الأفراد واشعوب، وتدافع عنها، وتعرض على مختلف أنواع الغمغ و لطفين، حتى في أبسط الحالات الفردية، وذلك بدءاً من العهد السوفياتي، مروراً بالأوضاع الأميركية اللاتينية، والصين، وانتهاءً ببعض الحالات في بعض الأنظمة الإسلامية.

صمّت مُذُلّ، شبه كامل. يُعذّر، حقاً، بـ "مرض" خطير، فكري وإنساني، على مستوى لكون. فعلاً، لم يعد "موت الإنسان" مُجرد كلام. إنه يموت ضميراً، وعقلاً، ورؤية.

لكن لماذا يموت، وفي سبيل أي شيء؟ وما يكون معنى الإنسان، ومعنى الثقافة، خصوصاً في إسرائيل - "الديموقراطية الوحيدة" في هذا الشرق العربي - الاستبدادي... إلخ، إلخ؟ يموت الإنسان - وتعيش "الآلة". لكن، مرةً ثانية في سبيل أي شيء؟

- ٢ -

بلى، لم يعد من الممكن وصف إسرائيل إلا بأنها "دولة مجنونة"^(٩)، فهي تثبت يوماً بعد يوم أنها لا تنظر لى المنطقة العربية إلا بعيون حديدية من أسماها الدبابة والصاروخ والطائرة.

لا ترى التاريخ، ولا الذاكرة، ولا المستقبل.
لا ترى الإنسان.

- ٣ -

الهجوم في أكثر أشكاله شراسةً: ذلك هو "الدفاع" عند النظام الإسرائيلي.
الاستسلام في أكثر أشكاله تدنيًا: ذلك هو "الهجوم" عند الأنظمة
العربية.

إضافةً إلى أن "شهوة التدمير" عند إسرائيل، تدمير كل ما هو
فلسطيني بخاصة، وعربي بعامة، لا يقابلها، في الواقع العملي، عند العرب
إلا شهوة أخرى للتدمير - التدمير الذاتي: لبعضهم بعضاً، ولأنفسهم
بأنفسهم.

- ٤ -

تدمير إسرائيل للبنان "جدار عازل" يثصل بذلك الجدار العازل الآخر، ضد
الفلسطينيين.
وهذا "المجتمع الدولي" الذي يرى هذا التدمير يبدو كأنه ليس أكثر من
مجموعة "عازفين" في جوقة اسمها إسرائيل.

- ٥ -

صورة فوتوغرافية كبيرة لجثة طفلة جنوبية. تبدو الطفلة كأنها نائمة على
زنها الأيمن.
غير بعيد عنها، تتناثر أنقاض سيارة، جرق ثياب، شظايا وأحجار سود.
حذاء، ربما لقتيل لا تبدو جثته، أو لشخص تمكّن من الهرب. في الطرف
الأيمن الأعلى من الصورة بعض النباتات،⁽¹⁰⁾

(10) الحياة، ١٦ تموز/يوليو ٢٠١٤، ص ١

طفلة ميتة بقصف إسرائيلي، في حقل أشلاء.

لماذا لا نسأل الواقع في صورة هذه الطفلة أن ينقلنا إلى الافتراض، أي إلى الصورة الافتراضية التي تكمن وراءها؟ وما يكون معنى هذه الصورة؟ أو ما الذي "تمثله"؟

للجواب عن هذا السؤال، علينا أن نستعين بمفهوم "التناسخ"، ذلك "اللاهوت" السالب. السالب في الصورة الفوتوغرافية "يتناسخ" في صور، فهو، في ذاته، غير مرئي. وعندما "نراه"، لا نراه هو، في ذاته، وإنما نرى "نسخته"/صورته.

التصوير الفوتوغرافي قزب صورة الطفلة إلى المشاهد، فيما أبقاه بعيداً من أصلها. غير أن هذه الصورة تقدم نفسها كأنها الأصل: تحل محله، كأنها بديل له، وفي الوقت نفسه، تشير إلى غيابه.

هل معنى ذلك أن جثة الطفلة في صورة فوتوغرافية واقعية تتضمن جثة أخرى في صورة افتراضية؟

وما تكون هذه الجثة؟ لنهمل الآن الجواب الممكن، ولنتركه إلى ذكاء القارئ ومخيلته.

يقول سارتر: "الصورة فعل وليست شيئاً. الصورة وعي للشيء". ومعنى ذلك أن الصورة الافتراضية صورة - فعل، صورة - وعي، تنقلنا من عالم مغلق إلى عالم مفتوح. وبما أن رؤية الصورة الافتراضية لا تفتح على المستقبل وحده، وإنما تفتح كذلك على الماضي، فإنها صورة تقرن بين الذاكرة، والحاضر والمستقبل. وتخلق في المشاهد صوراً نفسية عدة، ومتنوعة.

هكذا تبدو الصورة - الطفلة كممثل أفقي، كممثل صورة - أفق. في الزمن - حاضراً ومستقبلاً وماضياً. وفي المكان - هنا، وهناك وهناك. جثة تلك الطفلة.

- ٦ -

ليس للولايات المتحدة أو لإسرائيل أن تدعي القيام بمهمة القضاء على الإرهاب في لبنان أو فلسطين أو البلدان العربية. ويرتكب الحكام العرب خطأ فادحاً، تاريخياً وإنسانياً وفكرياً، إذا وافقوا على هذا الانعواء.

لا يمكن القضاء على الإرهاب، نظراً وعملاً، إلا في الصراع السياسي - الفكري الحر، في مجتمع مدني حر، وفي دولة ديمقراطية حرة.

فلتكف الولايات المتحدة وإسرائيل عن العدوان على العرب وحقوقهم، في فلسطين ولبنان والعراق وبقية البلدان العربية، ولتتح للعرب فرصة

لبناء هذا المجتمع، وهذه الدولة، وأنداك سيزول الإرهاب من تلقائه.
الطريقة الأميركية - الإسرائيلية فاشلة حتماً، عدا أنها سئسلم الحياة
العربية برمتها إلى القوى الدينية، وبخاصة الأصولية المتشددة.
هكذا، وتبعاً للخطاب الأميركي - الإسرائيلي لا تعود هذه الحياة إلا
عنفاً وإرهاباً. وإذا، لا بد من القضاء عليها! هيا، أيها السادة، واقضوا عليها!
منذ الآن.

يقظة إسلامية؟

- "ما رأيك في ما يسمى، اليوم، باليقظة الإسلامية؟"
- دائماً، كان الإسلام بقطاً ما نراه، اليوم، ليس "يقظة"، وإنما هو أدلجة لليقظة المتواصلة. وهو، إذًا، نوعٌ من تغطيتها وحجبها، والانحراف بها نحو اتجاهات سلطوية - غنفية.
ما نراه من هذه اليقظة - الأدلجة إنما هو نوعٌ آخر من التقنية اللغوية، تقابل التقنية المدببة الأميركية. وهي تقنيةٌ تقوم على طمس الذاتية لفردية (أو التضحية بها) من أجل الذات الجمعية الكبرى التي هي الأمة. تقوم كذلك على نفي الآخر لمخالف، أو جعله شبيهاً أو تابعاً.
تماماً كمثل ما تفعل التقنية الأميركية - مشحونة بالسياسة المشحونة بالدين والعلم.

تقّة وحدة في هذه الرؤية الوجدانية إلى الإنسان والعالم.
- "لرؤية الوجدانية؟"

- نعم. ولن تُفقد إعادة النظر في التقنية المادية شيئاً، إذا لم تقترب بإعادة النظر في "التقنية الروحية" التي تمارسها الوجدانية - منذ مؤسسها الأول أخيناثون الذي أسس لإبداء المختلف، ثقافة وحيدة. وقد فشلت الوجدانية، حضارياً، قبل فشل التقنية المادية. ولعل فشل الأولى أن يكون في أساس فشل الثانية، (...)
يزداد الدين في الولايات المتحدة تسارعاً في تحوله إلى سمكة تسبح في ماء السياسة، وذلك على رغم الاتجاهات العلمانية الفوية فيها. كذلك الشأن في السياسة: تتحول إلى سمكة تسبح في ماء الدين.
وهو تحول يتجاوز النظر إلى العمل.
تحول يتحسّد، ويتفقد، ويتمأسس.

غير أن لهذا التحول بذوراً تاريخية، وهو لذلك نوعٌ من الاستمرار. فلقد قام الفكر الأنكلوسكسوني - لاميركي، منذ تأسيس "العالم الجديد"، على رؤية دينية خاصة، وعلى إيديولوجية دينية سياسية، أو سياسية دينية. كان هذا الفكر يؤمن أن المؤسسين الأول لهذا العالم "شعب مختار" آخر، وأن له، هو كذلك، رسالة خلاصية للعلم: الحرية والديموقراطية... إلخ.
واليوم، تعمل الولايات المتحدة، بفعل هذا الفكر، لكي تصبح "شرطي" العالم، الساهر طبعاً على حريته، وعلى الديمقراطية.

غير أن هذا الشهر الشرطي - الإنقاذي يكاد أن يُدخل العالم، عملياً، في حالة من العبثية أو العدمية الإنسانية، لم يعرف التاريخ من قبل ما يُماثلها. ومن الطبيعي ألا يكون الساسة العرب في عداد الذين يهتمون بهذه الظاهرة، أو يقلقون منها - وإن كانت تستحوذ على اهتمام "أصدقائهم" من الساسة في أوروبا والعالم. فكلُّ من الساسة العرب مملكة خاصة تختصر الكون كله: أعطوني كرسي الحكم، وخذوا ما تشاؤون. هكذا، لا تدخل السياسة العربية في ميزان التاريخ، ناهيك عن ميزان الواقع.

هل أقول، إذًا، يجدر بالفكر العربي أن يستنفذ طاقاته لكي يقق، ويحاول أن يُجابه؟

لكن، ماذا يقدر أن يفعل فكريّ يعمل، هو كذلك، لكي يُصبح سمكة تُسبح في ماء الدين؟

كلا، لا تمكن محاربة "دين" بدين آخر. ثم إن الدين، كل دين، هو، تحديداً، ماضٍ، حتى "المستقبل" الذي يبشر به ليس إلا "ماضياً".

والفكر، تحديداً، هو الفكر الذي يخلق المستقبل. من تجليات "الرسالة الخلاصية" الأميركية، فكرة "الحرب الوقائية". فهي فكرة تُضمّر احتقار الآخر، لحظة اتعائها أنها تحميه وتحزّره. وهي إعلان حرب على النية، أو على ما لا يُعرَف حقاً. وهي إلقاء لكل قيد أخلاقي، أو أي معيار أخلاقي. وفي هذه الحرب يُصبح كل شيء مسوّغاً، ويصبح الكذب هو نفسه الحقيقة.

إن فكرة "الحرب الوقائية" هي، اليوم، من الأكاذيب الثقافية الاقتصادية الأميركية الكبيرة، إن لم تكن "الأكذوبة الكبرى". الغرب، اليوم، وبخاصة الأميركي، لا يُسيطر على "الشرق" بشعره، أو فئه، أو فلسفته، وإنما يسيطر عليه بالسوق والتقنية، أي بنوع من العنف. إنها سيطرة تدعو إلى هذا السؤال: هل الغرب في ذلك "يخون" الشرق و"يتملكه"، أم أنه يخون نفسه ويخسرّها؟

خصوصاً أن للغرب، منذ بداياته، رسالة تقوم على القول بمجتمع كوني يتألف من بلدان متساوية، يعمرها رجال ونساء متساوون وأحرار، بلدان تنهض وتتقدّم بفضل العلم الذي هو في خدمة الإنسان أيّاً كان، والذي يُولد الازدهار والنمو بحيث تنتفي أسباب الحروب، وأسباب العدوان.

أفلا يحق القول، إذًا، إن مسألة الغرب، اليوم، لم تعد مسألة تدهور حضاري، كما رأى شبنجلر، بقدر ما أصبحت مسألة فقدان الهوية، وخسارة الذات؟

الغرب والشرق، اليوم،
يلتحقان معاً
الضوء والظلام
كأنهما خيط واحد.

نهر الهدسون -

من جديد، أصفي إليه يدحرج حصي الأزمنة. أكاد أن أرى بينها تلك التي لا تزال ترتسم عليها أجسام طيور وغزلان عاش معها الهندي الأحمر وعشقها.
لن تمحو هذه الرسوم، أيها النهر، مهما عركتها بمائك - موجلاً أو عذباً.
وسوف تتخذ أشكالاً تليق بهذا السفز في أحشائك.

ثُحب الحقيقة أن تخرج من بين شفتي هذا النهر الشيخ.

(جريدة الحياة، ٢٠ أيار/مايو ٢٠٠٤)

كيف يتجنى الوضع السياسي العربي، في ضوء الحرب الإسرائيلية على غزة؟

أولاً، ظهرت الأنظمة العربية، أكثر من أي وقت مضى، كأنها تنتظر من الولايات المتحدة والذول الأوروبية حل المسألة الفلسطينية. وكان بكفيها نصف قرن من الصراع لكي يوضح لها كيف "تقدمت" إسرائيل، و"تراجعت" هي، وكيف أن هذه الذول الغربية جميعاً "باركت" ما فعلته إسرائيل، ولم تمارس عليها أي نوع من أنواع الضغوط، وأنها كانت دائماً، في أحسن الحالات، "ترجوها" و"تتمنى" عليها، كان. إذاً، نصف قرن من الاخبارات والعلاقات والتوقعات الخائبة، ومن الحروب والعاسي، كافياً لكي يؤكد أن مفتاح الحل للمشكلة الفلسطينية، ولمشكلات العربية، هو عند العرب أنفسهم في الداخل، وليس في الخارج: في إرادتهم، ووعدهم، ووحدتهم.

ثانياً، ظهرت الأنظمة العربية، عملياً، كأن المشكلة الملحة التي نوزقها جميعاً، بدرجات متفاوتة، ليست مع إسرائيل، أو الولايات المتحدة، أو لدول الأوروبية، بقدر ما هي عربية - عربية: بين السلطات والسلطات، وبين السلطات والشعوب. ولا يثقل جوهزها بالرؤية لمستقبل المنطقة العربية، وبخاصة في بعدها المتوسطي، وإنما يثقل مباشرة بأمن هذه الأنظمة "أمتها المباشرة"، حفزاً وتقوية له، ودفاعاً عنه. كان فلسطين لم تعد، بالنسبة إليها، مسألة "كيانية". وهكذا انحصر اهتمامها بالجواب الإنسانية الكارثية التي سببتها هذه الحرب، مساعدة، وإعادة إعمار... إلخ، تماماً كمحل ما تفعل الدول الأجنبية.

ما الذي جعل، أو يجعل، الأنظمة العربية تنقاد للنظر إلى فلسطين، كأنها لم تعد مسألة كيانية - قومية، مقابل دولة إسرائيل التي تنص في دستورها ('لمدني') على أنها دولة يهودية، أي دولة دينية، وتؤيدها في كل شيء

الدول الأجنبية، حليفة الأنظمة العربية، وفي طليعتها الولايات المتحدة، فيما تبارك عقاب "حماس - غزة"، بوصفها منظمة دينية - إرهابية، وتسوّغ حصارها، واحتلالها، وتدميرها.

ولنسأل بالمقابل: ما الحقوق أو المكاسب التي حصلت عليها "فتح"، المنظمة "العنصرية" أو غير الدينية، وغير الإرهابية، والمُعترف بها، دولياً؟ وهل توقفت مصادرة الأرض والبيوت في مناطقها؟ هل توقّف الجدار العزل عن قُصم المزارع، وضمّ الحقول إلى الشطر الإسرائيلي؟ وما الحرية أو مجالات الحركة والتنقل المُتاحة لفلسطينيين الضفة غير الدينيين، وغير الإرهابيين، الواقعين في شباك الحواجز العسكرية، والمطوّقين بمصائد المستوطنين؟ وما الذي يمكن أن نقرأه في هذه الخارطة الرهيبة من التناقضات والاعتداءات والاذعاءات؟

هنا يكمن ما يُولد الشَّلَل، والحيرة، واضياع، والمآزق، ويكمن ما يُولد الشعور بأن المسألة الفلسطينية أخذت بالدوبان والتلاشي في هذه المآزق.

- ٣ -

لا يجهل أحد أن في الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي مكبوتاً تاريخياً، ضخماً ومأساوياً، يتمثل في البعد الديني. وهو، مع خفائه، البعد الأكثر إقلاقاً وتعقيداً. ومع ذلك، لا يريد أحد أن يتحدث عنه. كلّ يكفي بالكلام على الجانب السياسي الظاهر من هذا الصراع، ويهمل الجانب الخفي الذي يترسّب، حاداً وبقلاً، في التاريخ والحياة والذاكرة.

كيف ننسى، إذاً، أن التطرف الديني في جهة، لا يُولد إلا تطرفاً مماثلاً في الجهة الأخرى؟ فعندما يعطي الإسرائيليون الحق لأنفسهم في الاستيلاء على أرض الفلسطينيين بذرائع دينية، خارج حدود إسرائيل - الدولة، التي قزرتها الأمم المتحدة، واعترفت بها الدول، فإنهم يحرضون عملياً على نشوء التطرف عند الفلسطينيين، ويستفزون ردوداً دينية مُقابلة. خصوصاً أن فشل القانون والنظام الدولي في صون حقوق الفلسطينيين يفتح أمامهم أبواب التطرف، عالياً. خصوصاً أيضاً أن الاستيلاء على أرضهم يتم في مناخ يُوحى بأن الغاية من هذا الاستيلاء ليست مُجرد نهب لقطعة مُحددة من الأرض، وإنما هي محو للمكان الذي يُسقى فلسطين، ومحو لهذا الاسم نفسه. ولماذا، إذاً، يُسكت، دولياً، على هذا التطرف الديني عند الجانب الإسرائيلي، وأحياناً يُسوَّغ ويدافع عنه؟ ولماذا عندما يظهر في الجانب الفلسطيني، دفاعياً، يُوصف دولياً بأعف

الصفات، وبينها الإرهاب، وتشهز عليه الحرب؟ ولماذا تُنساق بعض الأنظمة العربية إلى القبول بهذا المنطق الإسرائيلي؟

تبعاً لذلك، واستناداً إلى الممارسة، لم يعد ممكناً الاكتفاء بالقول إن الكثرة الإنسانية، البشعة حقاً، والمنكرة حقاً، تلك التي وقعت على اليهود في ألمانيا النازية، هي، وحدها، وراء مساندة الغرب لإسرائيل هذه المساندة المطلقة. إنها ظاهرة تُوجب على الفكر الحز أن يطرح حولها أسئلته. وسوف تكون أسئلة عديدة ومتنوعة. ذلك أن الذين يقفون هذا الموقف لمجرد الناحية الإنسانية، لا يمكن أن يقبلوا بتحويل الضحية إلى جلاذ يضطهد ضحية بديلة، أي يستحيل عليهم أن يقبلوا، إنسانياً، ما تقوم به إسرائيل ضد الفلسطينيين.

هكذا يبدو، موضوعياً، أن الغرب يدعم إسرائيل دينياً، ومعنى ذلك، عملياً، أنه يدعم ديناً ضد دين.

- ٤ -

فيما تعمل إسرائيل على استئصال فلسطين من خارطة التاريخ، يُعطي التمزق الفلسطيني - الفلسطيني لفلسطين وللشعب الفلسطيني بعداً تراجيدياً في نوع مرير من التآكل الداخلي والإبادة الذاتية، ويتحول عالم السياسة العربية إلى مجموعة من البحيرات الآسنة. وفيما يقف بعض العرب مع "حماس" بوصفها مشروع "مقاومة"، لا مشروع "دولة"، ويقف بعضهم مع "فتح" بوصفها، على العكس، مشروع "دولة"، لا مشروع "مقاومة"، يزداد العرب بعداً عن بعضهم بعضاً، ويزداد الإسرائيليون قرباً من بعضهم بعضاً.

وقد ينتبه بعضهم، فيما يشاهد الانقراض والأشلاء، فيصرخ قائلاً: ما العمل؟ لكنه لا يسمع إلا الضدى: ما العمل؟

هامش - ترجمة للصدى:

هل يجمع العرب، ولو مرّة في تاريخهم الحديث، على قرص، (نعم قرص!) قيام دولة فلسطينية، ايوم، لا غداً، بحيث يُفرض على إسرائيل والعالم التعامل مع الفلسطينيين بوصفهم دولة واحدة، لا بوصفهم جماعات؟ ويستطيع العرب أن يفعلوا ذلك بقليل من الشجاعة، في وجه الغرب، وفي وجه الولايات المتحدة خصوصاً، بحيث يجعلون تبني هذا الموقف معياراً أول وشرطاً أول في التعامل مع دول الغرب. ولن يكون

هذا إلا تطبيقاً لشرعة الأمم المتحدة، وهو الحق القديم الثابت الذي أعطته لهم هذه الشرعة عندما أعطته لإسرائيل. ولا علاقة للغرب وإسرائيل والأنظمة العربية في كيفية ممارسة الفلسطينيين هذا الحق، أو في تنظيم دولتهم كما يشاؤون. فهذا كله يجب أن يكون شأناً فلسطينياً خاصاً.

صدي ساذج؟ وترجمة ساذجة له؟
زئما، زئما.

لكن الصدى يتابع شذاجته:

إذا لم تكن إسرائيل مستعدة للاعتراف بدولة فلسطينية، ايوم، فسوف تكون غداً أقل استعداداً.
وبعد غد، لن تجد شيئاً اسمه فلسطين لكي تعترف به، أو بجزء بسيط قليل من هذا الشيء.

(الحياة، ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٩)

مسرح القتل

- ١ -

الجدار العازل، المستوطنات، حصر الفلسطينيين في غزة وحصارهم، تجويعاً وبطالة، تدمير المحرّمات في الحروب: المستشفيات، المعابد، المدارس، منازل الأبرياء، مقومات الحياة ومن ضمنها الماء والكهرباء، آلاف القتلى والجرحى، وفوق ذلك عزل غزة عن العالم: هذا كله، في نظر الديموقراطيات الغربية، لا شيء! منطق يشوّه الحقيقة والعقل والمنطق. وداخل هذا "المنطق"، أو بقوّته، يُنشّق العرب، أو "يُشقّون"، سياسياً واقتصادياً.

مسرح قتل وفتك وتدمير و"تصفيق"، لا مثيل له في التاريخ.

- ٢ -

قلت، وأكرر هنا: لست متعاطفاً مع "حماس"، عقائدياً، أو إيديولوجياً. وهو ما يمكن ان يُناقش ويُقوّم على حدة. غير أن هذا لا علاقة له بنضالها من أجل حقوقها الوطنية والإنسانية المشروعة. ولا يُمكن القبول باتخاذ مُعتقداتها ذريعة لقتل شعب، وتدمير أرض أو احتلالها، وإنكار حقوق. ولا معنى ولا محلّ لتهمة "الإرهاب" هنا. خصوصاً أنها تهمة لاحقت كل من تحرك من أجل استعادة حقه في فلسطين، مسلمين ومسيحيين.

- ٣ -

لم تعرف المؤسسة السياسية العربية، مؤسسة السلطة والقيادة والعلاقات الدولية، امتهاً في تاريخها كلّها كما تعرفه اليوم في فلسطين. لا من إسرائيل وحدها، بل من العالم أجمع.

حقاً، يبدو العرب، اليوم، كأن أرضهم الخصبة، لكريمة، عالية، مجرّد صحراء، مجرّد مساحات سائبة، وكأنهم، جماعات وشعوباً، مجرّد أعداد فائضة عن حاجة العالم، وينبغي التخلص منها، أو وضعها في "معازل"، بطريقة أو أخرى.

والفاجع الساخر، في هذا كله، هو أن العرب أعطوا كل شيء لإسرائيل و"ديموقراطياتها الغربية"، بالاعتراف والعلاقات الدبلوماسية - أعطوا كل شيء: السلام، والثروة، والقواعد العسكرية، وأسواق التجارة والاستهلاك، والمحالفات من كل نوع، دون أن يأخذوا، مقابل ذلك، أي شيء، بل دون أن يُمنَّ عليهم حتى بالاعتراف أن لهم حقوقاً، وأنهم موجودون، بشراً كبقية البشر، لا أشباحاً ولا عبيداً. وهذا ما تواصل تأكيده الحرب الإسرائيلية على غزة (عليهم جميعاً). فهذه الحرب ليست لاجتثاث "الإرهاب الحماسي" وصواريخه، وإنما هي حرب لاجتثاث "الهوية"، شعباً وبلاداً - مقومات وأساساً تاريخية وثقافية وعمرانية واقتصادية. حربٌ تخزق، إلى ذلك، جميع الخرمات التي توصي بها القوانين الإنسانية في الحروب، تخرقها جميعاً، فتقتل الأطفال والنساء، وتدمر البيوت والمدارس والجوامع والمستشفيات، ومراكز الأمم المتحدة نفسها، الزُمز الدولي لحقوق الإنسان. نعم، ليس هناك امتهانٌ في التاريخ كله كمثل هذا الامتهان الذي يعيشه العرب اليوم.

وفي هذه "الخلطية" الإسرائيلية، التي تتبناها الديموقراطيات الغربية، تُطلق صفة "الإرهاب" على من يدافع عن أرضه، ويُبرز منها من يفتصبها، ويستوطنها.

والسؤال المحير هو: من أين يجيء هذا الاستعداد، عند السلطات العربية، لقبول هذا الامتهان، والسير في مخططاته؟

- { -

في كل حال، وتلك هي ذروة الانحدار الكارثي، أخشى أن تكون المسألة الآن قد أصبحت أبعد من "حماس": من التناؤد أو التعاطف معها. وأصبحت أبعد من غزة، ومن الخلاف أو الاتفاق الفلسطيني - الفلسطيني، أو العربي - العربي، وأخشى أن تكون قد أصبحت أبعد من فلسطين نفسها.

المسألة هي: دولة - عضو في هيئة الأمم المتحدة، تضرب عرض الحائط بقوانين هذه الهيئة ومبادئها، تعطي لنفسها الحقوق والمطامع التي تشتهيها (كل مطمع لها هو حقُّ لها!)، دولة تستأثر بالحق، غصباً عن هذه الهيئة، بالقضاء، حزبياً، على أية قوة عربية لا تطمئن إليها، متى شاءت، وبالطرق التي تشاء، وبالأسلحة العالية التطور، فشكاً وتدميراً، سواء كانت هذه القوة "فرداً" أو "جماعة" أو "دولة". وهي طرقٌ تشهد حرب غزة أنها لا تقيم أي وزن للحياة ومقوماتها، أو للإنسان نفسه، حتى ل يبدو أن

"عدوها" ليس إلا ذريعة للإبادة العمياء دون تمييز. وهو استثناء يتم بتواطؤ، أو رضوخ، عربي، ويتم كذلك بنوع من المباركة الدولية. القضاء على "حماس" هو، بهذا المعنى، ليس إلا قضاء على الفلسطيني نفسه، مباشرة، وعلى العربي نفسه، مُداوِزَةً. تعزُّز ما أقوله المؤسسة الإسرائيلية السياسية: فهي ترفض أن ترسم حداً أو تعترف بحدود بينها، بوصفها دولة، وبين فلسطين بوصفها "دولة" مجاورة. وترفض أن تحدّد "وضع" الأشخاص غير اليهود الذين يقيمون في إسرائيل. وترفض أن تعطي لرئيس السلطة الفلسطينية أية حرية، حتى حرية الانتقال، أو أية استقلالية في أبسط جزء من أجزاء فلسطين "الفلسطينية". وترفض، إلى ذلك، أن تنسحب من الأرض العربية التي تفتصبها، احتلالاً، في سورية ولبنان.

- ٥ -

ما الواقع العربي، ليوم، في ضوء "حرب غزة" أو غزوها؟
أولاً - فقدت معظم الأنظمة العربية مشروعية تمثيل حقوق شعوبها في الحياة الكريمة، الحرة، المستقلة، فقدتها ديموقراطياً وإنسانياً وأخلاقياً.

ثانياً - لا تبدو "حماس"، في هذا الضوء، مجرد تنظيم سياسي - عسكري - ديني، ولا تبدو أنها "دينية" أكثر من غيرها، إلا بالشعارات التي ليست، في التحليل الواقعي الأخير، إلا خطاباً غيبياً، مما وراء الواقع (وهل إسرائيل في واقعيتها دولة علمانية، أو غير دينية؟).

على العكس، تبدو "حماس"، في هذا الضوء، كأنها "بصيص" عالم آخذ بالانطفاء، أو كأنها "انفجار" صفيّز في عالم سياسي عربي كبير وخامد. وتبدو، بوصفها كذلك، كأنها "أمل كامن" ضد المؤسسة السياسية العربية، وضد المؤسسة السياسية الإسرائيلية، في آن.

ثالثاً - كل شيء، في هذا الضوء، يُشير إلى أن الأمن المؤسسي العربي آخذ، من الآن فصاعداً، بالوقوع في قبضة الأمن المؤسسي الإسرائيلي.

رابعاً - الانتصار على "حماس"، بوصفها "تنظيماً"، هو، في هذا الضوء، انتصار محدود وموقّت في معركة ستكون طويلة الأمد. و"طول الأمد" هنا هو، بالضبط، ما تريده إسرائيل. فهو يتيح لها أن "تهضم" جيداً، وأن "تستوطن" جيداً، وأن "تمحو" و"تروّض" جيداً، وأن "تهيمن" جيداً، بحيث

يستنزف العالم السياسي العربي طاقاته كلها في ما لا يُجدي، وبحيث تُعيد بناءه، كما تشاء، وفقاً للإيقاع الذي تشاء.

خامساً - ليس "قتل" غزة، في هذا الضوء، إلا مجرد فصل في "مسرح القتل". فصل تجريب لقتل "العواصم" العربية.

و"عقاب" العرب هنا ليس واقعاً على "سلوكهم"، بل هو واقع على "وجودهم"، وفقاً لتعبير محمد حسنين هيكل.

سادساً - ليست الولايات المتحدة إلا حجاباً - ستاراً لهذا المسرح التراجيدي. خصوصاً أنه ليس لإسرائيل التي تُخرجه وتديره إلا "القوة" - قوة البطش والتدمير. وليست الولايات المتحدة إلا "الخزان" الأكبر للوقود الذي تحتاج إليه هذه القوة.

لكن إسرائيل، في هذه "الانتصارات" التي ستحققها، لن تكون في نظر التاريخ الإنساني العادل، وفي نظر الحقيقة والعقل، وفي النظر الإنساني بحصر الدلالة، إلا انتهاكاً للإنسان وحقوقه، وللحرية، والحقيقة، والعقل.

سابعاً - "مسرح القتل" هذا، تنعّض فيه مرحلة حاسمة من مراحل انقراضنا: انقراض ذلك الألق الذي عاش خمسة عشر قرناً وكان اسمه: العرب.

هلقوا أيها الجائعون

- ١ -

دمارٌ وموتٌ هما نهازُ غرّةٍ وليلها.
إنها الشهيدة والشاهدة.
الأنظمة العربية...
كلٌ يتمترس وراء قلعتة الخاضة.
كلٌ غارقٌ في حربه الخاضة.
هكذا، ليس لغرّة من يواكبها في هذه اللحظات من تاريخها غير التاريخ.

- ٢ -

"من الممكن أن تصبح مجرمًا، لذلك يجب قتلك تلافياً لهذا الإمكان": هكذا يُخاطب العربي في تلك "المدرسة" التي يديرها الفكر السياسي الأميركي - الأوروبي الإسرائيلي.
فكز يحبس العرب في قمقم أهوانه ومصالحه.
كم هي عالية هنا درجة الاستخفاف والازدراء.
بلى، لقد صار "مستقبل" العرب مرهوناً بمدى جرأتهم وقدرتهم على القول: لا! لتاريخهم السياسي كله، وبخاضة في جوانبه الماضوية، الثقافية والاجتماعية.
وفي جميع الحالات يحسن بكل عربي أن يخجل من حاضره عندما ينظر إلى وجهه في مرآة العالم الحديث، بعد أن ينظر إليه في مرآة "الجامعة العربية"، و"الأنظمة العربية".

- ٣ -

يتوافق الإرهاب كلياً مع النزوع الأمبراطوري الاستعماري الجديد، ومع رؤاه ومخططاته. وقد ابتكر قادة هذا النزوع قناعاً جذاباً للإرهاب: "الفوضى الخلاقة".

وفي ذلك ما يعني، ضمناً، أن الاستعمار هو نفسه "العمل أو النظام الخلاق".

يساعد الإرهاب في إيجاد مناطق لعدم التوازن، تُستخدم لتسويق حرب دائمة، متنقلة، متنوعة، مكشوفة حيناً، ومقنعة حيناً. الأصوليات الإسلامية تقدم المادة الحية و"التقنية" لخلق هذه الحالة على المستويين الإقليمي والعالمي. وهي اليوم الأداة الفعالة الأولى في هذا المجال. كمثل ما كانت أداة فعالة في محاربة الشيوعية. كلاً، لا تكمن أسرار المشكلات العربية في ثقافة التخلف العربي، وحدها، وإنما تكمن، أيضاً، في ثقافة "التقدم الغربي" - ثقافة تجار الطاقة، وأهل العسكرية وصناعة السلاح، والمخابرات والتجسس، والمترقة، والمتاجرين بالبشر، بيعاً وشراءً. ثقافة القضاء على الثقافة. ثقافة لقتل الإنسان.

- ٤ -

أتذكر اقرون الوسطى. أعيد قراءة بعض من فصولها. خصوصاً تلك "الربيعية". أتخيل أحداثاً. وقائع. مشاهد. أزال الرفيق، مايا الأنكا، الأزتيك. الهنود الحمر في القارة الأميركية، شمالاً وجنوباً. أتذكر وأتساءل كيف تجزأ مسيحيو ذلك الزمن، ودمروا ذلك العالم الفريد الشامخ باسم المسيح. أتذكر وأسال: ماذا فعلت في القرن الحادي والعشرين أيها "الثائر الربيعي" العربي في البلاد التي تنتمي إليها؟
ألهذه الدرجة ينحدر عبث التاريخ؟
ما أشقاك أيتها الأرض العربية!

- ٥ -

الأخذ باسم الأكثرية العددية، باسم الديمقراطية، في مجتمعات مذهبية - قبلية، كالمجتمعات العربية، إنما هو ترجمة "حديثة" للأكثرية المذهبية - القبلية. ويستحيل أن يكون للديمقراطية مكاناً في مثل هذه المجتمعات. الدين المسيس نقيض جوهرى للديمقراطية وللحريات وحقوق الإنسان.

فرض هذه "الأكثريّة العدديّة" معياراً إنّما هو شكل عميق من أشكال العنف، ضد الآخر المختلف. وهو، قبل ذلك، نقيض لإنسانية الإنسان. لا تُقاس العدالة والحرية وإنسانية الإنسان بالكمّ. الإنسان، في هذا المعيار الكميّ، هو نفسه، أيّاً كان، مجرد رقم، وليس كياناً حرّاً مستقلاً وسيّداً.

والثقافة، تبعاً لهذا المعيار، ليست ثقافة مساواة في المواطنة والحقوق. إنها ثقافة إلحاق وضمّ وتهميش ونبذ. ثقافة "إبادة" منظّمة لكل ما هو مختلف وخلاق.

هذا المعيار أساس أول لثقافة القضاء على التنوع والتعدد، للثقافة التي تتناقض، جوهريّاً، مع رغبات الإنسان وتطلّعاته الكيانية لعميقة، ومع كلّ ما هو حميم وخاص في تميّز الإنسان عن غيره من الكائنات. ما أهزل شأنك، أيها الإنسان، على هذه الأرض العربية السماوية. حتى السيف - هذه الآلة البائسة التي تقطع رأسك - أعظم شأناً منك!

- ٦ -

يبدو أنّنا، نحن العرب، نعمل، ونفكر، نخطّط، ونناضل، كما لو أنّنا نطالب القيود بأن تكون هي نفسها حريّاتنا، والسجون بأن تكون هي نفسها بيوتاً ومدارس وجامعات، والمذهبيّات بأن تكون هي نفسها القصور والسياسات، والظفيان بأن يكون هو نفسه ذروة الديمقراطية.

- ٧ -

ليس سهلاً أن تعاصر زمنك. تطرح عليك المعاصرة مهامّ كثيرة صعبة، وأسئلة كثيرة أشدّ صعوبة. معظم الناس يميلون إلى أن يعيشوا في القديم إلى جوار أسلافهم أكثر منهم إلى جوار أبنائهم.

رفض هذه المعاصرة يحوّل المجتمع العربي - الإسلامي إلى كائن ضخم خرافي يلتهم أبنائه، مجرداً إياهم من هويّاتهم وفراداتهم.

وتعلّمنا التجربة الثوريّة التاريخيّة أنّ الجوهريّ في الثورة ليس مجرد التغيير، سلطويّاً على الأخضر، وإنّما هو في تحقيق الخصوصيّة الحاسم الذي ينقل المجتمع بكامله، سيّسة وثقافة واقتصاداً، من القديم الثابت إلى الجديد المتحرك المتطوّر. والثورة، إنّما هي، في جوهرها، قطيعة: مع الماضي بوصفه بُنى ومؤسّسات أو، تحديداً بالنسبة إلى المجتمع العربي، قطيعة مع ثقافة القرون الوسطى وأسسها: الدين المُسيّس، دينية الدولة، في المقام الأوّل - الخلافة (وهي أساساً محصورة في حكم أفراد

محدودين، باسم مجموع الأمة)، وإقامة المجتمع المدني والقانون المدني
والمساواة بين المرأة والرجل.
ورفض المعاصرة يجعل العرب "يشترون" الثورة وأسلحتها، كما
يشترون الحداثة ومنجزاتها التقنية.
ورفض المعاصرة يعني غياب القانون، وهيمنة الجمود والأزمة
الماضية، وتكرار فضائنها. أن يسود الحياة كل ما هو خارج على القانون،
أمر لا اسم له غير التوحش. التوحش قضاة لا يعنى إلا بتقطيع البشر،
رؤوساً وأجساماً. وليست المجتمعات بالنسبة إليه إلا كتلاً وأكداً من
اللحم.
هلقوا أيها الجائعون!

غزة: قتال بها، أم قتال من أجلها؟

- ١ -

كلّ، لا تحارب غزة النظام الإسرائيلي وحده.
إنها تحارب فيه ومعه طغياناً أميركياً أوروبياً: متنوعاً ومدمراً ووحشياً.

تحارب كذلك أنظمة "عروبتها" و"قوميتها" و"دينها" - خصوصاً تلك التي "لا تقاتل" من أجل غزة، وإنما تقاتل بها.
غزة، اليوم، مسرح شكسبيري، ما قبل شكسبيري، وسيكون ما بعد شكسبيري، تجسيدا استباقياً للعرب والإسلام، تريخاً ورمزاً.
ولست، شخصياً، من أنصار "حماس" أو "الجهاد الإسلامي" - إيديولوجياً وسياسياً. لكن هذا أمر آخر، لا يؤثر في وقوفي إلى جانبيهما، دفاعاً عن أرضهما، البؤرة الحضارية الأولى للوحدانيات الثلاث المتصارعة، والمتآكلة، ودفاعاً عن الإنسان وحقوقه وحرياته.

في كل حال ستكون غزة الشهيدة شاهدة: حجر زاوية في التأسيس لتاريخ جديد للعالم العربي، في سياق ثقافي - سياسي جديد. وسوف يحيط بهذا الحجر شبح لا يوصف: شبح جهادستاني، من ضفاف الخليج إلى شرفات المحيط، يتربّع على بساط السلطة، ويمسك بمقاليد الحكم - سياسةً ومالاً، ثقافةً وإعلاماً.

وسوف يحيط بهذا الشبح طيف من التساؤلات بطول خمسة عشر قرناً يعتمهم هاذياً: هل ما أشهد وأسمع، وألمس، ظاهرة "انتصار" فعلاً، أم ظاهرة "انقراض"؟

كلّ، ليست فلسطين القضية الأولى، لا عربياً ولا إسلامياً. ولم تكن.
و"كل شيء من الله": كان ويكون.

تحدثت حتى الآن بلغة "الوقع"، وهي لغة "كاذبة".
سأكمل حديثي بلغة "الخيال"، ولعلها أن تكون "صادقة"، وأقول:
كلّ، بعد لم تنتصر غزة. لكنّها، وهذا هو الأكثر أهفية، أثبتت أنها قادرة على تحقيق الانتصار. لهذا أقول إن من حق هذه القدرة أن تجعل منه

انتصاراً غير إيديولوجي وغير خطابي. أن تجعل منه انتصاراً فلسطينياً، لا بالمعنى الوطني الخاض، وحده، بل أيضاً بالمعنيين: الإنساني والرمزي. وهذا يتطلب التحزّر كلياً من كلّ ما يقلّص الانتصار، ويحدّه ويقزّمه. وأوجزه في أمرين:

الأول، يتمثل في البعد عقا يشدّه إلى السير تحت راية دينية - شعارات وصوراً، أغاني وخطباً، بيانات وتعليمات، أقوالاً وممارسات. الثاني، يتمثل في الحرص الكامل على ألا يتحقّق هذا الانتصار في أفق التبعية. ليست التبعية امتهاناً وازدراءً، فقط، وإنما هي، قبل ذلك، نزغٌ لإنسانية الإنسان، ومحوٌ لهويّته.

- ٢ -

يا لهذه التجربة العربية - الإسلامية الفاجعة!
الأقلّ معرفةً هو الذي يقود المعرفة. والسيف هو الذي يوزّع الخبز. والأفق بانس: المصلحة قبل القضية، والمذهب قبل الوطن، والقبيلة قبل الإنسان.

نعم، يشارك العرب المسلمون جميعاً في حربٍ شبه كونية لتدمير أمن العرب ووجودهم دفاعاً عن أمن إسرائيل، وعن حقّها في الوجود، وتسويقاً للاستيطان الذي يعني، عملياً، الرفض القاطع لقيام دولة فلسطينية.

- ٣ -

الكلام والضمّت هما أيضاً شكلان آخران من العمل. شكلان عاليان من حيث المبدأ، لذلك لا يخلّوان من الخطر.

الكلام، وإن كان أعزّل، ينقب في بعض الحالات إلى سلاح مدفّر. والضمّت، وإن أضمر نوعاً من اللامبالاة، قد يتحوّل إلى شكل من العنف والحرب.

تاريخياً قُتل الكلام كثيراً من أصحابه. وأدى الضمّت إلى مآسٍ كبيرة، شخصية وعامة.

الكلام شكلٌ من أشكال السلطة، إضافةً إلى أنه أداة أولى من أدواتها. نقدُ الخطاب الذي تقوم عليه السلطة هو، في الوقت ذاته، نقدٌ للسلطة.

ويكمن خُطرُ الكلام، على نحوٍ أخص، في كونه يعطي شكلاً للصوت،
للرغبة، للالتزام الوجودي والحياتي. إنه المكان الذي تقيم فيه حقيقتنا.
هكذا يقدم لمن يحاربنا أسباب قتلنا أو نفينا أو سجننا، أو عدائنا على
الأقل.

يزداد خطرُ الكلام تعقيداً في المجتمعات غير المدنية، تلك التي لا
تخضع لحكم القانون. فهذه مجتمعات طغيانية، والزقابة فيها جزء لا
يتجزأ من الحياة والثقافة. ويكاد كل فرد فيها أن يكون طاغية في ميدانه،
بطبيعة تكوينه الثقافي. وتكاد الحياة فيها أن تكون ميداناً للعنف.

- ٤ -

"اقرأ": بداية تتضمن قول الحياة، وتسمية اوجود وأشياءه. لكن كيف
"نقرأ"، ومن أين لنا أن "نقرأ"، في مجتمعات تُبطل حزية القراءة وحزية
القول؟ مجتمعات لا كلام لها خارج طقوسها. والطقوس لفظ ولغو، لا لغة
فيها ولا كلام، ولا ثقافة لها. وقبل كل شيء، ماذا نقرأ؟

- ٥ -

يتكلم الإنسان لكي يُبدع، خارج لطقوس والعادات والتقاليد، فيما يخترقها
ويتخطاها. ليس الإنسان بنراً أو وادياً لترجيع الأضواء. الإنسان ذروة
الكائنات. يُفترض، إذاً، أن يجسد في قوله وفكره الكلام واللغة في أعلى
ذرواتهم. هكذا لا يكتمل وجود الإنسان إلا بكمال حزيته في التعبير.
الكلام العربي، اليوم، ضوّر أخرى لسجون أخرى. كمثل الصمت العربي.

- ٦ -

الإنسان، كل إنسان، يريد دائماً مزيداً من الحزية، تطابقاً مع الوجود،
بوصفه مشروعاً منفتحاً. يريد أن يتحرك دائماً في فضاء أكثر اتساعاً، وأن
يصل ما عرفه وألفه بكل ما لم يعرفه ولم يألّفه. أن يتخلص من جميع
العوائق، ومن جميع الإكراهات.

صار السؤال عن الدمار والنهب والقتل في البلدان العربية نافلاً، فهو خبر يومي.

السؤال الأساس، اليوم، هو التالي:

من العرب، اليوم، إنسانياً وأخلاقياً وحضارياً؟

وهذا الذي حدث ويحدث في البلدان العربية والإسلامية، باسم الإسلام أو في إطاره، منذ بدايات هذا القرن، هل هو فعلاً "تحزّر" إسلامي؟ هل هو "إنسانية" إسلامية؟ هل هو "ثقافة" إسلامية؟

نعم، لا مقرّر للمسلمين المعاصرين، وبخاصة أهل الثقافة، من أن يقرأوا الإسلام قراءة جديدة في ضوء الحروب التي يخوضها المسلمون. اللهم، إلا إذا كانت "أقلام" هؤلاء "بايغت" أمراء هذه الحروب مبايعة نهائية وشاملة، وانحنت صامتة خاشعة أمام سيوفهم وبقية الأسلحة المظفرة.

غزة: أنفاقها وأفاقها

- ١ -

النقطة الجوهرية. في ضوء غزة، هي "قيامه" فلسطين وإقامتها: الكيان القانوني (الدولة)، والهوية السيدة الحرة، المستقلة.
دون ذلك، لا معنى لأية مفاوضات مع إسرائيل. ولن تكون "اتجربة"
الأخيرة إلا تنويعاً دورياً على "قتل" فلسطين وبعثرة أشلائها في العالم
"الفضيف"، وفي "الخيام" المتناثرة هنا وهناك، وفي "الكب"، و"آلات"
الإعلام - تصويراً، وأغاني، وخطباً، وقصائد، ومظاهرات، واحتجاجات،
ومؤتمرات، وبيانات...

- ٢ -

أنظر إلى ابنائك، يا آدم، نظرة أخيرة قبل أن تقتلهم، قبل أن "تأكلهم"، قبل
أن تحرقهم"، واقرأ سفر أيوب. واقرأ أسطورة ميديا (Médée).
آدم، هل سمعت اللغة التي كانت تتكلم بها أشجار غزة وأزهارها
ونباتاتها، فيما كانت تنوح على الأطفال الذين تحرقهم الصواريخ والقنابل،
وتحترق بهم؟
وبأية لغة كانت تتكلم؟

- ٣ -

لماذا يمكن، اليوم، أن يُوظف العمل الجرمي لخدمة الخير؟
لماذا يمكن، اليوم، أن تُوظف المعرفة لتعميم الجهل؟
لماذا يمكن، اليوم، أن تُوظف الحياة لممارسة الموت؟
لماذا يمكن، اليوم، أن تُسوّغ وأن تُجفّل وأن تُقدّس أعمال العنف،
والاغتصاب، والقتل، والذبح، والنحر، والنهب... إلخ، إلخ؟
لماذا تُصبح أكثر الأعمال انحطاطاً عناوين للأخلاق الرفيعة؟
لماذا يمكن، اليوم، لاتعاء بأن الذين يمكن أن يُخدم باقتراف الكبار؟

في إسرائيل قادة "فكر" و"سلاح" يدعون إلى قتل الآخر (العدو أو من يعذونه عدواً). وهو قتل ليس مجزء حاجة عسكرية أو استراتيجية. إنه أكثر من ذلك.

فهؤلاء لا يشعرون أن إسرائيل آمنة إلا بالقضاء على هذا العدو، بشكل أو بآخر. الهيمنة عليه شكل من أشكال هذا القضاء. وقد يشيعون، أحياناً، أنها، على العكس، في حاجة إلى الإبقاء عليه إزاءها - لكي تتمرأ فيه - أو لكي تلعب وتعبت لنفسها وللعالم أنها في موقع المنتصر المهيمن. هل يعلم هؤلاء "القادة" أنهم لا يقتلون الشعب الفلسطيني وحده، وإنما يقتلون كذلك الشعب اليهودي - إنسانياً ومعنوياً؟

- لماذا تحوّل، في الأسطورة اليونانية، أكتيون (Actéon) إلى وحش؟
- "لأنه لم يخف من الألوهة، ولم يرتعب أمامها"، تجيب الأسطورة نفسها.

غزة...

أبعد من أن تكون خبراً أو رواية أو ريبورتاجاً أو صورة فوتوغرافية، أو خطبة، أو منبراً، أو مؤتمراً.
إنها ثقافة وتاريخ. أشلاء بشر يتموجون في الغبار الذي يتصاعد منها ومن أنقاضها. إنها رموز ومنجزات تُدمر. تُضاف إلى إبادة التنوع الثقافي الذي يملأ الحوض المتوسطي الشرقي، منذ آدم وحواء. إنها لحظة التحوّل - والاندرج في موج انقراض آخر، يرسم وجهاً آخر لهذا الحوض. حوض خصب.

البويضات التي تضج فيه، وتعمره، تتدحرج من أنحاء الأرض كلها، شمالاً جنوباً شرقاً غرباً.

إنها لحظة القبر الهل الذي فُتح منذ قرون ولا يزال مفتوحاً. وهي، إلى هذا كله، لحظة الموت اليقظ، الموت الحي.

المطبخ أميركي - أوروبّي!
له طقوسه وأناشيده. له موائده وضيوفه.
مطبخ لا يقدم إلا اللحم الحي. ولكم أن تتصوّروا أشكاله، وصحونه،
والملاعق والسكاكين وما تبقى.
"المائدة خُب"، يقول بعضهم - من الضيوف.
"الحبيب، كمثل السمكة، لا يساوي شيئاً إذا لم يكن طازجاً: طرياً ندياً،
غضّاً!" يقول ضيوف آخرون.
إنذا عليكم بصيد الأطفال!

خوفاً من الموت،
يتدافع البشر هاربين إلى نوع آخر من الموت.

يرقدون تحت غبار أنقاضهم. تحيط بهم الجثث، كمثل الأسوار.
الموت مقيم في كل شيء. وقبل كل شيء في اللغة - في الرأس
واللسان، في الأقدام والطرق، في الرئة والهواء.
لا تأمل الحياة من الأشياء التي تعرف الموت أو تلك الأشياء الخالدة.
"الإنسان مجرّد زمل وظل" يقول الموت، ويتابع غاضباً: "يجب أن
أبحث عن شيء آخر!"
ثم يهدأ ويتابع خطابه:
"عش أيها المُسقى إنساناً، عش هادئاً، بطيئاً، حزيناً، ودائماً على ضقة
اليأس.
لا تكن مغفلاً. حاذر من أن يخدعك أحد يشبهك.
لا تثق في العقل، وكن واقعياً: احتقر الواقع.
التقدّم هو دائماً إلى الوراء. لا يتقدّم إلى الأمام إلا الطُفلة
والمتوخشون، والشعراء الضالّون.
الزمن يهرم هو أيضاً.

أرهقته بين سيوف البشر، سيوف العرب خصوصاً.
نعم، لا يتقدم إلا القبيح وإلا الزعج،
واقتل نفسك باسم الدفاع عنها،
و"الفاجعة هي وحدها العرش الدائم".

- ١٠ -

في الأسطورة أن الملك بانتيه (Penthée) مزقته أمه وصديقاته
الفاجرات. عزينه، وقطفنه، وأكلن لحمه نيئاً.
كيف تحولت هذه الأسطورة عند بعض العرب إلى حقيقة؟ من نساء؟
هل الأرض تدور حول نفسها فيما تأكل أولادها الذين جبلتهم من
طينها؟

- ١١ -

الفاجرة؟
إنها هي أيضاً تجيء من الفجر!

- ١٢ -

الذمار "يعلن حقوقه" في مدن العرب - في بغداد، في حلب وحمص، في
غزة، في ليبيا، في اليمن... إلخ. لكنه، هذه المرة، دمار البراكين الطالعة من
أحشاء البشر، لا تلك الطالعة من أحشاء الطبيعة. دمار يفتح هذه المدن،
من جديد، على هاوية التاريخ.
اللهب الأكل في براكين الطبيعة يصعد هابطاً من اخذرات والأعالي.
اللهب الأكل في براكين البشر يجيء من الأغوار والقيعان والأسافل.
غالباً تُزئزئ جبال البراكين كروم العنب، والأشجار، والنباتات. أما براكين
البشر فتزئزئها، غالباً، الأحقاد والضغائن ومختلف أنواع التوخش.
براكين الطبيعة تنطفئ،
براكين البشر تزداد اشتعالاً.

فاض الكذب.

نحتاج إلى فيض من المؤرخين يؤرخون أيضاً وأيضاً لهذا الكذب.

- اسأل إن كنت قادراً. إن كنت شجاعاً. لا حقيقة إلا في السؤال.

- ما التفاحات الثلاث التي غيرت وجه العالم؟

- تفاحة آدم!

- والثانية؟

- ...

- تفاحة نيوتن!

- والثالثة؟

- ...

- تفاحة ستيف جوبز.

ولا تنس أنه ينحدر من أصل سوري!

ولا تنس أيضاً أن الأب، هذه المرة، هو الذي رفض ابنه!

من أين يجيء هذا القاتل؟

كيف يجيء؟

وكيف يمكن أن تتسع الأرض لخطواته؟

قاتل لا معنى عنده للإنسان، ولا قيمة له.

قاتل هو نفسه آلهة ماحية.

الأرض عنده فراغ، مجزء جسر للعبور إلى السماء. والسماء عنده ليست

أكثر من دار عالية للضيافة.

الحلم؟

أعمق ما في الحياة الحلم. لسبب أساس: لا أحد يقدر أن يشارك أحداً في أحلامه.

الحلم بيت يسكنه شخص واحد.

احلم، احلم...

(ما يحدث باسم الإسلام في العراق وسورية ولا سيما في سنجار وقراقوش والموصل، خصوصاً ما يواجهه المواطنون غير المسلمين، أو من يُطلق عليهم اسم الأقليات (وهي تسمية كريهة تحمل في ذاتها التمييز والازدراء، ويجب الامتناع عن استخدامها)، أقول إن هذا الذي يحدث عازٍ لا على المسلمين وحدهم، وإنما يصم كذلك تاريخ الإنسان الحديث.

ينبغي أن نترخم على جنكيز خان وهولاكو وبقية الطغاة قبلهما وبعدهم. كانوا، على بدائيتهم ووحشيتهم، أكثر إنسانية وأصدق إسلاماً من الطغاة الجدد في القرن الحادي والعشرين. إن ما يحدث هو أفظع ما لحق بالإسلام في تاريخه كله. أيها المسلمون، كيف لا تصرخون ضد هذا الامتهان؟)

احلم، احلم...

انفجَارُ في رئة المعنى

- ١ -

لم ينته القاتل. يقطفُ الرؤوس ويكذسها في شاحنة، في حفرة، في شارع،
في مدبٍ كأنها في نظره مدبٌ من طينٍ عتيقٍ فأنضٍ يسبح فيه المرضى
والأطباء والموتى.

إنها أرضنا العربية: تجعيذٌ كبيرٌ في وجه الكون.

(فاصلة)

أقول لجسمي أن يلتفت إلي. أسأله: من يحتلك، إذا؟ أو من يعتقلك؟
لا يرد. كأنه لا يُصغي.
هل "أنا" فريسةُ النخن؟
هل "النخن" عجيبةٌ في يد الغيب؟ أم رهينةٌ لرياح المصادفات؟
كيف تتكوّن المصادفات؟

- ٢ -

لم ينته القاتل.
خيامٌ تتبعثر،
كلمات، حُطَب، رسائلٌ تتدحرج كمثل دباباتٍ تسير بدفعٍ ذاتي لكن
بإرادة الغيب.
الأمكنة والأزمدة حساءٌ ضخّم من المعادن.
وكيف يمكنُ إنساناً أن يناضل من أجل أن يعيش كمثل كرة تتدحرج
بين الأقدام؟
ما أغريك أيها الإنسان!

(فاصلة)

الثقافة فتاتٌ يتنافس ثفلُ الحروب في التقاطه والتهامه.

تُذَبِّحُ اللُّغَةُ هِيَ أَيْضاً.
يُمْكِنُ أَنْ نَمْحُوَ مَا كُتِبَ عَلَى الْوَرَقِ، لَكِنْ كَيْفَ نَسَاعِدُ الْوَرَقَ نَفْسَهُ لِكَيْ
يَفْتَسِلَ مِنْ أَثَارِ الْجَبْرِ وَمِنْ رَوَاسِي الْكِتَابَةِ؟

لهذا الذي يُسْقَى اللّاشيء في بلاد العرب شكّل فضاء لم يُشَخَّ بعد لأي
كوكب يهذه النعاش أن يتمدد في سريره.
إنه الدهر الذي ارتسفت على خطواته خطوات المعزي.
يتأضل في الدهر يأس أسفه الدهر.
معك الحق، يا أبا العلاء.

— ٣ —

لم ينثه القاتل.
يكتب سيرة لم تكتمل. (هل تكتمل؟)
يحك جلدة الأرض بأكثر الشفرات خشونة وبدائية.
علماً أن البدائية مرحلة متقدمة على ما سبقها. كانت في سلم التطور
لحظة وعي.
وهذا القاتل يمثل مرحلة متخلفة عما سبقها. هي في سلم التطور
لحظة انحدار.

(فاصلة)

على ضفاف شفتي مراكب تحظمت، وأخرى تحاول أن تُبحر.
أرضي التي جنت منها ليست على الأرض.
في مائها عطش. والظلام نفسه هو قنديلها.
حتى الأب في هذه الأرض لا يحب أن يرسم وجه طفله إلا على الماء.
الحجر فيها يخاف،
والشجر يتعلم كيف تتجنب الرياح.
وما أكثر الشعراء الذين يريدون أن ينسوا حتى اللغة التي يتكلمون بها.
من قال لك أن تنحدر من هذه الشلالة، أيها الواقع الشيخ؟
رأسك يتخبط، يتقنب في مرجلي ضخيم من الكلام.

اقرأ. ماذا تستطيع أن تقرأ؟

- ٤ -

لم ينته القاتل.

لا يزال يلقي على كتفيه منديل التاريخ.
يجمع الأيدي والرؤوس ويصنع منها عقوداً لأعناق نساء شباهن.
الماوراء في فخ قريد صنعتها الأرض لا على مثال.
الغياب ذروة الحضور.
وها هي أجسام لا أصحاب لها ترقص على إيقاعات أيام تتقطر دماً.
وما هذا التاريخ الذي يلتف حول العنق حبلاً أسود، كأنما لا نهاية له؟

(فاصلة)

قلت: "ضحوة"؟ أليس من الأرجح والأصح أن تقول: "غفوة"؟
- "الغفوة الدينية"، مثلاً، في الماضي، قبل الأديان الوحدانية، أدت إلى
عبثية إنسانية أدت بدورها إلى فوضى التدمير والقتل. هكذا جاءت الرؤية
الدينية الوحدانية، لكي تؤسس للخروج من تلك "الغفوة" إلى "الضحوة".
- لكن، ماذا فعلت "ليقظة" أو ما سمي "الضحوة الدينية" في
الحاضر؟ ألم تؤد، هي كذلك، عملياً، إلى فوضى التدمير و لقتل؟
"غياب" الذين في الحالة الأولى جزد الإنسان من إنسانيته. فجاءت
الوحدانية لتردها إليه.
لكن استغلال "حضوره" في الحالة الثانية جزد، هو كذلك، الإنسان من
إنسانيته، بطريقة أو بأخرى.
ما الفرق؟ وأين، إذا، تكمن المشكلة؟
أنت أيها الشاعر، يا جيولوجي العصور، هل تقدر أن تقول لنا في ضوء
"الغفوة" و "الضحوة" - أين نرى الضوء، وأين نمضي؟

- ٥ -

لم ينته القاتل.

يكاد كل شيء أن يذوب غمياناً.

ونعرف، أيتها الأرض، كيف ابتدأت. لكن، من يعرف كيف ستنتهي؟
هل علينا أن نُخرجك من سياج عواطفنا لكي نُحسن فهمك والنظر
إليك؟

إنه الذمُّ يواصلُ كتابة التاريخ،
إنه العبثُ انفجارٌ متواصلٌ في رئة المعنى.
فمن أنت وما أنت أيتها الأرض التي تُحولُ السماء دون رؤيتها، وتحولُ
سماؤها دون رؤية السماء؟

(فاصلة)

- لم يتغير شيء. ازدادَ البطش. اللغة نفسها ازدادت فراغاً وعبثاً. صار
الغنى، غنى اليد واللسان، قيمةً أولى. صار القتلُ منارةً وطريقاً.
- وماذا يربح العرب في هذا كله؟
- كثيراً. كثيراً جداً: هذر المال والثروات. تشويه صورة الإسلام.
وصورة الإنسان والتاريخ. تعزيز كل ما يُفقرُ البشر ويذلهم. والتأسيس لعلم
اقتصادي جديد أسقيه "اقتصاد الاستهلاك الديني".
- أهو تاريخ "يُكتب" بيد قذر "مكتوب" سلفاً؟
- أياً يكن الجواب فهو لا يُقرأ إلا بعين السلطة.
- هكذا يعيش العربي بين تلك اليد وهذه العين سجيناً وسجناً في
جسم واحد.

- ٦ -

لم ينته القاتل.
كلُّ فضاءٍ يناديه. كلُّ أفقٍ يستحثُّه ويفتح له ذراعيه.
القاتل؟ ثوب، مجزء ثوب. العين تثقب فيه. والأنف خيظ. والزأش كُم.
والقلب زُر؛ زُر بلاستيكي.
كيف يكون هذا الثوب شاهداً، والخديعة فيه أصل؟

(فاصلة)

– هل تذكر، الآن، الشاعر البريطاني كيبليغ الذي قال: "الشرق شرقي والغرب غرب ولن يلتقيا"؟
"... إلا في الحروب فتكاً، قتلاً، وتدميراً": هكذا علينا أن نكمل القول! لم ينته اقاتل.

IV

حول جبهة مدنية عربية

- ١ -

بدأت التناقضات في البلدان العربية تتصارع خارج اللغة. عملياً - في ميادين التحرير: في ساحات المدن، وشوارعها، وجامعاتها. عاز على السلطة في هذا الصراع أن تلجأ إلى الغف المسلح، إلى الذخيرة الحية والقتل، ضد بشر لا سلاح لهم غير أصواتهم، غير أجسامهم، غير قلوبهم وعقولهم.

عاز إنساني وتاريخي.

في هذه التناقضات مفترق عظيم - انتظار لحقيقة آتية، لا ريب: السلطة العربية، بمفهومها التقليدي، السائد، تُحتضر. وها هي تتخبط منحدره إلى ذك الموت. الذك الذي بدأت بحفره، عميقاً، ميادين التحرير في تونس ومصر.

وها هي الغفوية التي حرّكت الجمود تُحوّل إلى إرادة مدنية لبناء حياة عربية جديدة؛ حياة تنهض على حرية العقل والجسم معاً في غزوة واحدة لا تنفصم.

- ٢ -

في رأس كل طاغية أرنب يلقنه كل يوم: كيف يزتدي ثياب الجبن، وكيف يتهيا للهرب.

- ٣ -

يجلس التاريخ مع صانعيه، إناثاً وذكوراً، في ميادين التحرير العربية. يقول لهم: كان أهل السلطة يسجنونكم وتحتمون بهم. وكانوا ينهبونكم وتباركونهم. وكانوا يقتلونكم وتدافعون عنهم. مع ذلك، يمكن أن تعيدوا تكوين بلدانكم التي تضطرب، مُنهكة، حائرة. وكانوا يقولون له: أنت أيضاً تُضطرب، أيها التاريخ.

عندما يموت "الفاعل" في لغة الكتابة، تموت الكتابة: يموت التاريخ.
أن نكتب، إذا، هو أن نبتكر إقاحاً للكلمات يشفيها من أمراضها الكثيرة
التي "زُرعتها" فيها السجون الكثيرة، ماضياً وحاضراً.
وأن نقراً، إذا، هو أن نختل بالتغير، كل لحظة، في كل فكرة، في كل
جملة، في كل كلمة.

أنت، كيفما كنت، اثنان:
ذاتك،
والآخر الذي فيك.
والإنسان لا يُصبح اثنين - كائناً كاملاً، متكاملأً،
إلا إذا كان، بذلياً، واحداً.
ولا يكون، بذلياً، واحداً، إلا بالحرية وفي الحرية.
الجفع، دون حرية، قطع.
هكذا، للإنسان اسمان،
واحد في سجل التكوين: المخلوق الخلاق،
وآخر في سجل التاريخ: المتغير الفغير.

تبدو ميادين التحرير في لبلدان العربية كأنها كُتبت تُكتب في انبثاقات
وإشراقات، في شذرات ومقاطع.
لكن، لا بأس ولا يأس.
أن نفصح بهذه الظلقة يعني أننا نجدد مواقفنا ونُتجدد. يعني كذلك
أننا تُفاجئ ونبتكر، نهجم ونقتحم.

كثيراً، يُخيّل إلي أنني أرى في ميادين التحرير العربي آباءً عظماء،
يطوفون بين الناس، ويشاهدون الأبناء كيف يُسرجون أفراس المستقبل.

- ١ -

"الخراب": تلك هي الكلمة الأكثر قدرة على وصف الحالة الراهنة في العالم العربي. غير أنه ليس "الخراب الجميل" الذي تمثيئه في قصيدة "مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف" في سنة ١٩٧١. ذلك أن هذا الخراب لا يؤسس لتحرير الإنسان من مختلف العبوديات، وإنما يغامر، على العكس، بالتأسيس لعبوديات أخرى أشدّ هولاً.

إنه خراب يُعلم الإنسان قتل الإنسان: قتله مباشرة، أو بالتخطيط، أو بالشورى، أو بالديموقراطية، أو بالثورة، أو بالنظام.

ومن أجل تغطية هذا القتل بحريز الإيمان والطمأنينة، يتم تسييس الدين وتدين السياسة على نحو قد لا نجد له مثيلاً في التاريخ كله، يمحو إنسانية الإنسان محوً لا يباه إلى مجزء آلة.

إنها ديكراتية جديدة، وكوجيتو جديد:

"هل أنا مؤمن؟ إذا، يجب أن أريد من يخالفني ومن لا يحالفني، وأن أستأصل كل ما يمت إليه بأية صلة".

- ٢ -

الشخص الذي يصدر في أفكاره وأعماله عن مثل هذا الاعتقاد لا يعود هو نفسه إنساناً، كممثل البشر الآخرين العاديين. يصبح هو نفسه، داخل نفسه، "صنماً" أو "وثناً" يتعبد أهواءه، ونوازعه. يصبح هو نفسه المشزّع، ويصبح غاية نفسه. وليست شهوة المال والتملك هي وحدها التي تولد هذا التصنيف أو هذا التوثين. وليست فكرة الغلبة أو الانتصر على العدو هي وحدها التي تكمن وراء ذلك.

يكن وراء ذلك نهم يتجاوز الطبيعة؛ نهم مما وراءها، يجعل صاحبه غير قادر على الاكتفاء بالتهام الأشياء المادية التي لا روح فيها، وقذفها في أتون نهم آخر: التهام "الروح"، التهام الإنسان نفسه - بوصفه طبيعة تكتنز "قوة" مما وراء الطبيعة.

يذكرنا هذا الوضع بالإنسان البدائي أكل الإنسان - نظيره وشبيهه. كان يعتقد أنه إذا أكل "قلب" عدوه مثلاً، يغيبه إلى الأبد، انتقاماً وتشقياً، أو يمتلك ما فيه من خصائص البطولة.

نقتل للقتل. أياً كان المقتول، طفلاً أو شيخاً بريئاً أو لا مبالياً. لا فرق. المهم هو القتل في ذاته لذاته. "السيارة المفخخة" في شارع، أو في مسجد، أو في عريس، "أسطورة" من الأساطير التي تُكتب باسم الثورة. من يحزم نفسه بالعبوة الناسفة لكي ينسف الآخرين "أسطورة" أخرى. هكذا يُخلق مخيال جديد للفضاعات، وطرق "إبداعية" جديدة في القتل والتدمير. وفي النتيجة، قلب القيم الدينية والإنسانية رأساً على عقب. وتلك هي حياتنا اليومية - ثقافياً وإعلامياً: ليست ميادين حية لافتراس بعضنا بعضاً، أفراداً وجماعات، افتراءً، وأباطيل، واتهامات، وتشنيعات، تشهد على الذناء والانحطاط والانسانية عند أولئك الذين "يفبركونها" وعند أولئك الذين يروجون لها.

الإنسان الذي يصدر في أفكاره وأعماله عن مثل هذا الاعتقاد، يحول العالم إلى مرآة: ينظر فيها، لا يرى إلا وجهه، وإلا نفسه. لا يرى إلا من يشاركونه إيمانه وأفكاره وأعماله. يصبح هو نفسه، في نظر نفسه، ممثلاً "شرعياً" وحيداً، لا للشعب وحده، وإنما أيضاً للدين وللثورة (أو للنظام، في الوجه الآخر من الميدالية). وإذا أصبح مشروعة إبادة كل ما لا يقف إلى جانبه، وكل من لا يسانده.

والمفارقة أن هذه الحالة تُوهم صاحبها بأنه هو الموجود الوحيد. في حين أنه، وجودياً، عاجز وقاصر. ذلك أنه يتحرك بقوة آخر وراءه. وأنه، عملياً، ليس إلا دمية. إنه قاتل لكنه، في الوقت نفسه، منعدم الوجود في ذاته. وجوده قائم بالآخر، مازياً وثقافياً. "الآخر" هو الذي يصنع "الثورة" و"النظام" معاً. حين يغيب هذا الآخر، يغيب هو، ويتبخّر، كأنه لم يكن. حياته قائمة بغيره، لأنها قائمة على شهوة الفلك والسلطة. إنه، تحديداً، عاجز عن الوجود في ذاته: الارتباط بالآخر الأجنبي حجاب على الوجود الذاتي والوطني.

يحتاج هذا كله إلى السيطرة على الكلام. إلى احتلال الفضاء الرمزي، لغوياً، فضاء الوسط الإنساني. وهو احتلال "يحزر"، ويا للمفارقة، ما كان مكسوتاً، أو سجيناً: لا الكراهية، لا الضغينة، لا الإلغاء والإقصاء، وحدها، بل كذلك ما يفصح عنها: المذاهب الدينية والإثنية، إضافةً إلى تهم الكفر والزندقة والخيانة والعمالة وغيرها.

وفي هذا "الاحتلال"، يغذي الفرد شعوره بكيئونه السياسية والاجتماعية، والتاريخية. وبقدر ما تتم السيطرة على الكلام، وتوسع حدودها، يتاح للإنسان أن يفتح شقوقاً في التناغم القائم على السطح. ويتأكد لكل ذي بصيرة أن الواقع ليس أبداً القول الشائع عنه: الواقع محجب. الواقع كذب.

رفض النظام للثورة، رفض الثورة للنظام، في "المجتمعات العربية" - متلازمان عضويًا مع نزعة القار. لا يعود أي من الأطراف يعرف إلا شيئاً واحداً: ضرورة الهدم، هدم المنظومة التي تحاربه، أو تسجنه، والقضاء عليها، بأية طريقة، ومهما كان الثمن. يوضع هذا الهدم في المرتبة الأولى من الاهتمام. وكل طرف يلقي المسؤولية على الآخر. وبدلاً من أن يكون متهما، يتحول إلى متهمة. كل طرف "ثورة" تناقض الثورة، أو "نظم" يناقض النظام. لا تعني له مصلح الناس، أو القيم والأخلاق، أي شيء. وفي ذلك يُشعَى هو نفسه ديكتاتوريةً تقابل تلك التي يحاربها، محاولاً التحزُّر منها. ديكتاتورية الإلغاء الكامل والتفرد المطلق واحتكار الحق في الكلام والقرار.

"الثورة" في مثل هذا المناخ "الثقافي"، كمثل "النظام"، لا تكون إلا استبداداً آخر. وهو ما درجنا عليه في تاريخنا كله: لا نستأصل الداء بدوائه، وإنما نغيره بداء آخر.

مسرح هي الحياة العربية، اليوم: "مسرح قسوة" ورعب في آن. بينهما
فرخ خفيف وعابز؛ فرخ الأمل بالتغيير. أما القسوة، فلأن البطولة على هذا
المسرح تتمثل في القتل ولهزم. وأما الزعب، فلأن طرق القتل والهزم لا
تميز بين حدود "الثورة" وحدود "الجريمة"، ولأن الخطاب الذي يرافق
العمل يتأصل في مرجعية هي نفسها المشكلة، سواء كانت "قومية" أو
"دينية": الأولى إقصائية حتى الاستبدادية والاحتكارية، والثانية إقصائية،
أيضاً، حتى التكفير والبهذ.

قراءة حزب "البعث العربي" للواقع العربي، وبخاصة في العراق
وسورية، قراءة شبه دينية، تراثياً. وقد هيمنت حوالى نصف قرن. وقراءة
المتدينين لهذا الواقع شبه بعثية، إيديولوجياً. الموجه المهيمن يتمثل في
البنية العقلية الماضوية، وهي، في جوهرها، ذات طبيعة دينية.

الماضوية هنا وهناك، في الحالين، أساس التفكير والعمل. والصراع
الدئر اليوم هو في عمقه صراع على السلطة، على تغيير السلطة، وليس
على تغيير هذه العقلية، أي على تغيير المجتمع ذاته - ثقافة ومؤسسات.
لا النظام العربي القائم نظام مواطنة، نظام مساواة وعدالة وحرية، ولا
الثورة عليه ثورة مواطنة ومساواة وعدالة وحرية، لأنها ثورة تتكلم،
عمقياً، بلغة النظام.

الثورة أفق آخر، لا يزال مغلقاً أمام العرب. والعصر الذي نعيش فيه هو
عصر ما مضى. ويبدو أن ثقافة هذا الماضي، ثقافتنا السائدة في بيوتنا
وحياتنا اليومية، في مدارسنا وجامعاتنا، وفي مؤسساتنا، تعلمنا أننا قوم لا
نفكر، بل "يفكر" عنا، ولا نتحرك بل "نحرك"، ولا نبني، بل "نبني".

بلى، الثورة أفق آخر لا يزال مغلقاً أمام العرب. هل يفتحه ما يحدث
الآن في تونس؟ هل يفتحه ما يحدث الآن في مصر؟ هل يفتحه ما يحدث
الآن في اليمن وفي البحرين؟

وفي هذا المضمار، كان يمكن أن تكون سورية سباقاً: أن تكون نموذجاً
فريداً، ورائدة عظيمة.

من جديد، تطرح أحداث غزوة والأحداث العربية كلها، وبخاضة تلك التي يعيشها العراق، مسألة الالتزام في الشعر، ومسألة العلاقة بين الشاعر و"الجمهور".

أحترم الآراء التي يقول بها أنصار الالتزام، شعراء ونقاداً وقراء، غير أنني أختلف معهم على أكثر من صعيد.

الموت الذي يدب على الأرض العربية، بأشكاله الوحشية، العديدة المتنوعة، أخطر وأعمق وأوسع من أن نتحدث عنه أو "نحاربه"، راكبين عربات من الكلام، عرجاء ومتهافتة.

لغة الكتابة، هي أيضاً، نضالها، وحروبها الخاصة: عذابها في مواجهة الواقع، وحيرتها، وقلقها، وكيف ترى، وكيف تُعبر.

إن مدناً تُهدم بيتاً بيتاً، وشارعاً شارعاً، وبشراً يُحزقون أو يُقَطَّعون إزباً إزباً، بعد أن تُقَطَّع رؤوسهم، وجموعاً تُحَقَّر وتُساق كمثل القطعان، لا يمكن أن يُكْتَب عنها بلغة آمنة مطمئنة و"عاقية". فهذا واقع يحتاج إلى لغة "مجنونة" تتخطى الوقائع إلى ما وراءها، إلى ما قبلها وما بعدها، وإلى ما تحتها وما فوقها. كتابة تُغيِّر نقاط الارتكاز. تخلق حركية تُغيِّر مواقع "الأبجديات"، و"الأبواب" و"النوافذ".

ليس هناك مكان غريب أليّف معاً كمثل المكان الذي توفّره اللغة وهو "القصيدة". عندما تكون القصيدة مكاناً إلفاً فقط، تموت الشعرية واللغة، ويموت المكان.

أدب الالتزام اسياسي - الإيديولوجي، كما هو شائع عندنا نحن العرب، لا يُمِث اللغة والشعر وحدهما، وإنما يطمس أيضاً معنى الزمان والمكان، ويطمس كذلك لهب "القضية" - حضوراً خلاقاً، وفعلاً مغيّراً.

التقاليد الكتابية، الوصفية - "مذحاً" و"هجاءً"، و"رثاءً" و"فخرأً"، والتي عشنا وربينا فيها وعليها، فقدت معدها كياً.

الأفكار والفلسفات التي ورثناها لم يغذ لها أي مكان في حياتنا العملية أو النظرية.

إننا في الدرجة الصفر.

ومن هنا علينا أن نبدأ.

كل كتابة حقيقية في أي مجتمع تصدر عن رؤية نقدية عميقة تُزلزل أسس الطغيان فيه، وأسس العبودية. النضال ضد "الخارج" يفترض ويقتضي الحزية في "الداخل". "الداخل" المليء بالعبوديات من كل نوع، يناضل عبثاً ضد "الخارج". على العكس، قد ينقلب نضاله ضده. قد يكون غوياً كبيراً لذلك "الخارج".

يحب أن يضحك بعد أن يأخذ قسطه من البكاء.
يسأل نفسه دائماً: "بين لغتي ولا شعوري جسر ضيق، ولا أستطيع أن أسير عليه إلا بحذر شديد. وفي لحظات شبه سريّة. ماذا يعني، إذاً، هذا الجسر؟".
غالباً، يتابع قنلاً في ذات نفسه: "اللا شعور شأن فردي وليس جفعية. اللغة، على العكس، جفعية. وبقدر ما يفصح الإنسان عن لاشعوره، يجرد اللغة من هذه الصفة الجمعية. كأنه يجردها من خصوصية التواصل". ثم يتنهّد متسائلاً: "أين أجد نفسي، إذاً؟ في اللغة، في المشترك العام، أم في اللا شعور، في الفردي الخاضع؟".

- تتحدث دائماً عن تآلف الأشياء المتباينة، أو عن ائتلاف المختلف. كيف؟
- كل شيء هو، في آن، نفسه وغيّزها. والعالم يتجدد دائماً باستخلاص تناقضاته، ووضعها في تركيب جديد تتولد عنه صور جديدة للعالم، وأبعاد جديدة.
وجوهز الإنسان صراع متواصل بين ما أنجزه وما يرغب في إنجازه. فهو مختلف مؤلف في حركية دائمة.

لكن، لكن،

ما السز في أن سلطة النص
هي دائماً في قبضة الطغاة؟

- ١ -

هل بدأت السلطة العربية تنتبه إلى حركية الحياة، ومعنى التغير، وإلى حقوق الفرد العربي، مواطناً وإنساناً؟

اعتراف هذه السلطة بقوار ليبيا، على الرغم من جميع الملاحظات الخاصة بنظامها، والخاصة بمن اعترف دون تحفظ، أو اعترف متحفظاً، إنما هو إشارة أولى. بل يمكن وصفه، في إطار التاريخ السياسي العربي، بأنه خطوة تاريخية.

حين تعترف السلطة بحق التمرد، فذلك يعني اعترافاً مُزدوجاً: بأخطائها، وواجبها في أن تُعيد النظر باستمرار في نفسها، نظراً وممارسة، من جهة، وبحق معارضتها في التمرد عليها، دفاعاً عن حقوقهم، وانتصاراً لمكانة بلادهم وكرامتها، إنسانياً وسياسياً، بين بلدان العالم.

- ٢ -

حاكم يرفضه شعبه: ما تكون قيمة هذا الحاكم إذا انتصر على شعبه بضرب الأعناق، كما كان يحدث سابقاً في الماضي، أو إذا انتصر عليه بمرتزقيه المجيشين، ودباباته، وقاذفات قنابله، كما يحدث الآن؟
ألن يكون انتصاره هنا اندحاراً؟ ألن يكون "تقدمه" هزيمة؟
ولماذا تتواصل، تكالِباً على السلطة والعلبة، هذه التراجيديا اللإنسانية، على هذه الأرض لعربية؟ أهو مكر التاريخ؟ أهو مكر العقل؟ أهو مكر هذه الأرض نفسها؟

- ٣ -

من زمن، تبدو الأرض العربية، بجمالها كله وفرادتها كلها، كأنها فضاء عذاب وتعذيب. لا تعذيب العقل وحده، بل الجسم أيضاً. يُسأش الإنسان ويُقأد كأنه شيء بين الأشياء. أو في أحسن الحالات كأنه طفلاً لا ينمو، وإنما يظل رضيعاً. يوضع بين الجدران - حضائفة، وعناية، وتربية. تفتح له

النوافذ والأبواب، لكن بمقدار. يُعلم السيز المستقيم، خطوة خطوة. يقرأ أو يُقرأ له، لكن بمقدار أيضاً. وبمقدار، يفكر، أو يفكر عنه. كأنه لم يخلق إلا لكي يُذجن، ويُروّض، ويُشبع.
ومن أين له، إذاً، أن يكون إنساناً شويماً؟
فضاء عذاب وتعذيب.

وهذا السائس الأب المرّبي يُحيط نفسه، لكن بمرتزقيه، وجلّاديه، وحاملي أختامه وأسلحته، ووارثيه. يتماهى بهم، ويُماهى بهم الوطن والشعب والأرض والسماء، مُخيلاً للناس أنه إذا مات، مات معه كل شيء.

- ٤ -

القائد الخالد الألف.
كلما تأملت في حال هذه الأرض العربية، اضطرب. يُزجني دواز. تلتهمني حيرة. يجرفني ضياع.
الأفراد مجزّد حروف في أبجدية القائد الخالد الألف. وفي التسامح الكامل، ليسوا إلا مجزّد حركات في خطابه. المواطنة، بالنسبة إليه، استتباع، وإخضاع. تدجين وتلوين. تحريك وتسكين. كما لو أنها الخطر الأكبر الذي يواجهه. كما لو أنه هو، وحده، الحياة، البلاد والعباد، الحاضر والمستقبل. كما لو أنها صناعة اخّض بها، هو وحده.

- ٥ -

أن يخرج العربي من سرير طفولته، أن ينمو ويكون نفسه، هو أن يخرج من ثقافة القائد الخالد الألف، ومن سياسته، ومن سلطانه.
تلك هي مشكلته - مواطناً وإنساناً.
وتلك هي مشكلة الأدب والفكر، الفن والفلسفة.
القائد الأب الالف زمن لا يعرف الزمن. لا زمنية فيه. والمواطن، إنساناً ومفكراً، يحيا في نظامه بين جهنمين: أبوة أبدية، وعبودية أبدية.
تحرّز، أيها العربي، بعمق، بشمول كما لو أنك تستأصل نفسك من نفسك.
لا تخف من الموت. الخوف كله في هذه الحياة، من هذه الحياة.

نحن، العرب، ابتكرنا الصفر. إبداع عظيم. لكن، لماذا نرى الصفر الآن
يتدحرج مريضاً في جحيم الأرقام. عزفتني مخيلتي على تمثال الشخص
الذي ابتكره. تمثال سائل في جبر التاريخ.
هكذا أسكرت الهدهد وحزضته على أن يقول: "لا"، لسليمان ولو مزة
واحدة. وقالها: في بلدان عربية كثيرة.
وكان قد تأكد لي أن مطراً قديماً، لعله سومري - يوناني، لا يزال يروي
عطشنا. وقلت: أخبروا أولادنا، وأولاد عمومتنا، وأبناء الوجدانيات جميعاً.

ثمة طغيان من كل نوع يوجز تاريخ الحكم في المنقلب الأول من هذا
العصر. يكتبه على جدار ضخيم مشقوق. في رأس شقه الأيسر فتحةً بشكل
الفم. فم له أكثر من شفتين، وأكثر من ناطق وراوية.
طغيان - الوحدة التي حدثنا عنها وبشرنا بها، تجزأنا فيها.
الحرية التي وعدنا بها استعبدتنا.
البلد الذي قذمه لنا يكاد أن يتحول إلى أنفاق وقبور.

أقول، أغني، أومي،
لا تُصغي غير الريح. لا يُصدقني غير التراب.
هذا البلد لا يسيّر إلا نحو الغياب،
ذاك البلد يكره الحضور، ويحب الظهور،
ذلك البلد ليس إلا إسفنجاً.
أية روح تسكن في هذه البلدان التي تُملئها الظلمات؟
قولي، أيتها الشمس.
كأن عبقرية الإنسان في هذا العصر، على هذه الأرض، هي فقط: أن
يصطاد إنساناً.

لا أقدر أن أنتمي إلا لما يتخطاني.
هكذا حين أتأمل في هذا العصر يطيب لي أن أهتف: ما أنقذك يا عصر
الحجر، عصر الشجر الحقول والبقول.
يطيب لي بعد ذلك أن أغري قدمي بالتنقل على ذروات بُركان.

- ١٠ -

إنه الثقافة السيدة الآمرة:
نأكل بأيدي غير أيدينا
نرى بعيون غير عيوننا
نتكلم بالسنة ليست لنا
نحيا بلا أقدام لكي نتعلم كيف نشق الدروب!
ثقافة - نُحبس في واقعها لكي لا نقول إلا الكذب، قادرة على أن
تجعل المُتهم يعترف بأن أجنحة الطيور ليست إلا مؤامرةً للانقلاب على
الفضاء.

جسم أرضنا في هذه الثقافة مُقعّد وتلتهمه البثور.
وخوفاً من الذباب والذّل، لا يتجرأ أحد على أن يقرع باب الحاكم،
وكان الفجر يتكلم بصوت خافت لئلا يسمعه حارس الغروب.
الاشياء نفسها ينست، وأخذت تدخل أفواجاً أفواجاً في مذاهب القبائل
- وراء حاكم.

- ١١ -

لا أتحدّث عنك، أنتها الكاملة - المدن العربية. أتحدّث عن بحيرة سزية لها
عنق امرأة، أمضيث على ضفافها حياتي كلها تقريباً، شاهد رملي، وشاهداً
على الرمل.

دخان يرتطم بوجه المدينة: الوجه قناع على الوجه.
لن أكذب على الضوء.
لن أكذب على.
لن أكذب.

يمكن هكذا أن نقرأ النجوم في ضوء قناديل كمثل الشموع. أن نصل
خيظ الذمع بخيظ المطر. أن نصل خيظ المطر بكاحل غزالة تُسقى

(جريدة الحياة، ١٤ مارس/مارس ٢٠١١)

- ١ -

أ - "يحظر على قادة المعارضة في إيران مغادرة البلاد: مير حسين موسوي، مهدي كروبي، محمد ختمي".

السبب: "الخروج عن الدين، ومحاربة الله".

هذا ما أعلنه، عبر تلفزيون حكومي في طهران، موسى قرياني، عضو اللجنة القضائية في البرلمان الإيراني (نقلًا عن وسائل الإعلام).

ب - الحكم على امخرج اسينماني الإيراني جعفر بناهي بالسجن ست سنوات ومنعه من الإخراج، والكتابة، والتحدث إلى وسائل الإعلام. والسفر، مدة عشرين عاماً (نقلًا عن وسائل الإعلام).

٢-

ثُمَّ وأحكم تزدري الإنسان، رؤية. وكيوننة، ومعنى. ترى إلهه كأنه مجرد شيء، وكأنه بين الأشياء أقلها قيمة. لا تذكر بثقافته القرون الوسطى الغربية - لكنسية وحدها. تذكر أيضاً بثقافة الأنظمة الديكتاتورية الشمولية التي نشأت - خصوصاً - في القرن العشرين المنصرم، ولا يزال غيظ منها قائماً حتى اليوم.

الأكثر خطورة ودلالة في هذه الشهم والأحكام أنها تتم باسم الدين. "لجرائم" هنا ليست، تحديداً، اقتصادية أو اجتماعية أو فكرية، إنها "جرائم" دينية. أشخاص يقولون إنهم يمثلون الدين، حاكمون، فهيمنون، يمارسون على الأرض سلطة سماوية. المجتمع، هذا، محكوم ومقود بالرأي الوحيد، الأوحد، المطلق. وليس أمام الفرد الذي يشذ عنه إلا الخضوع والضمّت في أحسن الحالات، أو في أسوأها الإبادة، بشكل أو آخر.

٣

بوصفي شخصاً ينتمي، نشأةً وتاريخاً، إلى عالم الثقافة الإسلامية، وبخاصة إلى أفقه الشيعي، يهمني أن أتساءل حول المسوغات الدينية،

اليوم، لهذه التهم والأحكام، استكمالاً لتساؤلاتي السابقة حول ما يشابهها في تاريخ السلطة الإسلامية.

في هذه المسوغات، أياً كان الدفاع عنها، نوعٌ من القبول الضمني بما كانت تفعله السلطات الإسلامية السالفة بكل من يخالفونها الرأي. وكان الشيعة أنفسهم في مقدمة المخالفين. هكذا، كانوا يُقتلون بطرقٍ موحلة في امتهان الإنسان. فكيف يقوم اليوم وارثو هؤلاء الضحايا بما كان يقوم به جلاذوهم؟ وكيف يُحبذون ما نبذته ذرواث الإبداع في الثقافة الإسلامية، وبخاصة الشيعة؟

ألم يتأسس التشيع، في معناه العميق، تاريخياً، على حزية الرأي والموقف؟ ألم يحارب، نظراً وسلوكاً، تلك الممارسات الوحشية التي كان يضطفيها الحكام المسلمون القدامى باسم الإسلام؟ الفرد لا رأي له، وإن كان مصيباً، عندما يخالف الجماعة: ألم تكن هذه المقولة قاعدةً أولى لطغيان أولئك الحكام؟ فالرأي الوحيد، الواحد، الأوحده هو رأي الجماعة - الفرد، أو الفرد - الجماعة. أي هو، عملياً، رأي السلطة. ولا مكان للمخالف إلا القبر.

لم يكن الفرد، بوصفه كائناً حراً ومستقلاً، أكثر من مُجَرَّد لفظة. لم يكن إلا تجريداً. لم يكن إلا وهماً لغوياً.

فبأي "الألاء" يفعل بعض الشيعة، اليوم، ما ينكره وما أنكره التشيع؟ وهؤلاء ليسوا في حاجة إلى أن يقرأوا التاريخ الإسلامي كله. ربما يعوزهم الوقت. ليقرأوا كتاباً واحداً لا غير: مقاتل الطالبين. سوف يرون أن ما يفعلونه مناقضٌ تماماً لما كانت تمثله فكرة التشيع:

لا طاعة لأبي سلطانٍ في إنكار الحقيقة،

لا طاعة لأبي سلطةٍ في رفض الحق،

لا طاعة لأبي فكرٍ أو لأبي إنسانٍ في امتهان الإنسان، وإنكارٍ ما لا يكون إنساناً إلا به:

حزية الحركة، والتنقل، والفكر، والكتابة.

- ٤ -

"الخروج عن الدين ومحاربة الله": ما معيارُ هذا الخروج؟ ما معنى هذه المحاربة؟ من يحق له أن يضع هذا المعيار، أو أن يشن هذا المعنى؟ الأخذ بهذين لسيفين يؤدي إلى أحد أمرين: تكفير المسلمين بعضهم بعضاً،

وضرب بعضهم رقاب بعض، أو تحويل الناس جميعاً إلى قطيع تقوده عصا السلطة.

وقبل هذا كله، كيف يجرؤ إنسان على تنصيب نفسه ناطقاً باسم الله، ممثلاً له على الأرض، حامياً له، ومدافعاً عنه؟ أشوا ضرورة عن علاقة الإنسان بالله هي تحويله إلى ملك شخصي، كما كان الشأن في لاهوت القرون الوسطى. عندما تهيمن هذه الصورة على البشر، تتحول حياتهم إلى مجزرة متواصلة: فكرية وروحية وإنسانية، واقتصادية كذلك. إنها الصورة التي تحجب نور السماء، ونور الأرض.

(جريدة الحياة، ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠)

ولدت في بداية العقد الرابع من القرن العشرين المنصرم ١٩٣٠، بعد أقل من عشر سنوات من موت الخلافة الإسلامية في صورتها العثمانية، ١٩٢٤. في نهايات لحرب العالمية الأولى، ومقدمات الحرب العالمية الثانية؛ في زمن الانعذاب الذي تصرّف بالأرض العربية وحقوق شعوبها في فلسطين وأنطاكية والإسكندرون، وفي بدايات الفورات والطموح إلى الاستقلال.

زمني، عريباً، انفكك عُقد، وانهار أسوار، وتهذّم سجون، وانفجّح آفاق. ثمّ يجيء العالم: المأسى البشرية. الآمال. الاشتراكية. الرأسمالية. الليبرالية الجديدة. الدّزية لغاشية ومعسكرات الاعتقال. الحرب لجزئية. الماركسية، الشيوعية، الاغتراب والهجرة. فلسطين. إسرائيل. الناصرية. البعثية. حرب ٦٧. المومية العربية وأحزابها وأنظمتها والكوارث التي أنتجتها، على جميع الصعد. النفط واستراتيجياته للتنموية. تفكّك لمجتمع العربي. تحوّل السياسة إلى شركات. تحوّل الدين والثقافة إلى مجرد أدوات. ثروات فردية ضخمة، وفقر جماعي مهين وفكّك. ولا ثقافة إلا الطقوسية من كلّ نوع، وبخاصة ما يرتبط منها بكلّ ما رفضه العرب لأحرار لقدامى، بدءاً من نشوء الدولة الأموية.

الظلام غامز، شامل. نحن الآن فيه نيام قيام. وعندما يخيّل إلينا أننا نبدأ شيئاً آخر مختلفاً، سرعان ما يصرخ بنا الواقع: أنتم واهمون، وها هي اليوم، تعود أحلام "الخلافة العثمانية" أو شكل آخر لها باسم التحرير. وبعد أن هيمنت أكثر من أربعة قرون، وفعلت بالإسلام والعرب ما فعلت.

أهذه السنة ٢٠١٣ جديدة حقاً؟

هل انهيار الديكتاتورية التونسية والليبية والمصرية واليمنية، والانفجرات المتواصلة المزلزلة في بلدان عربية أخرى - ستؤدي إلى تدمير الطغيان حقاً، أم إلى تدمير شكل من أشكاله، لكي يحلّ محله شكل آخر "أكثر شعبية" عند العرب والمسلمين ومعظم العالم، وأكثر تلاؤماً مع الدورة الجديدة للمهرجان الذي يستضيفه لعرب، مهرجان "لعبة الأمم"؟

سوف نرى.

ربما كان في العمل على تحقيق المستحيل كثيرٌ من الحماسة. لكن، من المستحيل ألا يحاول الإنسان القيام بهذا العمل.

يقول الفيلسوف الرواقي: "ما يناسبك أيها العالم، يناسبني".
من أين تجيء القدرة عند الإنسان على القبول بهذا القول، أو الإيمان به، والحياة وفقاً له؟
أوه، كلاً. كل ما يلائمك أيها العالم، لا يلائمني.

وضع الأمبراطور الروماني فيسباسيان قانوناً ضدّ التهتك والدعارة جاء فيه: "كل امرأة تمارس الجنس مع عبد شخص آخر، سئعد هي نفسها عبدة".
وجاء أيضاً: "المرابون الذين يقرضون المال لأبناء الأغنياء (انداعرين المتهتكين) لا يحق لهم المطالبة بأن يسترجعوا أموالهم أبداً، حتى بعد موت آبائهم".
أليس في القانون الروماني بُعدٌ إنسانيّ حضاريّ نفتقده في حياتنا العربية، وربما في العالم كله؟

كان الرواقي يشعر أنه في بيته حيث تنقل، وأيّ كان البلد الذي يستقر فيه. لم يكن هناك منفى بالنسبة إليه. العالم كله عالفه، وهو مدينته الكونية.
أن تكون، بالنسبة إلى الرواقي، مواطناً في جمهورية، فذلك يعني أنك موطنٌ في جمهورية كونية.
الأخوة الكونية عنصرٌ أساس في الفكر الرواقي.
لكن، قل لنا، أيها الرواقي، ماذا نفعل نحن "إخوتك" اليوم؟

الأخوة السائدة في العالم هي أخوة "العقيدة"، لا الأخوة الإنسانية. وفي "أخوة العقيدة" يتفنن البشر المختلفون في "عقائدهم" في قتل بعضهم بعضاً. ذلك أن "القاعدة" التي تحركهم وتوجههم هي: "قتل المختلف". هؤلاء يفترضون أن "الإنسانية" ليست مشتركة بين أبناء الإنسان. والاختلاف في العقيدة هو، إذاً، اختلاف في الإنسانية ذاتها. هكذا يجب إلغاء "لكثرة"، وإقامة "وحدة العقيدة". ومن يشد، يجوز قتله، شرعاً. ما رأيك أيها الروائي في هذا التطور، بعد ألفي سنة من التجارب الإنسانية الكبرى، في مختلف الميادين؟ ألك الآن رأي تُجهز به؟

لكن حذار: قد تكون الضحية الأولى!

- ٦ -

كان فالاريس، الإمبراطور الطاغية (القرن السادس قبل الميلاد)، يأمر بإحراق ضحاياه في إناء فولاذي له شكل الثور.

- ٧ -

ربما كان النضال الأفضل، والأعمق إنسانيةً، والأكثر فعاليةً، هو ألا تحارب من يحاربك مستخدماً لفته نفسها، وألا تقاتله بالأسلحة ذاتها التي يقاتلك بها.

- ٨ -

هل يمكن أن نتخيل ثورة ضد اللذة؟
مارك أوريل، الإمبراطور، والفيلسوف الروائي، يجيب: نعم. ويضيف:
ذلك هو "الاعتدال".

- ٩ -

اخطفيني، خذيني أيتها اللذة،

- ١٠ -

أتنفس هواء الطبيعة
التي هي نفسها لا تتوقف عن التهام أنفاسي.

- ١١ -

كلأ، لا أجد مكاناً لي، حيث يتجفّع القطيع ويتراكم، حتى لو غرض عليّ
بالإجماع أن أكون أنا نفسي الراعي. كلأ، معاذ الشعر، معاذ الإنسان.

- ١٢ -

أفضل كلمة في معجم السلطة العربية، اليوم، هي: الاستقالة. وفي الأغلب،
خصوصاً عندنا نحن العرب الذين لا نملك ثقافة الاعتراف بالخطأ، أن
الاستقالة تبدو، شكلياً، أنها تضر الهزيمة، على الصعيدين الفردي
والجمعي.

لكنها عمقياً تمثل نوعاً من الاستبصار، وإعادة النظر، والاعتراف بأخطاء
النظام الكبرى، خصوصاً على صعيد الحريات وحقوق الإنسان، وعلى
الصعيد الثقافي العام. وهي، إذاً، نوعٌ من الدخول في حركية التاريخ،
يتخطى مستوى السلطة والحكم، إلى المستوى الإنساني - الثقافي،
ويتجاوز المصالح المرتبطة بالسلطة والحكم، إلى مصالح الوطن
ومستقبله.

الاستقالة تضر شكلاً من أشكال الثورة الشخصية التي يقوم بها الفرد،
في إطار عمله السياسي ومسؤولياته وإخفاقاته، لكي يثبت أن له رؤيته
الخاصة، وهويته الخاصة، وأن له صوابه الخاص وخطأه الخاص. إنها جزء
أساسي من المسؤولية. وفي بعض الحالات قد تكون جزءاً من الأفضل
والاكمل.

- ١٣ -

المستقبل؟ تثبت الممارسة العربية أن هذه الكلمة ليست أكثر من مجرد لفظة. لم ندرك في ماضينا غير الحاضر الذي يقوده الخليفة، ولا ندرك في حاضرننا، اليوم، غير الماضي الذي نمذجته سياسة الخليفة. أما الأبعاد التي تتصل بالتغير والتقدم، بالإبداع والبناء، بالديمومة واللانهاية، فغائبة كلياً في لغتنا السياسية والفلسفية والاجتماعية.

لا معنى للمستقبل في ثقافتنا السائدة - الموروثة خارج المعنى الذي يضيفه عليه التقليد الديني: الموت والآخرة - إما إلى "النعيم"، وإما إلى "الجحيم".

أن يكون المستقبل الهاجس الرئيس عند الشعب، يعني أن الحرية هي هاجسه الرئيس أيضاً: حرية كل فرد. وإذا كانت الحرية هاجسه الرئيس، لا يمكن أن يكون في فكره وسلوكه طغياناً أو عدوانياً أو وحشياً.

إن الأساليب التي استُخدمت في العراق، وتُستخدم في سورية وفي بلدان عربية وإسلامية كثيرة، ضد البشر وال عمران تدفعنا إلى التعفُّق في دراسة هذا الكائن: الإنسان.

- ١٤ -

نعاش الكارثة يومياً، في المدن العربية. في معظمها، على الأقل. أخذ أشكالها - الموت قتلاً. موث يُفنى ويمُجد في هذه الأرض الواسعة الجميلة التي تبسطها اللغة العربية بين قارتين.

لكن هل هذا الموت هو الذي سينقذ المبشرين به، ويخلص بلدانهم مما تشكو منه؟ هل هو م يفتح لهم في هذا العالم طريق الحضور الخلاق، ويهيئ لهم عتبة المصير العظيم؟

وإلى أي معيار نحتكم؟ إلى الخطاب أم إلى التجربة؟ إلى الأسباب أم إلى النتائج؟

تقول التجربة التي تتواصل منذ خمسين عاماً إن هذا الموت لم يغير شيئاً، لا في الحياة، ولا في الفكر. إنه، كيفما نظرت إليه، لا يمكن أن يسير بأصحابه ومؤيديه نحو الأفضل. إنها تجربة، تقول، على العكس، هذا الموت لم يكن إلا تآكلاً وتفتتاً على الصعيد الاجتماعي، وإلا تمزقاً وانهاراً على الصعيد الإنساني - الحضاري.

الأكثر دلالة، على الصعيد الثقافي بحصر لمعنى، أن هذا الموت، كما توضح التجربة، لا يبدو أنه موث بقدر ما يبدو أنه تدمير ذاتي. وأنه تدمير مزدوج - مائي ومعنوي. هو، من الناحية الأولى، فقدان للطاقة. وهو، من

الناحية الثانية، دليلٌ دامغٌ على سبات المجتمع. فهو يقابله ويقابل صناعه ببرودة ولا مبالاة. لا يتبرأ منه أو منهم، ولا يتبناه أو يتبناهم. كأنما لا علاقة له بهم - سلباً أو إيجاباً. وكأنهم هم ليسوا إلا مجرد ظلال أو أرقام، مجرد أشكال أو أشباح.

ألا تكمن، إذاً، في هذا الموت - الانتحار علامةٌ قويّةٌ أخرى يتعذر دحضها؟ وهي أن المجتمع الذي يتم فيه وباسمه، لا يعنى بالإنسان، بوصفه فرداً، ولا يُعنى بالحياة الإنسانية، بوصفه الهبة الكبرى للوجود. كأن الأفراد مجرد أشياء، مجرد "آلات"، تُصنع وتُسوّق، وتُسْتَهْلَك.

الناظرُ إلى الآخر بوصفه مجرد شيء، ليس هو نفسه إلا شيئاً. الذاتُ تتشياً إذا تشياً الآخر.

في مثل هذا المجتمع تبدو الفلسفة والعلم والفن والطبيعة مجرد ألفاظ، مجرد هوامش. ويبدو البعد الوجودي الإنساني - الحضاري كأنه غائبٌ تماماً.

كأن آدمَ في هذا المجتمع ليس إلا أديماً.

- ١٥ -

يستقبل العالم عاماً جديداً، ويحتفي به، بوصفه وعداً لتحقيق ما يحلم به، ويعمل له.

أمّا نحن العرب، فلا يعني لنا العام الذي ينتهي والعام الذي يبدأ أكثر من مجرد رقم في روزنامة ما خُطط لنا وما قُدِّر مسبقاً.

عام ٢٠١٣ هو، بالنسبة إينا، كمثل العام الثالث للهجرة، أو الثالث عشر، أو العشرين لا فرق.

واسمعوا وغوا: كل عام مقبل، والماضي بألف خير.

(جريدة الحياة، ٢٠١٣)

أين المشكلة إذا؟

- ١ -

يصف 'الفيلسوف الفرنسي فرانسوا شاتليه العقيدة، 'يا كانت، بأنها استلاب وتضليل وتشويه.

استلاب، لأنها تفرض على صاحبها رؤية معينة للواقع، تجعله غريباً عن الممارسة الاجتماعية الحقيقية، وعن وعي الواقع بشكل موضوعي. تضليل، لأنها تفرز أساطير وخرافات وأكاذيب لاستقطاب الانفعالات والهيئات الاجتماعية المتنوعة، واستخدامها سياسياً. تشويه، لأنها تحوّل أصحابها، إلى أشياء، أو إلى آلات وأدوات ووسائل، فتزيد في تحجرهم افكري، وتجعلهم يرفضون لغة 'الحوار، أو الاعتراف بالآخر المختلف.

- ٢ -

يدفع هذا التوصيف، منظوراً إليه في إطار الأحداث العربية الراهنة، إلى طرح سؤالين:

الأول هو: أليست "النظرية" هي نفسها "عقيدة"؟ وإذا كان اجواب إيجابياً، فإن "النظرية" هي، أيضاً، استلاب، وتضليل، وتشويه.

الثاني هو: كيف يمكن تحرير "الثورة" من البعد العقدي؟ الثورة، مبدئياً، انعتاق وتحزر، غير أنها، عملياً، ممارسة عنيفة. وهي لا تقبل النقد والاختلاف، ولا البحث والتحليل. وإنما هي أمر ونهي. أفلا تكون إذاً، وتبعاً لذلك، استلاباً وتضليلاً وتشويهاً، من حيث إنها، بخاطرة، تذويب للفرد في الجمع، أو في "الجمهور"؟ أفلا تكون هي أيضاً "نظاماً" آخر، مغفلة على نفسها، وتجلب "الثورة" عليه بوصفها "نظاماً"؟

- ٣ -

هل يعني ذلك أن الطريق الصحيحة، الإنسانية، في تغيير المجتمع، وفي إرساء الديمقراطية والتعددية وحرّيات الإنسان وحقوقه، إنما هو الخيار الذي رسمه غاندي، وأحب أن أسقيه، بنوع من المفارقة: الثورة باللائورة؟

— ٤ —

عندما ننظر إلى الأحداث العربية الراهنة، مقرونة بما يحدث في العالم، أزمارٍ وخططاً واستراتيجياتٍ وتدخلاتٍ في مصائر الشعوب، برغبة منها، أو بعليّ وأسبابٍ دوليةٍ متنوعة، لا بدّ من أن نستحضر في وعينا وتحليلنا أمرين أساسيين:

الأول هو أنّ الخطاب الذي يواكب "الربيع العربي" لا يثور على فساد المجتمع العربي، بقدر ما يثور على السلطة العربية. وهو "تقليد ثوري" في تاريخنا، قديماً وحديثاً. هكذا رأينا، وبخاصة منذ الثورة الناصرية، أنّ الأشياء كلّها، المرتبطة بالسلطة، تتغير، ويحلّ حكامٌ جدد محلّ حكامٍ سقطوا، ومع ذلك لا يتغير، في العمق، أي شيء. والسبب هو أنّ المجتمع لا يتغير بمجرّد تغيير سلطة. فلا بدّ من تغيير مؤسساته. ولا تتغير مؤسساته إلا بالقطيعة الكاملة مع أسسها الماضوية. وهي المسألة الجوهرية التي لا يلامسها هذا الخطاب.

وفي هذا السياق يمكن القول إنّ الاكتفاء بتغيير السلطة عملٌ قد يحرف العقل الثوري عن مساره الأصلي، ويضلّ الإنسان ونضاله. ويجعل العلاقة بالكلام عقيمة. هذا عدا أنّه قد ينقلب إلى تدمير آخر للمجتمع.

الأمر الثاني يرتبط بذاكرة البحر المتوسط، ذاكرة الوحدات الثلاث، وكيف أنها تستيقظ، على المستوى الكوني، في حروبٍ أخرى، لكن هذه المرة، باسم الحزبيات والديمقراطيات، وحقوق الإنسان وحرّيته، باستثناء واحد: فلسطين — "السجينة" أبداً، والمسكوت عنها "أبداً".

كان البحر المتوسط، في بداياته الحضارية، مناخاً تُظوِّغ فيه قيم السماء لكي تتواءم وتأتلف مع قيم الأرض. اليوم يحدث النقيض. هكذا تتناسل السماء نفسها في جيوشٍ تحارب الأرض. السماء التي لم تكن موجودة إلا في المخيلة أصبحت كائناً مدججاً بالأسلحة وشرعاً يهيمن على الشجر والحجر، العشب والقمح، الخبز والماء. كانت السماء سؤالاً يفتح البصر والبصيرة. كانت مجرّد بحث، وهي الآن تتحوّل إلى يقينيات ومذهبيّات وتعاليم شاملة ومعصومة. هكذا يموت الإنسان عملياً، ويحلّ محله المعتقد. يندثر الواقع، ويزدهر الوهم. ينطفئ التراب، ويشتع

الشراب. كانت الحقيقة احتمالاً وبحثاً، وهي اليوم معرفةً مسبقة، وملك خاص. لم تعد الأرض إلا دولاباً تديره آلة السماء. ويبدو أن لمعنى الأول للوجود، اليوم، يتمثل في الحرب. حرب زائتها وشعارها: إما أن تكون مثلي، وإما أن أبعدك. إبادة التنوع والتعبد، والحريات، والاختلافات هي الفكر والعمل اللذان يهيمنان اليوم، في العالم.

١. الحقيقة والسياسة

بين الحقيقة والسياسة صراعٌ بدأ، منذ تكوّنت المدينة. وسقراط هو الفيلسوف الأول الذي شرب كأس الموت، انتصاراً للحقيقة ضد سياسة المدينة.

لم يهدأ هذا الصراع، بل ازداد حدة وضراوة في العصور الحديثة. في العلم كنه، وبخاصة في جزئه العربي. وهو، في هذا الجزء، شديد التعقيد. ذلك عائد إلى أن السياسة فيه ترتبط بالذين، على نحو شديد التعقيد، هو أيضاً.

الحياة العربية القائمة على أسس دينية غيبية، مخفوفة بين قُبلة عشائرية، وذهبية، وإثنية، تجعل من السياسة ممارسة تتخطى حدودها الخاصة، بخضر المعنى، لكي تشمل الكل الاجتماعي، والفكري، والأدبي، والفني.

يبلغ هذا الصراع عند العرب، في المرحلة الزاهنة من تاريخهم، حداً يُجبر للعوي، في ضوء الواقع الحضاري الكوني، أن يطرح كثيراً من الأسئلة المريبة، إنسانياً وثقافياً.

أكتفي هنا ببعض الأمثلة:

- هل على الإنسان أن يمثل لما تقوله السياسة، ولو كان كذباً، خصوصاً إذا كان اتمسك بالحقيقة والجهد بها يؤذيان إلى الشجن أو القتل؟

- هل التضحية بالحقيقة، من أجل السلامة والبقاء، أمرٌ ضروري؟ وكيف يمكن قبوله، إنسانياً وأخلاقياً؟

- إذا سوغنا الكذب بحجة أو بأخرى، دفاعاً عن "حقائق" اسياية، ألا يؤدي ذلك إلى تسويغ انظفيان، في مختلف أشكاله، وإلى تسويغ القتل - فضلاً عن احتقار القانون والإنسان، في آن؟

٢. تغيير السلطة، أم تغيير المجتمع؟

يمكن أن نصف الصراع فيما بين الاتجاهات السياسية، في المجتمع العربي - الإسلامي، بأنه صراعٌ دائريٌّ يكرر نفسه باستمرار. فهذا المجتمع يبدو في هذا الصراع كممثل الدائرة: مكتمل بتعاليمه الدينية، وثقافته القائمة

عليها، بالورثة. وهو، بوصفه كذلك، مُكثَّف بذاته. فليست "النظريات" أو "الأفكار" الجديدة هي ما يحتاج إليها، لكي يتغير ويتقدم. ما يحتاج إليه هو، بالأحرى، سلطة تعرف كيف تحرش تعاليم دينه، وكيف تسهر على مبادئها التربوية والاجتماعية والثقافية. والخلل، إذاً، يجيء دائماً من انحراف السلطة وابتعاد أهلها عن هذه التعاليم وهذه المبادئ. ومن هنا، يكون الصراع مُتمحوراً حول تغيير السلطة، لا على تغيير المجتمع. وهو، إذاً، ليس صراعاً ثورياً، بالمعنى العميق، الجذري والشامل، لكلمة ثورة، وإنما هو تنويع على النزاعات و"الحروب" التقليدية، في التاريخ العربي، حول السلطة، والتي كانت ترتبط، عضوياً، بالذين والمال والفصبة، وفقاً لما يراه ابن خلدون.

وما شهدناه ونشهد في "ثورات" ما سُمي بـ"الزيع العربي" ديل بارز على ما أذهب إليه. ونجد أيضاً هذا الدليل في "الثورات التقدمية العربية" في النصف الثاني من القرن العشرين المنصرم.

الأساس في هذه "الثورات" جميعها ليس الإنسان، أو بناء مجتمع جديد، أو تحرير المرأة، أو الثقافة والديموقراطية، أو الفصل بين ما هو ديني وما هو سياسي اجتماعي ثقافي، لكي يمكن التأسيس، حقاً، للديموقراطية وحقوق الإنسان وحرياته، ولدولة القانون، وإنما الأساس هو الوصول إلى السلطة - بأي ثمن، ومهما كانت الأدوات والأساليب.

ولقد أثبتت التجربة التاريخية، على مدى خمسة عشر قرناً، أن مجرد تغيير السلطة لا يعني، بالضرورة، الخروج من الخلقة الجهنمية: العنف، والاستبداد، والتخلف.

إلى متى تظل هذه الدائرة تدور حيث كانت وحيث هي؟ وإلى متى تستمر الطاقة العربية مبددة، ضائعة، في اقتتال العرب، وفي استئصال بعضهم بعضاً؟

III. مَكْزُ القُدَمَين

أشواق، تكاد الأصوات أن تعقب جذرائها،
أمر أذني أن تزاداً رهافةً (ماذا لو كان بيتهوفن يرافقني هذه اللحظة؟)

سياسةً كمثل لَبْلَابٍ يُعَرِّش على أكتاف المازة،

شميم أعناق،

روائح آباط وأفخاذ، ونفط سري.

عطر كرسني خرج لتوه من يدي الضائع: لا ممتلئ، لا فارغ.

قُبْتُ خَلِي عِفْلَاق.

يَسْأَلُنِي بَابٌ: هَلْ تَعْرِفُ مَنْ آيْنُ جَاءَنِي هَذَا الْبَيْتُ؟

يَسْأَلُنِي بَيْتٌ: لِمَاذَا لَا تَتَكَلَّمُ إِلَّا هَمْسًا؟

قُلْ لِي، أَيُّهَا الضُّوءُ، هَلْ تَقْدُرُ الْعَتَبَةُ أَنْ تُشْهَدَ، هِيَ كَذَلِكَ، عَلَى مَكْرٍ

الْقَدَمِينَ.

١. سلطة

يقول صاحبي دو النزعة اليسارية - الإسلامية: "نحن عرب أهل سلطه في المقام الأول"، ويكمل: "غیر أننا لست، بین الأمم، وحدنا في هذا الأمر؛ لكننا نختلف عن غیرنا بأن السلطة عندنا مرتبطة عضویاً بالذین. ومن هنا یجیء اختلاف آخر: فنحن نفترض أن مجتمعنا کامل بالإسلام، وأن ما یحول بیننا وبين مزيد من الكمال إثم هو السلطة. ففي الإسلام جواب عن کل شيء حتى نهاية الأزمنة - عن قضايا الاجتماع والسیاسة والتقدم، وعن قضايا العلم والفكر والأدب والفن، وعن قضايا الحیاة الإنسانية الدنیویة والأخرویة. وعلى هذا المستوى، لسنأ فی حاجة إلى أي شيء من "خارج". باستثناء مجزات الثقیة، تلك التي لا تتعرض مع الذین. ویست المسألة، إذاً، أن نُغیر المجتمع. المسألة، على العکس، هی أن نُغیر السلطة التي لا تسهر على انتشار الإسلام، ولا تطبق مبادئه ونظریته وتعالیمه.

ولئن كان الخلل، إذاً، عائداً إلى السلطة التي ننحرف، وتبتعد عن الإسلام، فإن الثورة، بالمعنى الحديث، فی المجتمع العربي - الإسلامي، یجب أن تنحصر فی تَغییر السلطة، والقضاء على فسادها. أما إذا تجاوزت ذلك إلى القول بتغییر لمجتمع کلّه، اجتماعاً وثقافةً وسیاسةً، فإنها تكون نوعاً من الثورة على الإسلام ذاته. فالثورة تكون بالإسلام ضد السلطة لمنحرفة، أو لا تكون هی نفسها إلا انحرافاً.

الإسلام، فی نظر المؤمنین، غَیر المجتمع العربي، مزة واحدة وإلى لأبد. وكما كن الإسلام قاعدة الحیاد والثقافة والسیاسة فی العاضی، فمن الطبیعی أن یكون كذلك فی المستقبل.

تقویم اعوجاج السلطة: "ذلك هو معنى الثورة فی المجتمع العربي الإسلامي، وهذه هی حدودها".

ویختم هذا الصدیق كلامه بقوله: "ببقى أن یزی أهل الدیموقراطية، والعلمانیة، وحقوق لإنسان وحزباته... إلخ. وأولهم أنت نفسك. لا أن یروا فقط، بل أن یرتدوا كذلك عن ضلالهم".

٢. انتظر

هل یكمن، حقاً، فی مخيلة كل ما "غائب، مُستَظَر"؟

- ومتى يجيء؟
- لا أحد يعرف.
- غير أن الغائب هنا هو الذي يأتي إلى الإنسان، وليس الإنسان هو من يذهب إليه.
- كأن الكون، في هذه المخيلة، سفر دائم وانتظار دائم.
- وأين يتم لقاء الغائب، على افتراض أنه يتم؟
- في إحدى المدن الزمردية في جبل الكون، تقول المخيلة.
- ما اسم هذه المدينة؟ أها اسم؟
- جابزوا، تقول الأسطورة.
- لهذه المدينة وطن؟
- لا وطن لهذه المدينة. العالم كله وطن لها، يقول الشفر.

III. تنويع على الانتظار

كتب إلي صديق قُبيل موته رسالة طويلة يتحدث فيها عن حياته، أجزى لنفسه أن أنشر منها مقاطع ترتبط بفكرة الانتظار. يقول: "ربما كان انتمائي في صباي إلى حزب سياسي علماني عائداً إلى رغبتني إجماعة في الابتعاد عن فكرة الانتظار، كما تفهم وتعيش دينياً، وفي إعطائها بعداً دنيوياً: تغيير المجتمع جذرياً، وعلى نحو شامل. ثم رايت أن ماركس يُدخل، هو كذلك، هذا البعد الديني - الأسطوري في نظريته. وهو بُعد استمدّه، كما يقال، من التقاليد لجرمانية. ففيها أن الآلهة ستموت، يوماً، ويخلفها عالم إنساني جديد. عالم أرضي.

رسولية سياسية - اجتماعية، مصنوعة ومقطرة داخل رسولية دينية - غيبية".

يتابع هذا الصديق، فيقول:

"كنت أشعر أن هذا البعد الدنيوي - الإنساني في فكرة الانتظار يحزرنني من الطقوس الدينية، خصوصاً من عذاب الازدواجية في حياتي، تلك التي تفرضها تقاليد المجتمع الذي أعيش فيه. كنت، مثلاً، أجد نفسي مضطراً إلى الصلاة واطموم، إرضاء لأبي ولأصدقائه وللوسط الاجتماعي. هكذا كنت أظاهر بأنني أوّمن بما لست مقتنعاً به. كان في حياتي، إذاً، شيء من الكذب على أبي وعلى الناس، وعلى نفسي في الدرجة الأولى".

كلّا لن تدخل بيتي

- ١ -

تتزايد هيمنة العنف على الحياة العربية، سياسة وثقافة واجتماعاً. لا أريد أن أسأل: أين الأموات في هذا العنف، وماذا فعلوا؟ أسأل: أين الأحياء، وماذا يفعلون؟

عنّف - متاهة لا تولّد غير المزيد من المتاهات، في واقع يزيد الإنسان اختناقاً، كلما ازداد غوصاً فيه.

تحركات، أعمال، أقوال تنحرف بالإنسان عن إنسانيته، وتشوّه طبيعته. عنّف النهار يجرفه عنّف الليل. عنّف الأمس "غذاء مقو" لصحة العنف. غداً. تاريخ دم وأشلاء. تنطمس دروب الضوء وتضطرب المنارات. للأحداث قوّة بظاشة، لكنّ الرهبة خفيفة، والعبرة أكثر خفة. تُصاب الأشياء نفسها بالغثيان، فيما يقهقه البشر ابتهاجاً، ويصفقون ويرقصون. للشراسة في هذا كلّه عنادٌ حقودٌ محير. حقاً هناك شيء عصيّ على الفهم في هذا الجدل الهذيانّي المتواصل في تاريخنا، جدل الجريمة - الضحية، القاتل - القتيل. ويخيّل لمن يحب أن يسافر إلى أبعد في التخيل والواقع معاً أن العربي "يُقتل" في أوروبا وأميركا وإسرائيل ويُدفن ما تبقى من أشلائه في أحضان العروبة.

كلّا ليست هذه فوضى خلاقة، إنها بالأحرى تفتّت وانهيار.

- ٢ -

بأية لغة كتب كتابك، وهو لا يلقي أيّ حجر في أيّ ماء أسن؟ ولماذا كتبته؟

- ٣ -

نحتاج أحياناً إلى المرض - هذ الموت المؤقت، لكي يشغلنا بتفاهاته عن موتنا اليومي الرهيب الدائم.

أوه... هذا اليوم، رجوت المال أن يجثم على ركبتي، بثقله كله، وألا يفارقني.

لا نعرف الرؤية الوجدانية، حقاً، إذا لم نعرف غنقها الخفي.

لا يمكن فهم الجسد إذا نُظر إليه، تجريدياً، في ضوء الروح. التجريد إعاقة ذاتية للعقل، واغتيالاً للأشياء.

الدين في العالم السياسي الراهن رأسمالٌ سياسيٌ أول. عندما يقتزن بالمال يصبح قوةً مادية - "روحية"، يصعب التغلب عليها. أخطر ما فيها أنها استخدامٌ كامل، نفسياً وعقياً، لنصوص الماضي. في هذا الاستسلام يزداد الحس القطيعي عند الجمهور، ويزداد التشبث بما لم يعد صالحاً إلا للمحو. وتعسر كثيراً ولادة الفرد الحز المستقل: لا تعسر فقط، وإنما تصبح شبه مستحيلة.

هكذا يتيح الدين للسياسة التي تحسن استخدامه، مشحوناً بشهوة المال، أن تستتبع البشر بسهولة. أن تطوع لرغباتها ومخططاتها حتى أعماقهم الحميمة، وضائرتهم، وأن تجردهم من هوياتهم ومن أصواتهم الحقيقية. يصبح الإنسان مجموعة من الطقوس والألفاظ.

في هذا المناخ، تُباد الحقيقة ويُباد الذين يبحثون عنها، أو يؤمنون بها. وفي هذا المناخ أيضاً يهيمن نوعٌ خفي من الطغيان يفرض نفسه، بطريقةٍ أو بأخرى، كأنه جزء لا يتجزأ من الإيمان.

هكذا تنتهي الأخلاق، وتزول الحدود بين الأباطيل والحقائق، وتفحي الفروقات بين الأنوار والظلمات.

الخاملون البلاد لا يرضيهم أي شيء حتى وإن كان خارقاً.

أن تكون مواطناً عربياً له حقوقه وحرياته الكاملة، أمرٌ مستحيلٌ في أي بلد عربي، اليوم. السبب أن النظام السياسي - الاجتماعي السائد، بتركيبه القبلي - الثيوقراطي، وشكله الديمقراطي الأجوف، لا يتيح الاعتراف بالآخر المختلف، وبحرياته الفكرية والمعتقدية والجسدية، وبحقوقه كاملةً.

ماذا تعني، إذًا، في اللغة العربية كلمة "وطن"؟ أو كلمة "مواطنة"؟

كان التناقض بين الديمقراطية والثوتاليتارية بذهياً، نظراً وعملاً. اليوم، يكاد أن يصبح مجزء شعار أجوف. فكثيرٌ من الممارسات السياسية الغربية التي تتم باسم الديمقراطية، الآن، تبدو كأنها أشكالٌ من الانحياز والتعسف ضد حقوق الإنسان وحرياته، وضد مبادئ العدالة والمساواة.

تكاد الحرية، اليوم، في العالم العربي، أن تكون انتحالاً، ويكاد الصدق أن يكون انتحاراً.

الحاجة الماسة اليوم في العالم المعاصر، خصوصاً على الصعيد الإيماني - الديني، هي إلى التمييز بين أمرين: الإيمان بالله، من جهة، وبالدين من جهة ثانية.

خصوصاً أن البشر عاشوا ويمكن أن يعيشوا دون أديان، لكنهم لم يقدروا ولا يقدرّون أن يعيشوا دون آلهة.

مجزء فراغ في مهب المصادفات: هذا هو شأن كثير من البلدان في العالم، اليوم. لا يقدر أي منها أن يحتوي نفسه. ينفجر، وتنفجر معه تناقضاته. يتسلح كل فريق بما لديه وبما يستجديه، أو يُغذِّق عليه. بالمذاهب والطوائف، بالقتل والنهب، بالعنف في أشد أشكاله وحشية. وهذا كله يتم باسم "الثورة" أو غيرها من الشعارات الضخمة كالحرية والوطن والديمقراطية.

السما ريفية في الريف، ومدنية في المدينة.

لا أنتظر أجوبة عن الأسئلة التي أطرحها على الوجود وعلى نفسي. هذا يجعلني أزداد يقيناً أن الإنسان هو نفسه جزء عضوي من سز الكون، ومن اللانهاية.

أحتاج في لحظة الفرح إلى من يكون إلى جانبي ويساعدني في احتضانها: أحتاج إلى الحزن.

بلى، نعيش في عالم لا يستحق أن نغضب منه، وإن استحق أن نغضب من أجله.

يتأصل عملي الكتابي في نوع عميق من الفهم والملل، لا أعرف كيف أفسره.
لولا ذلك، لكنت على الأرجح توقفت عن هذا العمل، منذ زمن طويل.

- ١٩ -

أن يوقن الإنسان يقيناً مطلقاً بأمر ما، حدث لا يصح إلا في مجال المعرفة
العلمية لبرهنية.
غير أن هذا، بالنسبة إلينا نحن العرب، مسألة عادية جداً. فنحن نولد
في ثقافة هذا اليقين، ونعيش فيها، ونحارب دفاعاً عنها، ونموت من أجل
أن تظل حية.

- ٢٠ -

عندما ننظر إلى ما يحدث في معظم البلدان العربية يبدو لنا أن البشر فيها،
أيّاً كانت اتجاهاتهم، لا هم لهم إلا أن يستيقظوا، ويغتسلوا، ويأكلوا،
ويذهبوا إلى عملهم اليومي: القتل أو الموت.

- ٢١ -

يقول مثل صيني: "إذا بدأ كلب واحد بالبباح على ظل، فإن عشرة آلاف
كلب سرعان ما تحوّل هذا الظل إلى حقيقة واقعية".

- ٢٢ -

هناك مراتب في الحرية تتطابق مع مراتب الوعي:
هناك حريات لا تنتج عنها إلا الشناعات والأهوال،
وهناك حريات تصعد إلى زيارة الكواكب.

- ٢٣ -

تقول الأسطورة إن برومئوس لم يكن يجبل الطين الذي يُخلَق منه البشر بالماء، وإنما كان يجبله بالدمع.

- ٢٤ -

حين يكون الجمع ضدك، فهذا يعني غالباً أن الحق معك، أو أنك، على الأقل، أقرب إلى الحقيقة من الجمع.

- ٢٥ -

إبادة الآخر، خصوصاً ذلك الذي يُعدّ عائقاً، هدفٌ أول لكل أصولي (ديني أو غير ديني) يناضل من أجل السلطة.

- ٢٦ -

أمضى حياته باحثاً عن الحقيقة الضائعة.
اليوم، وهو يقترب من الموت، يبدو له أنه هو الذي كان ضائعاً.

- ٢٧ -

القضايا الناجحة؟
لا أحب، أحياناً، أن أضم صوتي إلى الأصوات التي تهتف لها، لأن نجاحها يكون موضع تساؤل: ما وراءه؟ ما معناه؟ ما غايته؟

- ٢٨ -

كان هزيود الشاعر يقول: "أخفت الآلهة عن البشر ينابيع الحياة".
أسألك، اليوم، هزيود:
"هل تعرف من يخفي عنا نحن العرب هذه الينابيع؟ هل تجرؤ أن تسقيه؟".

"الثورة" في الممارسة العربية: ذنب وحقل في جسم واحد.
و"النظام" في الممارسة العربية: سجن حتى في الهواء الطلق.

للزمن في هذا المكان رائحة كريهة.
غريزة الفك هي فيه الأمرة الناهية.

دائماً أقرع باب اليأس، ودائماً يطردني، صارخاً في وجهي:
"لن تدخل بيتي".
لكن، لماذا أشعر أنني لن أشفى منه؟

إن صخ ما يقوله شاعر عربي قديم: "وشر البلية ما يضحك"، فإن البلية
الأكثر إضحاكاً اليوم هي:
تركيا "العثمانية" تقود العرب من جديد!

كان تاسيت المؤرخ المشهور يقول: "التاريخ قذر".
هل هذه الصفة، اليوم، كافية؟

كان الأقدمون يقولون: الإنسان خارج المدينة، الإنسان الذي ليس له قبيلة أو بيت أو عائلة، إنما هو أحد اثنين: غول أو وثن. أوديب، أورست، عوليس، وقبلهم إنكيدو، أمثلة على ذلك.

هكذا حرص الإنسان منذ نشأته على بناء مدينة يسكنها ويعمل ويبدع فيها.

عندما ننظر اليوم إلى كثير من المدن العربية، وكثير من المدن في مختلف بلدان العالم، يشعر بعضنا أنه مليء بهواجس تدفعه إلى أن يتساءل: هل هذا الكلام الذي كان يقوله الأقدمون لا يزال صحيحاً؟ مثلاً، ما المدينة العربية اليوم؟

أهي مكان مسكون بالأفراد الأحرار العاملين المبدعين، أم هي، على العكس، مكان مسكون بـ"الجماعات" و"الطوائف"، و"القبائل" و"القرابات"، و"المصالح"؟ أهي علوم وأداب وابتكارات، أم هي، على العكس، "دكاكين"، و"أسلحة"، و"حروب"، و"قتلى"؟

وليست المدينة مجرد مكان يقيم فيه أفراد أو ليست مجرد طبيعة. المدينة مكان - نظام، مكان منظم: حياة اجتماعية - سياسية، وفقاً لقوانين يقبلها سكانها، ويطبقونها، ويدافعون عنها. إنها كل لا يتجزأ: كل لا يتألف من مجموعات عذة، أفراداً أو وحدات (عشيرة، عائلة، قبيلة... إلخ). كل تنظيمي يتساوى فيه لأفراد، وتديره أجهزة القوانين والمبادئ التي تدير الحياة السياسية وتنظمها. المدينة مؤسسة، وسكانها هم في أن: مؤسسون و"مؤسسون".

حين نقول: مكان - (مدينة)، نضم، إذاً، في هذا القول، في ما وراء السطح الجغرافي، ثقافة وسياسة. نضم كذلك معاني ودلالات. منذ أن نفكر، مثلاً بدمشق - المكان، نفكر، تلقائياً، بجامعة الأموي الكبير كأنه عنصر أول من عناصر هويتها، أو كأنها ليست موجودة إلا به. نفكر بالحميدية - سوقها التجارية المسقوفة، البديعة. نفكر بباب توما، حيث تأخذ هويتها في الزمر الحاضر بعداً تاريخياً فريداً. ونفكر، قبل هذا كله، برموزها التاريخية العظيمة: يوحنا فم الذهب، معاوية، محيي الدين بن

عربي، تمثيلاً لا حصراً. هكذا نفكر بما يُعطي لدمشق - المكان بعداً إنسانياً: بعد العمل والإبداع، بعد الحضارة، وبعد التاريخ. إذاً، دمشق المكان هي، في المقام الأول، دمشق - المكانة. فإذا قلنا: "مدينة" - لا نعني، في المقام الأول، "المبنى"، بل "المعنى"، ودون أن يكون هناك مبدئياً، انفصال بينهما.

- ٢ -

عندما نقرأ ما يقوله شاعر عربي قديم: "وكل مكان يُنبث العز طيب" فإننا نقرأ في هذا القول أيضاً: "كل مكان لا يُنبث العز مكان سيئ". وأسوأ ما في المكان أن يكون كل شيء فيه مفروضاً سلفاً: تلبس لباساً مفروضاً، وتفكر بطريقة مفروضة، وتمارس السياسة ضمن أطر مفروضة... إلخ.

وما يكون الإنسان في مثل هذا المكان؟ وأين رغباته وميوله؟ وأين طموحاته وتطلعاته؟ وأين حزيته وإرادته؟ مكان الإنسان أو وطنه هو حيث يشعر أنه يحيا ويعمل ويفكر بحرية كاملة.

و"كل بلاد أوطنت، كبلادي": يقول أيضاً شاعر عربي قديم. وإذا لم يكن الإنسان حراً في "جسمه"، فلن يكون حراً في "نفسه". حزيته "الداخل" في الإنسان مشروطة بحرية "الخارج". فإذا كان "الجسم" مقيداً، بشكل أو آخر، فسوف يكون "العقل" هو أيضاً مقيداً، بشكل أو آخر.

- ٣ -

المكان مساحة "نفسية" إلى جانب كونه مساحة "جغرافية". ليس له، إذاً، تحديد ثابت ونهائي. فهو متحرك ومفتوح باستمرار للتغير المتواصل. كأن المكان - المدينة "حوض" خصب لأجنّة، وولادات دائمة.

ما "الحوض" الذي تتقلب فيه الآن المدن السورية، مثلاً؟ حمص تترنح على خيط منسوج من الضباب والزمل. حماة ناعورة أوجاع وأنين. اللاذقية سفينة في مهب إعصار تئيني. وربما لم تعد حلب تعرف كيف تمذ يدها لتصافح أختها أنطاكية، أو صديقتها الأولى: البندقية.

وقولي يا دمشق: لماذا تحبين أن تظلي ساحة ضخمة ومفتوحة
لقوافل القازات؟

من بعيد أنظر إليك، وأقول المكان كيان. وسط يتم فيه الوجود
والمصير. أنظر إليك وأسأل: هل أصبحت مجزأة ذاكرة وذكريات؟ ولماذا
يحب التاريخ فيك أن يتحول إلى نعامة، وتحب النعامة أن تتحول إلى
مائدة يحيط بها "ذوو العلم والفضل" لكي يرثلوا مدائح "الأبواب العالية"؟
من بعيد، أتخيل نفسي فيك. لا أحب أن يراني أحد فيما أتكئ على
بؤابة الحميدية، سابحاً في نهر أوجاع متنوعة، لا يراه أحد غيري. أظن أن
الفراشات والعصافير شقية في حقولها، فيما ترقص مع النجوم العناكب
وحشود الثعابين. وأشعر أن تحت قدمي رملاً أحمر وأن أمواج ذكرياتي
تتلاطم جزراً ومداً.

- ٤ -

كلا، لن تقدرني أن تجرني هذا الرمل يا أمواجي. ولست قادرة حتى على
غسل قدمي. كيف تقدرين، إذاً، أن تمزي على عتبة القبو الذي كان مكتبي
وفراشي في القضاة؟ كيف تقدرين أن تكرري عليه باسمي تحية الوداع؟
ولماذا، عندما أتخيله الآن لا أرى إلا أطفالاً يسيل مخاطهم؟ وإلا أكياس
النفايات المثقوبة، المبعثرة حوله، والتي تخدش كل يوم وجه الفجر؟
ألهذا أتذكر دائماً، عندما أتذكر هذا القبو، كيف كنت أشعر أن الليل
مقبرة، والنهار سجن، والمدينة ظلام، وهيهات أن يأتي النور. وعندما
أتلفس الآن كتفي، وجعاً، أقول للرطوبة التي لا تزال مقيمة فيهما: أسرفت
كثيراً في طعني، وأسرفت كثيراً في الاستهتار بك.
وما شأن الرطوبة الدمشقية التي تدب الآن لا في كتفي العروبة،
وحدهما، بل في أعضائها كلها - بدءاً من الشرايين؟

أشباح لا من المخيلة. من التاريخ واللغة. من القنابل والرصاص. من
أصدقاء الظلمات وبائعي النجوم. باطمئنان تتمترس هذه الأشباح وراء
كلمات تهبط عليها من أبجديات تتمرن على غزو الفضاء. ولا مكان لها.
الأمكنة كلها تحت أقدامها.

أشباح - خذوا الكتب كلها واطرحوها على موائد الفث، مسقوفة
بالضفائن وانتزهات. خذوا هذا الكرسي وأفسحوا للظاعون أن يتخذ
عرشاً. ولا تنسوا: قولوا للشوارع، باسم الحزبة، اضطربي وهذي.
الحزبة متاع هي أيضاً.

عالمٌ - ذنابٌ تتقاسم الفرائس. فرائس تسبح لمجد أكلها. دمن، عرباتٌ
ملوثة، عكاكيز، أنابيق، دبابيس ذهبٍ وفضة: يُخنَّق البشز من أجل بعوضة
اسمها الفضة، من أجل ثعبان اسمه انذهب. أكاذيب تبتكر أبجديات أخرى
- واقعاً، وحناجر، ولغات. لا مكان لها. الأمكنة كلها بين أظافرها.

- ٥ -

"إني لأفتح عيني حين أفتخها
على كثير، ولكن لا أرى أحداً"
يقول أيضاً شاعرٌ عربي قديم.
قشٌ في شكل سلة. خشبٌ في هيئة صندوق. فولاذٌ في صورة سيف.
حديدٌ في صيغة خوذة: جيوشٌ تزحف، لا أقدامٌ لها ولا سلاحٌ بين أيديها
إلا الموت. اليوم عطلة، والمقبرة عيد، والموتى - كلٌ في عرس، وكلٌ يتهياً
لكي ينضم إلى وليمة اشهوات: القتل، القتل، القتل.

"لفظة" أعذرُها، وأعتذر منها

- ١ -

تقولون: العدالة هي الفضيلة الأولى في المؤسسة الاجتماعية.
تقولون كذلك: الحقيقة هي الفضيلة الأولى في التفكير والنظر.
لكن ما صحة هذا القول، عملياً، في المجتمعات التي تنتمون إليها؟
المؤسسة الاجتماعية فيها، أو في معظمها، لا تعرف العدالة إلا بوصفها
"حساباً"، و"معادلة" وذلك بسبب من تبعيتها للسياسة، وخضوعها للنظام.
إنها عدالة الانحياز السياسي، وهذه ليست إلا "ظلماً" آخر.
أما عن الحقيقة فهي أقل حضوراً، في هذه المجتمعات، من العدالة.
ويدفع الأشخاص الذين يجهرون بها، أو بما يعتقدون أنه الحقيقة، ثمناً
غالياً جداً قد يكون، أحياناً، حياتهم ذاتها.
ولكم أن تتصوروا بؤس المستوى الثقافي والأخلاقي والسياسي في
مجتمعات لا عدالة فيها ولا حقيقة.

- ٢ -

مجتمعات ثيوقراطية - دكتاتورية. اسلطة فيها هي كل شيء. وكل شيء
من أجل تمكينها، وحمايتها، والدفاع عنها. المعارضة فيها، أيّاً كانت، منبوذة
كلياً، وثقذ خيانة أو تأمرأ. فأصحاب هذه السلطة لا ينظرون إلى الإنسان
إلا بوصفه "موظفاً"، و"أجيرأ" و"آلة". وتبعأ لذلك، لا يحق له أن "يختلف"،
أو يكون "مستقلاً" في فكره، ورايه.
كأنما ليس له جسم. كأنما وُضع، منذ ولادته، في سجن متحرّك: يتخذ
جميع الأشكال - سريرأ، مدرسة، كتابأ، طريقأ، بيتأ... إلخ. لهذا يعيش
"وعي" الإنسان في "وادي غير ذي زرع"، ويعيش "جسفه" في وادي، هو
كذلك، "غير ذي زرع".
... ثم تتحدثون عفا تسقونه "التسامح".
كلأ لا تقوم الإنسانية السوية على التسامح، وإنما تقوم على المساواة.

- ٣ -

يَعْلَمُكَ أَصْحَابُ هَذِهِ السُّلْطَةِ أَنْ تَنْفَصِلَ عَنْ "وَعِيكَ": أَنْ تَكُونَ صَدِيًّا، أَوْ
ظَلًّا، أَوْ إِسْفَنَجَةً. أَنْ تَكُونَ أَيَّ شَيْءٍ، إِلَّا "حَقِيقَتَكَ".
تَعْلِيمٌ هُوَ نَفْسُهُ ذُو سُلْطَةٍ مُسْتَفْذَةٍ مِنْ أَبَارِ تَارِيخِيَّةٍ وَفِكْرِيَّةٍ، عَتِيقَةٍ
وُخْفِيَّةٍ وَرَاسِخَةٍ.

تَسْأَلُنِي عَنْ حَالِي أَيُّهَا الْقَارِئُ؟
لَا أَقْدِرُ أَنْ أَتَقَبَّلَ هَذِهِ السُّلْطَةَ، وَلَا أَنْ أَصْبِرَ عَلَيْهَا. دُونَ ذَلِكَ، سَأَكُونُ
خَائِنًا لِنَفْسِي: عَقْلًا، وَجَسْمًا.
طِينَتِي، فَوْقَ ذَلِكَ، حَازَةٌ. وَصَبْرِي سَرِيعُ النِّفَادِ.

- ٤ -

هَكَذَا، حِينَ يَنْبَغِي عَلَيَّ، أحيانًا، أَنْ أَعْزِي جَسْمِي - الذَّكَرَ، لِسَبَبٍ أَوْ آخَرَ،
أَقُولُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى أَحْوَالِ الْجَسْمِ - الْأُنْثَى. انْظُرْ إِلَيْهِ مُرَبَّوْطًا بِجَدَائِلِ
اللُّغَةِ، يَتَدَلَّى عَلَى صَفْحَاتِ كِتَابٍ ضَخِيمٍ، أَوْ عَلَى عَمُودِ نَجْمَةٍ بَيَانِيَّةٍ. انْظُرْ
إِلَيْهِ مُقْذَدًا فِي رَوَاقٍ، أَوْ تَحْتَ خِيْمَةٍ، يَجْزُهُ النَّعَاسُ إِلَى غُرْفَةِ النَّوْمِ، لَكِي
يُؤَكِّلَ كَأَنَّهُ قَرَصَ حُلُوى.

بَلَى، يَأْكُلُ الْجَسْمَ، ذَكَرًا وَأُنْثَى، لَا فِي الْفِرَاشِ وَحْدَهُ، بَلْ أَيْضًا، وَأَوَّلًا،
عَلَى الْمُنْدَةِ الَّتِي تَمْدِّهَا الْعَادَاتُ وَالتَّقَالِيدُ، الْمَعْتَقَدَاتُ وَالثَّقَافَاتُ. هَذِهِ الَّتِي
تَعْلَمُنَا أَلَّا نَفْكَرَ حَتَّى فِي الْأَسْمَاءِ إِلَّا بِمَلَاعِقِنَا؛ وَتِلْكَ الَّتِي تَرْفُضُ أَنْ تَقْرَأَ
الْكُوءَ إِلَّا بِضُرُوعِهَا.

- ٥ -

يَقُولُونَ: طِينَةُ هُوَ الْإِنْسَانُ، حَالًا، وَغُبَارًا مَالًا. وَفَقًّا لِقَانُونِ الْوُجُودِ وَالْمَصِيرِ.
أَعْذِرُ أَمْ غِزَاءٌ؟

هَا هُوَ كُلُّ مَنْكُمُ يَعِيشُ فِي هَذِهِ الْمَجْتَمَعَاتِ، وَيَمُوتُ لَا بِوَصْفِهِ حَرَكَةً
بَلْ بِوَصْفِهِ جَمَادًا. يَسِيرُ لَا بِقَدَمِيهِ بَلْ بِقُوَّةِ تَدَبُّ فِيهِمَا آتِيَّةٍ مِنَ الْغَيْبِ.
يَتَكَلَّمُ، لَا بِلِسَانِهِ، بَلْ بِأَلَةٍ تَحْضُرُ بَيْنَ شَفَتَيْهِ، آتِيَّةٍ مِنَ الْغَيْبِ. يَرَى لَا بِعَيْنِيهِ،
بَلْ بِعَيْنَيْنِ دَاخِلَهُمَا، آتِيَتَيْنِ مِنَ الْغَيْبِ.

أَلْفُ نُونٍ سَيْنُ أَلْفِ نُونٍ: مُجْزَدٌ حُرُوفٍ، مُجْزَدٌ لَفْظَةً.
وَمَاذَا تَفْعَلُ هَذِهِ "الْلفظة"، إِذَا مُنَحَتْ، بِقُدْرَةِ مَا، شَرَائِيْنٍ وَأَوْرَدَةٍ، وَسَالَ
فِي "جَسْمِهَا" دَمٌ آخَرَ، يَدْبُ نَمْلًا جَنْسِيًّا فِي أَعْضَانِهَا، وَفَتْخَ أَوْكَارًا تَحْتَ

بشرتها، ونصبَ خياماً، ورفع أعلاماً وقال: إنه العرس؟

– عفواً. هل تهذر؟ هل تهذي؟

– أقول، بالأحرى: هُوَذا، أخيط ثوب الحلم بإبرة الواقع. أجمع الواقع

مرأةً مرةً أكذبها في المخيلة، وأرى إليها كيف تحلّ محلّ الوجوه.

لكن، قلبي أيتها المرايا، ماذا يُقالُ لنرسيِس عندما يمتلئ وجهه

بالتجاعيد؟

كلما تذكرت عبارة "الباب العالي" تحضر في ذهني مباشرة عبارة "المقبرة". ربما لأنني أمضيت أيام طفولتي الأولى مطوقاً بأخبار الحروب التي ظلت تتردد في ذاكرة الناس فترة طويلة عبر العبارة التركية: "سفر برل" وأخبار قبورها، وأشكال العنف التي ابتكرها نظام "الباب العالي" آنذاك، وبأخبار الأشخاص الذين قُتلوا فيها، وبينهم أنسباء لي يتقدمهم جدي لأبي الذي مات في اليمن: مات كمثّل كثيرين غيره في حرب، أخذ إليها عنوة، وقتل فيها من أجل "الباب العالي" - ومن أجل أهداف لا تعنيه في أي شيء.

كان مجزّد شخص جُند بالقوة للقيام بحرب ليست له، وليست منه، ودون أي مقابل، على العكس من زمننا الحاضر، إلا لقمة الخبز لكي لا يموت جوعاً وينقص عدد المحاربين. هذا كلّ، إضافةً إلى أخبار الهرب من الحرب، أي من "جيش الباب العالي". وهو هرب كان الذين يقومون به يبتكرون له أشكالاً متنوعة، بينها اصطناع الموت، اختباء بين القبور، حينما وُجدت لمقابر، أو اختباء في الكهوف وفي الغابات والجبال.

أضيف إلى هذا كله أخبار المجاعة الشهيرة والجوع الذي كان يدفع الناس، وبينهم عائلتي نفسها وجيرانها، وسكان قرينتنا جميعاً، لكي يكتشفوا من جديد ما لم يصل إليه القحط والجفاف في الحقول والبراري، من الأعشاب والنباتات التي يمكن أن يقتاتوا منها. ولم يكن آنذاك في إمكانهم أن ينزحوا إلى بلدان أخرى تستقبلهم، مرخبةً مشجعة. وهذا ما تذكر به الأحداث الجارية اليوم في سورية، والأحداث التي جرت قبلها في العراق ولبنان، مذكّرة في الوقت نفسه بعبارة "الباب العالي"، ومشتقاتها، والتنويعات عليها، وما ترمز إليه سياسة، وثقافة، واجتماعاً.

تاريخياً، في الماضي قبل ظهور الوحدةانية، كان كثير من الناس يقبرون موتاهم في منازلهم. كان القبر امتداداً للمهد، أو صورة له. بعبارة ثانية، كان

البيت في أن مكاناً لحياة الإنسان وموته.

بعد ذلك، واهتماماً بالمدينة وصحتها، عمل الناس على نقل القبور إلى خارجها، وتخصيص أمكنة معينة حولها مرتفعة إن أمكن. غير أن توسع الحياة في المدينة كان يبتغ هذه الأمكنة، وسرعان ما كانت المقبرة فيها تتحول إلى ما يشبه "حياً" من أحيائها. هكذا كانت المدينة تصبح "مدينة الموتى" هي أيضاً، امتداداً لمدينة الأحياء، أو تنوعاً عليها، أو شكلاً من أشكالها. أذكر، على سبيل المثال، مقبرة قصابين - القرية، ومقبرة جبل - المدينة.

اليوم فاضت الحياة. غير أن الموت فاض هو كذلك. بل لعله صار أكثر فيضاً. صارت البلاد كلها مدينة واحدة، تقريباً، وصار الموت (بأنواعه كلها) نظاماً آخر: له أحياء خاصة، ومناطق خاصة، وطرق خاصة. وبه أيضاً قلاعُه وجنودُه. وربما "نهض" من "لحده"، بين وقت وآخر، وأقام حواجز، واختار أشخاصاً معينين "يخطفهم"، ويقتلهم، بتفنٍ لتزداد متعة القتل.

ويشتد الصراع اليوم، خصوصاً في البلدان التي يسقيها المتمذنون الغربيون والشرقيون "بلدان العالم الثالث"، وبالأخص بلدان لعالم العربي - الإسلامي، بين جيوش "المدن الحية" وجيوش "المدن الميتة". وكما يختلط الأحياء هناك وهنا، يختلط كذلك الموتى هناك وهنا.

كأن هذه البلدان لا تعرف أن تتكلم بأسستها، بل بأسلحتها. الألسنة "مفروضة" بقوة الاجتماع والتاريخ، بينما الأسلحة مُختارة و"مبتكرة"، و"مفروضة" هي أيضاً، لكن بقوة الخارج.

هكذا "تبدع" هذه البلدان في فنون القتل. وهي فنون جديدة بأن يؤرخ لها حقاً. وليس القتل "مادياً" فقط، وإنما هو كذلك معنوي. وتشترك فيه "الأنظمة" و"المعارضات" على السواء: لست "موجوداً" عندها جميعاً إلا بوصفك "موالياً". فأنت إذا كنت حزاً "منبوز" أي ميت، معنوياً، ومرشح لأن تموت مادياً. أنت في الحالين "مستخدم" أو "موظف". ومن كونك كذلك تستمد قيمتك.

- ٣ -

اليوم يُعنى المتفننون في القتل بالناحية الجمالية في المقبرة، وبالطريقة التي يجب أن يُساق إليها المقتولون. خصوصاً أن المقبرة "توسعت" دلالاتها. لم تعد محصورة في معناها القديم: حفرة، فشادة، فسور يحيط بها. صارت أكثر انتماء للهواء الطلق - ولمخيلة القاتل، ونزواته. ولم يعد

من الضروري أن يكون جسم المقتول جثماً كاملاً وغير مشوه: على العكس، أصبح جزءاً من "الابتكار" أن يُقَطَّع هذا الجثمان إلى أجزاء: الرأس، اليدين، الجذع، الفخذان - وهذه كلها تُبَغَّر في الرياح الأربع لكي تذورها، ولكي يسهل على الفبار أن يزدردوها.

ويتم هذا التقطيع إمعاناً في تجريد القتل من إنسانيته أو من كونه إنساناً. وهذا أمر لا يقزه علماء الحضارات، وإن أقزه اليوم كثير من علماء الأيديولوجيات والثورات، عند العرب. كانت المقابر بالنسبة إلى الأوائل تكشف، بالهياكل العظمية التي ترقد فيها، عن تاريخ الإنسان، وعن تطوره وابتكاراته. أما علماء اليوم المختصون بالثورات والأنظمة والدكتاتوريات فهم أكثر ميلاً إلى إلقاء المقابر. لأن موت الإنسان في ذاته لا يعنيههم. يعنيههم "انتصار القضية". والأفضل بالنسبة إليهم أن تُطرح جثامين القتلى وأشلأوهم في أحضان الطبيعة، للاعتبار، وأن تُترك طعاماً هنيئاً لأبناء الطبيعة: النمل وبقية الأخوة.

وقد ذهش أحد علماء الآثار والحضارات عندما سمع بأمر هذا التقطيع من شاهد عيان، وكنت بالمصادفة حاضراً، وتساءل: كيف يقدر كائن بشري أن يقطع بالسكاكين كائناً آخر مثله، حتى بعد قتله، لمجرد أنه يخالفه الرأي؟

وكانت القبور في الماضي تنطوي على شهادات ثمينة عن الحياة الخاصة للميت. أما اليوم فإن حياة الإنسان لا تعني شيئاً، بل إن موته مفضل في أحيان كثيرة. لكن إن سألت قاتلاً: لماذا تقتل شخصاً بعينه دون آخر؟ فإنه يجيبك باعتزاز: اختار الشخص الذي أقتله استناداً إلى الأجوبة التي يقدمها على الأسئلة التي أطرحها.

- ما هذه الأسئلة؟

- تدور حول اسمه، وحول العائلة التي ينحدر منها، وحول الطائفة التي ينتمي إليها، وحول الأشخاص الذين يصادقهم والحزب الذي يعمل فيه، وحول معتقده، وحول الدين الذي يؤمن به.

طبعاً هذه أمور لا تجدي علماء الحضارات والآثار إلا في دراسة كيفية تحوّل الإنسان أو تحويله إلى وحش - سواء كان قاتلاً أو مقتولاً. ومن المؤكد أن المؤرخ العربي (إن بقي هناك مؤرخون صادقون وحقيقيون) سوف يحار في التاريخ لحياة العرب في العصر الحاضر: هل يكتب عن ثقافة الحياة، أم يكتب عن ثقافة القتل؟ وسوف يزداد حيرة إذا أراد أن يكتب تاريخاً يتجاوز السرد والتوثيق، إلى التأمل والتحليل، وعندما يرى خصوصاً أن ثقافة الموت والقتل أكثر ازدهاراً من ثقافة الحياة، وأن عالم

الموت أغنى وأوسع وأجمل عند بعضهم من عالم الحياة. وعندما يسمع، على الأخص، أوامر من "الأبواب العالية" تقول: نعم يجب التضحية بالإنسان من أجل الخطة - القضية. أياً كان الوضع في ما يتعلق بالباب العالي: عودة إليه، أو عودته هو، فإن المسألة الأساسية هنا هي:

من يصنع "مفتاح" الباب العالي، و"قفله"، ومن "يحرسه"، ومن "الشركاء"؟ خصوصاً أن البلدان العربية الإسلامية لم تخرج من "الأنفاق" القروسطية، ولا تزال تفرع باب المستقبل بقبضة المذهب، والقبيلة، والعشيرة، والعائلة، والطائفة، والعرق... إلخ.

أما لماذا لم نصل بعد، نحن العرب، إلى القبول، مؤسسياً، وعلى جميع الأصعدة، بالتنوع والتعدد والاختلاف، داخل المعتقد الواحد، فأمر يبدو أنه لا يشغل إلا فكر قلة من النابهين. ولا يزال المنطق السائد في حياتنا اشتراطياً - إلغائياً: إما أنت وإما أنا. معي أو ضدي: واحدة عمياء.

يحدث هذا كله، ونمارسه، مع أننا موضوعياً وواقعياً، نعيش في مجتمعات متنوعة (العراق، سورية، لبنان، فلسطين، الأردن، المغرب، الجزائر، مصر، السودان...) ومتعددة دينياً، وثقافياً وإثنيّاً. وهذه فرادة عظيمة ونادرة. وبدلاً من أن تنطلق ثوراتنا من هذا الواقع الحي، الغني، والتأسيس له، مدنياً، سياسةً وتشريعاً وثقافةً، يتم الانطلاق، على العكس، من رؤية دينية - قروسطية تغلب منطق "الفتوحات" على منطق "الحياة". إنها الرؤية الواحدة "الإكراهية"، القائمة على الاكثريّة العدديّة. وهذا في الواقع ليس تأكيداً للحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان، وإنما هو انتصارٌ للثيوقراطية، ولديكتاتوريات من نوع آخر، تجتث أصول الديموقراطية، حقوقاً وثقافةً. وهكذا نتقل من طغيان إلى طغيان، ومن ديكتاتورية إلى أخرى مشابهة أو أكثر عنفاً وظلاماً. وهو ما عشناه في تاريخنا كله، ونعيشه اليوم، ونخطط لكي نعيشه إلى أبد الأبد. آمين.

- ٥ -

ربما ندرك الآن "طبيعة" الدوافع التي تحرك السياسة الغربية، أميركياً وأوروبياً، للعمل على تحويل البلدان العربية إلى "ساحة ثيوقراطية"، تقودها سياسة دينية، "واحدية". ولئن كانت العلمانية في نظر بعضهم قضاءً على "الكاهن"، فإن الثيوقراطية قضاءً على الإنسان. لا مواطنة في الحكم الثيوقراطي، بل تبعية مطلقة.

موضوعياً، تبدو هذه السياسة الغربية كأنها تنظر إلى العربي بوصفه "كائناً - أجنبياً"، عدواً بالقوة، ولا يعنيه من أمره إلا أن "تستثمره"، بشكل أو آخر، بطريقة أو أخرى. إنه مجرد "أداة". المهم، بالنسبة إليها، هو كيف تسيطر على أرضه وقدراته وثرواته. والأفضل، إذاً، بالنسبة إليها، أن يواصل العودة إلى الوراء، وأن يظلّ سجين التعصب والتخلف، وفريسة متواصلة للتآكل الداخلي المتواصل.

لحسن الحظ أن هناك مفكرين غربيين، أميركيين وأوروبيين، يدينون هذه السياسة ويتبرأون منها. ولسوء الحظ أن معظم العاملين العرب في حقول الكتابة السياسية، اليوم، يصفقون لهذه السياسة ويدافعون عنها، بحجة أو بأخرى. هذه بليّة حقاً، غير أنها تُضحك بقدر ما تُبكي.

على هذا المستوى، وفي هذا الإطار السياسي الثقافي، يمكن القول إن هذه السياسة الأميركية الأوروبية الخاصة بشؤون العرب إنما هي "باب عالٍ" آخر، وإنها تبعاً لذلك تتيح القول إن أصحاب هذه السياسة هم جزء عضوي من "بؤس" العالم الثالث، وبؤس العرب، خصوصاً.

”الأصول” التي تُعطل الحياة... وتأسر العقول (11)

(11) على هامش ما أثير حول حديثي في التلفزيون إن بي سي.

- ١ -

لكل ثقافة ”أصولها“. غير أن أهمية هذه الأصول ليست في أن تبقى ”ثابتة“، كما كانت في نشأتها. إنها، على العكس، في قابليتها أو قدرتها على التكيف والتحول مع التغيرات الزمنية والتاريخية في جميع الميادين. ويؤكد الحراك الثقافي والسياسي والاجتماعي في المجتمع العربي أننا نحن العرب، خلافاً لجميع الشعوب، منفردون في أصولنا إلى درجة لا نُعتقل فيها حياتنا، وحدها، وإنما نُعتقل كذلك عقولنا.

هكذا ازداد يقيناً، منذ صدور كتابي الثابت والمتحول في مطلع سبعينات القرن الماضي، أنه يتعذر فهم الجغرافية الاجتماعية الثقافية في المجتمع العربي، عملاً وفكراً، إلا في ضوء فهمنا جغرافيته السماوية - الدينية، معتقداً ومالاً. ويتعذر، تبعاً لذلك، أيّ تغييرٍ خلاقٍ على الأرض، إلا إذا تم التحرز كلياً من القيود التي تفرضها الأصوليات، في مختلف أنواعها، على الحياة والفكر.

اللافئ الغريب العجيب هنا هو أن جميع الحركات التي قامت في المجتمع العربي، باسم تمدينه وتحريره، على نظريات ”ثورية“ سياسية، أو ”ثورية“ فكرية، منذ بدايات القرن التاسع عشر حتى اليوم، تحولت هي نفسها، في معظمها، إلى ”أصول“ ثابتة، كما لو أنها هي الأخرى أصول ”ميتافيزيقية - دينية“. هكذا نبذوا نحن العرب، بعد حوالي خمسة عشر قرناً، كأننا لم نخرج بعد من سرير طفولتنا الأولى.

- ٢ -

من أين تجيء قوّة ”الأصل“؟

من ضمور الطاقة الخلاقة أو ضعفها عند الإنسان؟ من الانشداد غريزياً ونفسياً إليه، بوصفه منشأ كاملاً، وماضياً كاملاً ومثالياً؟ أم من شيء آخر يحتاج إلى تأملٍ طويلٍ وبحثٍ طويلٍ؟

أياً كان الأمر، فنحن العرب ننظر إلى "الأصل" بوصفه رمزاً للوجود - الحياة، وللمصير - المعاد، وبوصفه موطن الحقيقة التي لا حقيقة بعدها، أو التي هي "أم" الحقائق جميعاً. ولهذا ينحصر معنى الواقع في كونه مجال اختبار لتطبيق ادلالات والمعاني التي ينطوي عليها هذا الأصل. أولئك الذين قاموا بالحركات الثورية، التي نُشرت اليها، اتخذوا من فكر الثورة، كل بحسب اتجاهه. "أصلاً" - لم يكن، في العمق والممارسة، إلا شكلاً من أشكال الأصول الدينية. هكذا كان كل منهم يرى أن "الخلاص" كامن في الأصل الذي يؤمن به، ويدعو إليه، وليس الإيمان بغيره إلا طريقاً لا تؤدي بصاحبها إلا إلى "الجحيم". ربما نجد في ذلك ما يفسر صراع هذه الحركات، الذي كان صراع "تكفير" فيما بينها، لا صراع "تفكير" و"انفتاح" و"تأزر" في المشترك المعلن بينها، وهو العمانية والمدنية على الأقل، وإنما كان صراع "إقصاء وإلغاء". ربما نجد فيه كذلك ما يفسر اقتتالها، الوحشي غالباً، و"أكل" بعضها بعضاً، شأن "الفرق" الدينية.

وكما أن الضوء الذي ينبجس من جغرافية السماء هو، وحده، الذي يضيء، في نظر أصوليي الدين، جغرافية الأرض (البشر، الثقافة، القيم، العلاقات... إلخ)، فإن ضوء "الثورة"، في نظر أصولييها، هو وحده الذي يبذد ظلمات العالم، ويحقق التقدم.

وعلى هذا تتأسس الثقافة الأصولية (الدينية، والثورية): المسألة فيها ليست كيف نسأل ونفهم ونكتب، وإنما هي كيف نؤمن ونبشر ونجتذب. القيمة هنا ليست في الشيء بحذ ذاته، ليست "فكرية" أو "فنية"، وإنما هي "تبشيرية". الذين، الفكر، الفن - هذا كله يتحول في هذه الثقافة "الأصولية" إلى نوع آخر من "المال"، أي إلى "وسائط" و"وسائل".

- ٣ -

يفترض التفاعل بين "الأصل" و"الواقع" مسافةً بينهما يلغياها الفكر الأصولي، بشكليه الديني والثوري. ويحل الأصل محلّ الواقع. هكذا تتحول ثقافة الأصل إلى أعمال وأقوال طقوسية تملأ ساحة الواقع، بحيث يحلّ "المشهد" محلّ الواقع.

يبدو الذين، اليوم، مثلاً (لا في البلدان العربية - الإسلامية، وحدها، وإنما في العالم كله، تقريباً)، كأنه ليس تجربة روحية - إنسانية، تجربة أعماق وكشوفات وإبداعات في المجالات الإنسانية - اللاهوتية، وإنما هو، على العكس، نشاطات مشهدية - طقوسية، أو هو ميدان للقيام بمثلها، كما

هو الشأن في الثورات السياسية والفكرية. لا نرى في الحاليين إلا "الأعياد" و"الأعراس" و"الولائم" و"المسارح"، ولا نرى وراء ذلك إلا إرادة السلطة. لا نرى أي تأمل كيان في الإنسان والوجود، وفي أحوالهما وأسرارهما، أو أي تطوع إلى تحقيق مزيد من الكشف المعرفي.

- ٤ -

يعتقد الأصوليون أن "الأصل" لا يتجدد، ذلك أنه هو نفسه التجدد، كما يعتقدون أيضاً. وهذا يعني أن "الأصل" ثابت، يشع ويضيء. يدور التاريخ حوله بوصفه بدءاً له، وبوصفه مركز الكون.

لكن، كيف لا يعي الأصوليون أن الأصل يتضيق بعد الممارسة حتى في نشأته وتكوّنه؟ والممارسة تاريخ. والتاريخ تغير متواصل بوصفه سيرورة للتعاقد والتحول. هكذا يتحول "الأصل" في الممارسة إلى "صورة" أو صور، تبعاً للجماعات ونزاعاتها وتناقضاتها وسياساتها. بل إن الأصل في الممارسة "ينشق"، وفي هذا الانشقاق ما يضيء نشوء العنف والظلم في صراع الجماعات من أجل أن تفرض كل منها ممارستها الخاصة، أو انشقاقها الخاص، وفهمها الخاص لهذا الأصل. ولا يحل هذه المسألة اللجوء إلى "التكفير" المتبادل، أو "النبد" و"التهميش" المتبادلين. القتل الفردي أو الجماعي هو نفسه كذلك لا يحلها. الحرب هي كذلك ليست حلاً. وهذا ما تؤكد التجربة التاريخية.

لا حل إلا في الحرية وبالحرية.

دون هذا الوعي، ستظل الثقافة الأصولية تدفع البشر إلى العيش والعمل والتفكير خارج الواقع الإنساني الموضوعي، وإلى إحلال الاستيهام محلّ الواقع. وستظل تحزّكهم لكي يتظاهروا بأن ما يملكونه حقاً ليس ملكاً لهم، أو بأنهم، على العكس، يملكون ما لا يملكونه حقاً.

إضافة إلى هذا كله، أو بفعنه، نلاحظ في الكتابات الأصولية أن الله مجزء "لفظة" وليس فكرة، وأن الواقع هو كذلك لفظة لا فكرة. وهو ما نراه عند الأصوليات الثورية التي حوّلت الثورة نفسها إلى مجزء "لفظة".

هذا العقل، في شقيه "الديني - الأصولي" و"الثوري - الأصولي"، أخذ في تحويل "الأصول" إلى معتقل، وتحويل العقل إلى مجزء آلة عمياء.

- ٥ -

يتأكد، في ضوء ما تقدم، وفي ضوء التجربة التاريخية، أو الوقوف عند الجوانب السياسية، وحدها، في الحركات الأصولية، وبخاصة ما اتصل منها بالعنف والإرهاب، أمر يكشف عن مسألتين:

الأولى، تتمثل في فهم الأصولية فهماً ضيقاً ومحدوداً، وناقصاً. والثانية، تتمثل في استمرار الفكر العربي المعاصر في عزوفه، بحجة أو بأخرى، عن مجابهة الأصول والأنس لتي بُني عليها المجتمع العربي، واستمراره في معالجة القضايا الإنسانية العربية، معالجة أفقية، سطحية، وذات طابع "ديني - تبشيري".

في هذا المنظور، يمكن القول إن الفكر العربي الحديث الذي يتصنى لبناء مجتمع عربي حديث، مدني وعلماني، إنما هو، باستثناءات قليلة ونادرة، جزء من مشكلات هذا المجتمع، أعني أنه "أصولية" أخرى، و"قيّد" آخر، و"حجاب" آخر.

- ٦ -

هكذا، يمثل الواقع العربي، اليوم، على الصعيد الفكري، حالة ثقافية عربية لم يعرفها العرب، سابقاً. فهو، من جهة، "واقع" لا يدرك إلا من حيث أنه "خيال". وهو، من جهة ثانية، "خيال" لا يدرك إلا من حيث أنه "واقع". إنه خريطة ترسمها وتعيد رسمها ريشة السديم.

- ٧ -

فلسطين قلب هذه الخريطة، وحبز من محابر هذا السديم: حبز خاص، غريب أليف، ملتبس واضح. وهو إلى ذلك ساخر وتراجيدي في آن. دم فلسطين يتدفق:

أما العين فلا تراه، وإنما ترى "السلطة" و"الزاية" و"الكرسي". وأما اللغة فلا تلامس إلا "المظهر"، ذلك "السلاح" الشاهر الحارس، في مختلف ثيابه وقُبُعاته.

وأما الآراء - الأحكام فلا تقترب من شيء في ذاته، بما هو وكما هو، وإنما تقف عند حدود "استخدامه" و"الإفادة" منه، و"وظيفته"، في "لغات" فائضة،

في شهوات لاقتناء ما لا حاجة له،

في "اختراع" غايات تفيض هي الأخرى عن الغاية الحقيقية،
و"تمحوها"،
في "واقع" ليس إلا زكام ألفاظ حول الموت الفلسطيني - العربي،
اليومي، المتواصل منذ أكثر من نصف قرن.

- ٨ -

العرب، اليوم، في ظلّ هذا "الواقع"، يعيشون في فراغ "واقعي". فراغ
يمكن أن يفسر، إلى حدّ، يقظة الاستيهام، والاستسلاف، والأصل. ففي ذلك
ما يتيح التوهم بأننا نمتلك بأحلامنا ما أضاعته أيدينا.
لكن هذه اليقظة محكومة، قطعاً، بأن تكون يقظة - فراغاً، بوصفها
نوعاً من العودة إلى الورا. كل عودة إلى الورا ارتكاش. أو هي شكل من
أشكال السقوط يُشبه لنا، لضعفنا وفقرنا، أنه شكل من الصعود.
يصير التوهم الجمعي هو نفسه الحقيقة، وتصير الألفاظ هي نفسها
المعرفة، وتصير الخصوصية الفردية خروجاً وهرطقة.
العماء، وفقاً لمنطق هذا "الواقع"، يجب أن يكون شاملاً و كلياً.
هكذا يفرغ الواقع من واقعيته ويتحوّل إلى "صورة" تتماهى مع
"الأصل": "صورة" تنطوي على كلّ شيء، وتجيب عن كلّ شيء. ولئن كان
"الأصل" أجاب في الماضي، كما يعتقد الأصوليون، فلا بُدّ، إذًا، من أن
تجيب "صورته" عن الحاضر وعن المستقبل.
ولا يكون الواقع مرجعاً أو معياراً. على العكس، تصبح الصورة -
الأصل المرجع والمعيار، لا في لسياسة وحدها، وإنما كذلك في الثقافة،
علومًا وأدبًا، حقوقًا وقيماً.
ولا يعود الحلّ يُلتمس في ما هو، أو في من هو، "حاضر" "حي" في
مُجمل شروطه، وإنما يُلتمس، على العكس، في "الغائب" وفي "الغياب"
خصوصاً، في "الأبطال" الذين ماتوا. لا يعود الحلّ، بعبارة ثانية، موجوداً
في الحياة، بل في الموت. ذلك أنّ الموت هو وحده الذي يوحد بين
"الصورة" و"أصلها" ويوحد بين "الجمع"، من جهة، والصورة - الأصل، من
جهة ثانية، خالقاً في الحالين "وهم" الحلّ.

- ٩ -

الصورة - "الأصل"، البطل - "الأب"، هو دائماً، تبعاً لمنطق هذا "الواقع"، "آخر" الأبطال، سواء كان سياسياً أو قائداً أو شاعراً، و"آخر" العظماء. وما أكثر "آخر العظماء" في تاريخنا العربي الحديث.

هكذا، تحلّ في المجتمع العربي الصورة - الأصل محلّ الواقع، متضمنةً الحقائق كلّها - لا جانبها الغيبي وحده، وإنما كذلك جانبها "الواقعي"، الإنساني. صورة - أصل: ثنائي يُنظر إليه بوصفه مُتعالياً حتّى في مُحايثته. ومعنى ذلك أن الحياة تكون تجسّداً لهذا الثنائي، أو لا تكون إلاّ باطلاً. لا يعود الكلام ذا معنى إلاّ بدءاً من هذا الثنائي: انطلاقاً منه، واستناداً إليه، تحقيقاً لاستيهامات الجمع والجماعة.

والحق أن الكتابة العربية الراهنة، بمختلف تجلياتها، وباستثناءات نادرة، لا تقيم علاقاتها مع الواقع، بقدر ما تقيمها مع هذه لاستيهامات. وفقدان الواقع الذي يحجبه هذا الثنائي هو، بمعنى ما، فقدان للذات.

- ١٠ -

الاصولي "الذيني" و"الثوري"، إذا، مأخوذ بتكوين الفرد المثبع، المقلّد، بتكوين الشبيه والقرين و"المثل":

ثقافياً، يعمل القائد الاصولي على إنتاج الفكر المُماثل،
فيزيولوجياً، يعمل "الأب" الاصولي على إنتاج الابن الذي ينشأ، مثله،
"أباً"، لا ابناً.

تناشَلُ ثقافي يتم بنوع من "الانشطار" الفكري،
وتناشَلُ فيزيولوجي يتم بنوع من الانشطار الخلوي،
ولا مكان هنا للأنتى إلاّ بوصفها رجماً.
إنكار كامل لكلّ تعددية، ولكلّ اختلاف.
كأنها ثقافة استنساخ من نوع آخر. وكأن التراث مجزؤ "شيفرة"
وراثية.

حقاً، المشكلة العربية الأساسية، من هذه الزاوية، هي، في المقام الأول،
فكرية - ثقافية.

وكل فكر أو أدب لا يُواجه، حتّى الزلزلة، ذلك الثنائي، فكر أو أدب لا
يُعوّل عليه. ولن يكون إلاّ جزءاً من المعضلة.

(جريدة الحياة، الخميس ١٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٩)

- ١ -

بعد سقوط زين العابدين بن علي وحسني مبارك، بفعل المبادرات الشعبية المفاجئة والمتنورة في تونس ومصر، وفي ضوء ما يحدث في ليبيا واليمن والبحرين، يتحتم على "الجسم" الثقافي العربي أن يعيد النظر في نفسه، رؤيةً وخططاً، وممارسةً.

خصوصاً أن ما حدث لم يكن مرتبطاً على نحو وثيق بهذا "الجسم". بل يبدو كأنه حدث في غفلة منه. إنه "جسم" بطيء الحركة، مُثَقَّلٌ بأعبائه الوظيفية، متصالح إجمالاً، توفيقياً وتلفيقياً، إجمالاً. سواء في هذا كله، أتقرب إلى السلطة ووالاها، أم ابتعد عنها وعادها. مع اختلاف في الأسباب هنا وهناك.

هكذا يتحرك، إذا تحرك، بطرق منقطعة وارتجالية، غالباً. مقتصر على ما يرتبط بالسياسة السياسية، غالباً. دون اهتمام بالأسس العميقة الكامنة وراءها، أو الكامنة وراء المشكلات العربية الكبرى في مختلف الميادين.

- ٢ -

المدار الأول لإعادة النظر في هذا "الجسم" هو موقفه من "واقع" الحريات، اليوم، في البلدان العربية، وداخل الثقافة التي ينتمي إليها، وينطق بلغتها. وكنت الحزبة الصرخة الجامعة العالية في ما حدث حتى الآن، بين جميع الذين نزلوا إلى الساحات والشوارع وهتفوا وغنوا. الحرية السياسية، خاصة. وهذه بالغه الضرورة والأهمية. غير أنها تبقى جزئية، وشبه شكلية، وشبه معزلة، إذا لم تقترن عضوياً بالحريات المدنية كلها، دون استثناء.

الإنسان حرية، أولاً، وقبل كل شيء.

قبل المجتمع، وقبل الوطن. قبل السياسة، وقبل النظام. قبل المعتقدات كلها، والأيديولوجيات كلها، أرضية وسماوية. بل إن هذه كلها تفقد معناها الإنساني وتصبح لغواً إذا فرضت من خارج. إذا لم تنبثق من الأعماق وفي أحضان الحرية.

تأسيساً على هذا المبدأ، لا تعود المسألة في المجتمعات العربية، ثقافياً وسياسياً، كامنّة في وجود المعارضة. تكون، على العكس، كامنّة في غيابها أو تغييبها. لا تكتمل حرية "المواالة" في المجتمع إلا بحريات "المعارضة". فحرية الذات لا تستمد قوتها وجدارتها إلا من حرية الآخر المختلف. إن لم تعترف به وبحقوقه وحرياته، فأنت لا تعترف بذاتك، ولا تكون حقوقك وحرياتك إلا اغتصاباً. لا تكتمل حريتي، اجتماعياً وثقافياً، إلا بحرية من يختلف معي.

المعارضة هي التي تُعطى للنظم جدارته السياسية، وتضفي عليه مشروعيته الاجتماعية. القضاء عليها ليس، في العمق، إلا قضاء على هذه المشروعية، وهذه الجدارة.

واحدية الرأي في المجتمع ليست مجرد استبعاد سياسي، وإنما هي كذلك استبعاد ثقافي واقتصادي واجتماعي. إنها استبعاد للإنسان. إنها شكل آخر لنظام الرق.

المعارضة في المجتمع هي جانبه الذي يسأل من أجل مزيد من البحث عن الأجوبة، وينقد من أجل مزيد من التكامل والصحة، ويتحدى من أجل مزيد من التقدم. إنها البعد الذي يدفع السياسة، دائماً، لكي تكون أكثر فاعلية، وأعمق إنسانية، وأكثر كمالاً في رؤيتها، ومخططاتها، وممارساتها. دون ذلك، يتحوّل المجتمع، سياسياً وثقافياً، إلى مجموعة من السجون، ويتحول، إدارةً وتنظيماً، إلى زرائب وقطعان.

تبعاً لذلك، لا بُد من أن ينتقل "الجسم" الثقافي العربي من طور "المواكبة" و"الاتفاق" إلى طور "المواجهة" و"الاختراق".

لم يعد النقد كافياً. لم يعد التهليل للرسالات النضالية كافياً. لم تعد التوصيفات والتحليلات هي أيضاً كافية.

لا بُد من المواجهة التي لا تكون أقل من الهجوم: لا على الظواهر وحدها. لا على المؤسسات وحدها. وإنما كذلك على ما يكمن وراءها، ترائياً وتاريخياً، وعلى ما يؤدي إليها ويعمل على استمرارها.

البادرة الأولى في هذه المواجهة هي الانخراط العملي في جبهة مدنية عربية، للخروج من عالم التقاليد الماضوية كلها، وبناء عالم المستقبل، عالم

الإنسان الحُرّ، وعالم الحياة الإنسانية المدنية.

ليس لهذه البقعة العربية من العالم أي مستقبل إنساني جدير بها، وبفراداتها، إلا بقيام المشترك المدني بين أبنائها - حريات، وحقوقاً، فيما يتخطى الأيديولوجيات والمذاهبات، وبخاصة الدينية. التدين حرية فردية، لها حق الاحترام والاعتراف. والمجتمع بنية مدنية لا مذهبية. المجتمع للجميع. التدين للفرد وحده.

- ٥ -

الخطوة الأولى في هذه البادرة الأولى هي أن يبدأ هذا "الجسم"، الآن، لا غداً، في جميع البلدان العربية، رفضه العملي للرقابة في جميع أشكالها ومستوياتها.

مهين أن يقبل كاتب بتقديم كتابه إلى لجنة تراقبه، قبل نشره. مهين للكتابة وللإنسان وللجميع. الرقابة، أيّاً كانت مسوغاتها، احتقار للعقل والفكر، وامتهان للإبداع. إنها سوس ينخر المجتمع في مستوياته كلها، ومؤسساته جميعاً، وفي مقدّمها النظام نفسه.

أزِيلُوا الرقابة، إن كنتم تريدون، حقاً، "أمن" المجتمع والحياة.

ما دامت الرقابة قائمة، فأمن المجتمع في خطر دائم.

ولا يكتمل رفض الرقابة على الفكر إلا برفض الرقابة على الحياة. والثواة الأولى، هنا، هي "حرية البيت"، "حرية العائلة"، حرية الصداقة بين الرجل والمرأة: وليكن الاقتراع بينهما مدنياً لمن يشاء، ودينياً لمن يشاء.

- ٦ -

علينا أن نتذكر في هذا كله أن هيمنة "المقدس"، بتنويعاته الغيبية والأرضية، على فكر العرب وحياتهم، أدت إلى نشوء حالات وأوضاع تكاد أن تكون "خُرافية". تكاد أن تفرغ الحياة من حيويتها، والفكر من مغامراته واستقصاءاته.

صَيِّقُ "المقدس" حدود العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان وجسده، وصَيِّق حدود اللغة. وما أبعدنا، اليوم، بسبب من ذلك، عن الغوص في غياهب المادة والوجود، وغياهب "الروح" و"الجسم"، وغياهب اللغة

نفسها. حتى كان حياتنا وثقافتنا لم تعودا إلا مجرد "الفاظ" و"أوتان". وما
أفقرنا، علماً ومعرفة.

أزهارٌ لتحية الساحات والشوارع العربية

- ١ -

من يحاول أن يشتعبد البشر، كمثل من يحاول أن يضرب غنق الماء، أو
كمثل من يقيد الريح.

- ٢ -

لا أشرب إلا الماء
الذي يستجيب لعطشي الذي لا يزتوي.

- ٣ -

نعم، يمكن "ترويض" الإنسان،
لكن كما تُروّض الناز بالقناديل:
يُعطى لمساره شكلٌ آخر،
وتملأ حياته بلهبٍ آخر.

- ٤ -

أن تفكر هو أن تبتكر الطوفان والهجوم. أن تقيم الأعراس والأعياد فيما
تمارس زلزلة الراهن.
أن تفكر هو أن يخرج فكرك، هو أيضاً، من الورق إلى الشارع.
الفكر فضاء يجدد الفضاء.

- ٥ -

لا علاقة للحرب التي يخوضها الشعر بالحرب التي تخوضها السياسة:
السياسة هي أن ترى إلى أبعد مما يرى العدو،

الشعر هو أن تخترق العداوات كلها، وأن تعلق عليها.

- ٦ -

لا معنى لعملٍ تحذه اليد.

لا معنى لمعنى تحذه الكلمة.

المعنى تجاوزٌ وانفتاح. لا ينحصر ولا يلحد.

- ٧ -

أكمل عمل التاريخ:

اترك على عتبة بيته آثار خطواتك.

- ٨ -

ما ذلك التاريخ الذي لا يعزف على أرغن الحياة
إلا بأصابع الموت؟

- ٩ -

للضوء أجسامٌ لا يعرفها الضوء.

- ١٠ -

أفرادٌ - فرادات:

من الغيوم يصنعون قُمصانهم،

في كؤوسهم يسكبون الأيام.

- ١١ -

كيف تُعزق نبؤات الدجالين - سياسيين ومنظرين،

كيف يُصنع العالم بيد الحرية،
كيف تُكتب القصيدة بلا كلمات،
كيف تُحرث الأرض بالحب، وتُحرس بالعدالة والكرامة:
ذلك ما نتعلمه، الآن،
في شوارع المدن العربية وساحاتها.

— ١٢ —

كونوا حكماء عارفين:
ليس هناك حكام، ومحكومون،
هناك أحرار، وطفلة.
تحدثوا، إذًا، مع الحياة
كما لو أن كلاً منكم يتحدث مع المرأة الأولى
التي عاش معها حبه الأول.

— ١٣ —

يكتب بوصفه فرداً،
فلماذا لا يقرأ إلا بوصفه جفعاً؟

المطر المدني

أمس، الأحد، ٢٧ شباط/فبراير ٢٠١١، سرث في التظاهرة التي دعا إليها شبّات وشبان لبنانيون، للعمل على الخلاص من النظام الطائفي في لبنان، وإقامة النظام المدني. وهدفت معهم: "الشعب يريد إسقاط النظام الطائفي".

كان مفرحاً ومطمئناً وباعثاً على الأمل أن ترى حشداً بالمئات من الشابات والشبان، من مختلف الانتماءات الدينية والفكرية والاجتماعية، يسرون في موكب واحد لغاية واحدة: تأسيس لبنان المدني. تلك هي التظاهرة التي يستحقها لبنان.

وتلك هي التظاهرة التي يجدر بجميع اللبنانيين أن يسيروا فيها. كان المطر غزيراً ومتواصلاً كأن الطبيعة كانت تسير، هي أيضاً، مع المتظاهرين. تقدّم لهم ما تستطيع: المطر الغامر الذي يجرف الوحول والقمامات، وينظف الشوارع. الأكثر مدعاةً للثقة والغبطة أن هذه التظاهرة ليست إلا بداية. وسوف تتبعها، كل أحد، تظاهرات أخرى، توكيداً لإرادة العمل على نقل لبنان إلى ساحة البلدان العالية، ساحة المدنية. نأمل أن يشترك الكتاب والمفكرون والمنظرون بحرص أكبر، وعدد أكبر. أهلاً بالمطر المدني.

(جريدة الحياة، الخميس ٢ آذار/مارس ٢٠١١)

المسرح

البلدان العربية ليوم ساحة تراجيدية ضخمة، مفتوحة على جميع الاحتمالات، وعلى جميع الجهات.

مسرح تراجيدي في الهواء الطلق.

ماذا علي أن أفعل؟

- تتكلم، على الأقل.

- لا أستطيع. يطلبون مني أن أتحدث عن وضع هو وضعي، لكن بلغة ليست لعتي.

لا أستطيع أن أسقي الورد سقاً. لا أستطيع أن أقدم للعطشان ماء متعقناً.

"أعذب الشعر أكذبه"، يقول أسلافنا القدامى. قول عميق وغني، نقدياً وجمالياً. غير أننا، نحن أحفادهم، نترجمه حرفياً، ونُدْرِجُه في معجم الفائدة والسياسة والمصلحة، ثم نعقمه على الكلام كله.

يقول التعميم: "أعذب الكلام أكذبه".

ثم نصوغ مقولة نزهو بها، هي التالية:

هل تريد أن تكون صادقاً؟

إذاً، إكذب.

وهي مقولة لا نتفرد بها. أصدقاؤنا من أهل الغرب يبرعون مثلاً في الإعلاء من شأن هذه المقولة، نظراً وعملاً.

وبيننا تناقض في هذه الصناعة الجديدة، بعد أن فشلنا أو أفسدنا في مدرسة الصناعات الأخرى الكثيرة - صناعات العلم والمعرفة والتقدم وحرريات الإنسان وحقوقه.

"تار" العالم العربي و"ينور" على طريقته الموروثة إياها، مع ذلك أحب أن أصدق، لا إعجاباً بما حدث حتى الآن، بل إعجاباً بالثورة، بفكرة الثورة نفسها.

لكن العجيب أن هذا العالم، في ثورته هذه (حتى الآن)، لا ينهض بقدر ما يتعثر، ولا يتقدم بقدر ما يتخلف، ولا يتماسك بقدر ما يتفتت، ولا يتحزر بقدر ما يخضع لمختلف أنواع العبوديات، ولا يتطهر بقدر ما يتعفن، ولا يتأنس بقدر ما يتوخش، ولا يُعَمَّر بقدر ما يخرّب، ولا يحترم الإنسان بقدر ما يحتقره.

والأكثر درامية في هذا كله هو أنه لا يثور حيث ينبغي أن يثور، ولا يختار الأهداف التي ينبغي أن يختارها.

مسرح اقتتال، واستنصال، وابتذال. مسرح لطفيان آخر، وهبوط آخر. لا يقظة فيه، لا نوم إلا تحت رايات تنزف دماً، وإلا في أسرة تنصبها الأهواء والأباطيل.

الحياة ماء يجري في نهر الموت. الموت حركة ترخ شبات الحياة. لكن، في هذه الساحة العربية التراجيدية، يبتكر شيء آخر: الموت في الموت. مسرح قَصْر عنه شكسبير، وظل آرتو بعيداً. وأين منه اليونان والرومان؟

أظن أن الموت لم يفقد معناه في أي بلد في العالم الحديث، كما هو شأنه في هذه الساحة العربية. وأن يفقد الموت معناه إلى هذه الدرجة أمر يعني، جوهرياً، أن الإنسان فقد، هو نفسه، معناه.

الأصوات الخلفية،

الستائر الخلفية،

التمثيل الخلفي،

التمثيل الخلفية،

– اقتحم، أيها الشاعر، أيها الكاتب، أيها المناضل اخترق، وتجاوز.
إبن مسرحك: لا ضد العدد، بل ضد الواحد.

عندما نكون في السلطة، نحول الحياة إلى خسوف كامل،

وعندما نثور على السلطة، نحول كذلك الحياة إلى خسوف كامل.

من أين لدينا، نحن العرب، هذه القدرة الغريبة الفائقة؟ ومن أين تجيئنا هذه المواهب القيادية؟

أهناك فرق إن قلت: الخراب اليوم سيد العرب،

أو قلت: لعرب اليوم سادة الخراب؟

كلمة "عرب" اليوم تعني في الغرب، خصوصاً عند "أصدقائنا" و"حلفائنا": إرهاب، ذبح وقتل، انفجارات، صواريخ، قنابل، دبابات، مدافع، طائرات، سجون، ثروات، طاقات، مليارات، ادعاءات، جهالات وتبعيات... إلخ.

متى ستعني هذه الكلمة: العلم، الفلسفة، الفن، والشعر؛ متى تعني الإبداع في مختلف المجالات، والمشاركة في بناء العالم الحديث؟ متى؟
تصعد الأيام إلى خشبة المسرح. بعضها يعرج، وبعضها يبصق دماً.
الذاكرة قفص محروس. والماء يبحث في الرمل عن عينيه الضائعتين.
والزمن على المسرح لا يُتمزغ غيز الأشلاء والدماء. ويبدو دائماً، في شكل طاغية برأس واحد وأجسام متعددة.
"الضباب يتنزّه وحيداً في فلسطين -

أكيد سيكون مجيء الفجر عسيراً جداً"، تقول رسالة غامضة لا يريد أحد أن يراها،
وكلّ يريد أن تظلّ مختومة.

على هذا المسرح يولد المعنى في الجرح وفي الدمع. يستقصي الخبراء أسرازه، ثم يأخذهم التعب إلى أسرة مبنوثة في الهواء.
أنث يا من تقول إنك تتجه نحو المستقبل، من أين جئت؟
لماذا لا يبدو على وجهك وعلى يديك غيز آثار الذبح والقتل؟
هل خرجت سراً من خاصرة الليل، ولم تصل بعد، في سيرك إلى النهار؟ ولماذا تبدو كأنك لا ترى من الأشياء، إلا قفاها؟ ولماذا تهرب من الوجه؟

(مقاطع من خطاب على المسرح)

- ١ - العصر يتكى على أكتافنا،
لكي يحتفل بذكرى ميلاده.
لكي يقرأ تلك الحنجرة غير المرئية التي تُفوسق التناقضات، وتؤلف بين أعضاء الطبيعة.
- ٢ - ما أصعب أن يشفى مرض الأبدية.
- ٣ - لا بد من أن نخاصم الريح،
إن شئنا أن نكون أصدقاء للشمس.
- ٤ - السياسة هي "الآن"، وليست "غداً". أضيفوا هذه الكلمة "غداً" إلى لائحة المخدرات.
- ٥ - لا تتأز لجراحك. عانقها.
التأز جرح آخر.
- ٦ - الدم نفسه ملّ الذبح. الدم نفسه يمزق راياته.
واسمعوا حكمة الثراب:
"أفضل أن أموت ظمأً

على أن أشرب دماً".
٧ - احتفل العالم كله بحكمة نلسون مانديلا،
غير أنه لا يمارش إلا ما يناقضها.
الذجل خبز كوني في قرن السياسة.
٨ - بدأ الزهر يخلع ثياب النوم،
بدأ الهواء يقرأ معجم البراعم
طائر وحيد

حزك أشجار الحديقة،
وملا فضاءها بالأجنحة.
٩ - دائماً كل يوم،
قبل أن تشرق الشمس،
يخلع الليل فروة الأسود
وينام على ذراع الفضاء.

(راوية على المسرح في زاوية)

مسرح - تاريخ،
لا يحتفي إلا بالموتى. يكفي أيها المعجم الغامض أن تبلى صور العالم
بدمع الفصول.
بوؤ الفضاء يبتلع موسيقى الأرض.
أزير نحلة مشحون بعسل الحكمة.
اصعد من جديد، أيها الشاعر. اصعد إلى ينابيع المعنى.
لكن، أديك ما تقوله لذلك الشرطي الذي يُصر على أن يعلم الضوء
كيف يُشع، والطيور كيف تطير؟
وأية موسيقى نعزفها لعالم ليست له أذنان؟

يُحب الليل، إذا يؤيد الظلام!

لا أريد أن أناقش مقالة الدكتور عبد الوهاب الأفندي (القدس العربي، الثلاثاء ١٢ حزيران/يونيو ٢٠١٢) لسبب أساسي هو أنها مجموعة من التأويلات التي ليست أكثر من استيهامات وتخزصات تقوم على مثل هذا المنطق التحريفي: "فلان يحب الليل، إذا هو مؤيد للظلام".

لذلك أقصر على هذين الطالبين من الدكتور:

أولاً، أرجوه أن يأتيني بجملة واحدة في كل ما كتبه حول أحداث سورية الآن، وقبلها أيضاً، أدمع فيها نظام البعث أو أدمع فيها بشار الأسد شخصياً أو أي حاكم آخر. جملة واحدة فقط.

ولست مضطراً إزاء كل تخزص أن أكرر سرد الأسباب التي جعلتني أبتعد عن سوريا منذ أكثر من نصف قرن.

ثانياً، أرجو منه أن يأتيني بجملة واحدة أمتدح فيها الخميني، باسمه الشخصي كما يزعم. جملة واحدة فقط.

صحيح أنني حييت "الثورة الإيرانية" في وقتها، الثورة لا الأشخاص، كمئل كثيرين من كتاب العالم في طليعتهم ميشيل فوكو. ليس فقط لأنها كانت ضد حكم أمبراطوري، بل لأنها كانت - في بدايتها - نموذجاً فريداً في تاريخ الثورات من حيث سلميتها، وقام بها شعب بجميع فئاته. وبالأخص لأن أول مبادراتها كان إقفال سفارة إسرائيل وافتتاح سفارة فلسطين. طبعاً يبدو أن هذا الموضوع لم يعد يعني عند الدكتور وكثيرين من العرب أي شيء.

مع ذلك تغير موقفني من "الثورة لإيرانية" عندما تغيرت هي، وتحولت إلى دولة دينية. بل إن هذا التحول ونتائجه هو ما عزز اعتراضي القديم على شكل الدولة الدينية. وقد كتبت مقالات حول شكل الحكم في إيران، في مطلع الثمانينيات (في مجلة النهار العربي والدولي) محدراً مقاسقته "الفقيه العسكري". وكتبت بعدها، كذلك في هذا الإطار، عدة مقالات في جريدة الحياة يمكن أن يطلع عليها الباحثون عن الحقيقة. ولننظر في المرحلة الحاضرة، من فلسطين إلى السودان مروراً بغيرهما، في ما تسببت به السياسة القائمة على الدين.

هذه مناسبة لكي أكرر (بإذن من الدكتور وأمثاله) أنني ضد دولة تقوم على الدين، وضد رجال دين يتسبسون باسم الدين، وأنتي مع دولة علمانية تقوم على الفصل الكامل بين ما هو ديني وما هو سياسي وطني

واجتماعي. وأنني، ضمن هذه الدولة العلمانيّة، مع حرّية المعتقد الديني الفردي، أياً كان، ومع حرّية اللامعتقد أيضاً. وأنني في المقام الأول مع تحزّر المرأة كلياً مما يحول دون أن تكون سيّدة جسدها وسيّدة حياتها، وسيّدة مصيرها.

إذا لم يأتِ الدكتور بما أطلبه منه، فهل تكون لديه شجاعة الاعتراف بالخطأ، وأخلاقيّة الاعتذار؟ وإلا فليهنأ بأفكاره وأرائه، كمثّل قلّة غيره، يخونون كلّ تمايز في الرأي، ويفضّلون أن يرتعوا في "حدائق" الشائعات والافتراءات.

شكراً له في أية حال.

(القدس العربي، حزيران/ يونيو ٢٠١٢)

لماذا أشرت زيارتي إلى إقليم كردستان العراق (١٤ - ٢٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٩) احتجاجاً لدى بعض المثقفين العرب؟
أطرح هذا السؤال لسببين:

الأول هو أن "إقليم كردستان العراق" جزء من العراق، وجزء من الجغرافيا التاريخية والسياسية العربية. فما الخطأ إذاً في زيارته؟
الثاني هو أن ما قلته في هذا الإقليم عن الثقافة العربية وعن "انقراض الحضارة العربية" لم أقله للمرة الأولى، فقد قلته قبل هذه الزيارة بزمان طويل في القاهرة ودمشق وبيروت وغيرها، حيث أتاحت المناسبة. فما الذي نبه بعض المثقفين إليه اليوم وأثار غضبهم، وكان حزيناً بهم أن يتنبهوا قبل ذلك، إذا كنوا مهتمين بهذه الحضارة ومصيرها وبرأيي فيها؟
ولم أقله بوصفه محاضرة أو موضوعاً مستقلاً، وإنما أشرت إليه في سياقٍ تصحيحي في إحدى الندوات، رداً على سؤال يشير إلى أنني وصفت الحضارة العربية بـ"إنها جثة نتنة". وهكذا حُزفت عبارة "انقراض الحضارة العربية" إلى عبارة "الحضارة العربية جثة نتنة" التي لم ترد على لساني قطعياً.

وكان عليّ أن أصحح هذا التحريف الذي يقوم به، ويا للأسف، بعض الكتاب. والثقافة هنا تلعب دور الأمن السياسي، ويلعب المثقف دور الشرطي والفخبر ورجل الأمن. وهو دورٌ شائع في الثقافة العربية، وفي العلاقات ما بين المثقفين؛ ولا يخفى أمره ماضياً وحاضراً، خصوصاً على الذين يُعَتَّون بقضايا الثقافة العربية ويتابعونها.

فعلاً يبدو أن ثقة ثقافة عربية لم تنقرض، هي التي جرفت بعضهم إلى الرد بحماسة "سياسية قومية" شبه عمياء على ما قلته، من دون أية مناقشة تقوم على فهم دقيق لما أقصد. ووجه العماوة في ذلك يتمثل في أن مسألة "الانقراض" لم تناقش في ذاتها، ولم تدخض بأدلة عقلية، بل حُوِّلت

إلى مناسبة للغمز واللمز والتجريح. هكذا أهملت المشكلة وشُوْهت. كانت حضارية، فأصبحت شخصية.

أترفع عن الوقوف عند ما قاله بعضهم، ولا سيما الكلام المبتذل المكرر على "نوبل" وتقديم "اترشيح"، و"التملق" و"اعرائض" وما شابه... فهذه أمور تدعو فعلاً إلى السخرية إن لم أقل التقزز، ولا تدخل، في أية حال، في نقاش ثقافي حقيقي، ولا يمكن أي شخص يملك شيئاً من الصدق أو المعرفة العامة بالأصول أو بتقاليد الجوائز العالمية أن يقول مثل هذا الكلام. لكن هؤلاء يفترضون في القارئ الجهل، وهو لحسن الحظ أكثر معرفة منهم.

آخر دليل على ذلك، هذا الخلط الذي كتبه حازم العظمة (الأخبار ٣٠/٤/٢٠٠٩) والذي لا يستحق أي اهتمام؛ ثم ما كتبه فواز الطرابلسي (السفير، ١/٥/٢٠٠٩) مختزلاً مفهوم الحضارة العربية الراهنة إلى ما كتبه بعض الأفراد من الأدباء العرب الذين تمترس وراءهم، في لائحة تهمل، مع ذلك، بعضاً من أهم الأشخاص الذين يجدر به في دفعه أن يستحضر أسماءهم. ومعظم الذين ذكرهم الأستاذ الطرابلسي أعتز بصادقتهم وإنتاجهم. لكن حياة الحضارات وحيويتها ونموها وفاعليتها لا تقاس بأفراد مهما نبغوا، لا سيما أن الأدباء المذكورين ليسوا مدينيين في نبوغهم للمؤسسات والبنى في مجتمعاتهم، بل إن عديداً منهم واجهوا إنكار المؤسسات وعانو من مؤسسات القمع أو تاروا عليها، وكنا ضحايا قصور الدول العربية وانهزامها، على كثرتها واتساع رقعتها. وثقة عدد من الشعراء والفنانين العرب عاش حياة مأسوية أو ارتحل كسبيل وحيد للنجاة من القمع.

الأساسي هو المجتمع ومؤسساته. فماذا فعل هذا المجتمع على امتداد القرنين الأخيرين، وماذا يفعل؟ تلك هي المسألة.

لقد عبرت عن رأي. وكان بإمكان الأستاذ فواز الطرابلسي أن يدحضه بإيراد أدلة على وجود ما يناقضه. غير أنه حول المسألة العاقة إلى مسألة شخصية، كما أشرت، متخذاً فرصة للغمز واللمز، والتجريح والالتهام. وفي هذا دليل آخر على الهرب من المشكلة. فبدلاً من أن يعمل عقله في مناقشة الفكرة، أعمل أشياء أخرى، وتحذت عن أمور لا تمت إلى الفكرة بأية صلة.

إن غياب العقل النقدي في معالجة قضية كبرى كهذه القضية دليل آخر على الانقراض الأدبي، على الأقل. ومن السهل علي كثير أن أسلك مسلكه فأحول مادة رده إلى مناسبة لتجريحه هو أيضاً. غير أنني أترفع عن هذا الأسلوب. إنه نوع آخر من البطش يفوق البطش السلطوي، لأنه موجه إلى

صميم الشخص الآخر لا إلى كلامه ومواقفه. بل قد يكون، أحياناً، أشد مرارة. ذلك أن الذين يستخدمونه يهربون من المشكلة الحقيقية، وباسم الدفاع عن الحرية لا يمارسون إلا الطغيان، وباسم احترام الثقافة لا يفعلون إلا جرجرتها في الوحل.

يرد علي الأستاذ الطرابلسي محتجاً بوجود "قوة ثقافية مقاومة ومعارضة" وينتقد عدم رؤيتي "العدد المتسع من المثقفين الذين يقبعون في السجون..." لأن لهم رأياً تمسكوا بالتعبير عنه. وهو يرى أن في هذا الواقع ذاته سبباً للتفاؤل ودليلاً على نهضة قائمة فعلاً. غير أن السجون لم تتوقف عن الاتساع منذ عقود طويلة. وليس ما يشير إلى أنها ستتوقف عن هذا الاتساع لابتلاع المزيد من شجعان الرأي.

ولا يدعوني هذا الواقع إلا إلى التشاؤم أو على الأقل إلى القنوط. غير صحيح، كما يقول الأستاذ الطرابلسي، أن أي ثقافة غير الثقافة العربية تحتوي، هي كذلك، ثقافة سلطوية وثقافة في خدمة السلطات. هذا غير صحيح إلا في الأنظمة التوتاليتارية، الدينية منها والإلحادية. لكن يجب أن نعترف، مع ذلك، أنه حتى في الأنظمة الشيوعية ذات السجون الوسعة حصلت إنجازات اجتماعية وعلمية وصناعية ضخمة، وإن هربت المواهب الفكرية والأدبية.

وإذا كان الأستاذ الطرابلسي يرى أن هذا الوعي وهذا الاحتجاج لدى المثقفين العرب عين النهضة المطلوبة، فلا بد من أن أذكره بأن المثقفين العرب يصرخون ويحلّلون ويحتجّون ويبدعون - على اختلاف المذاهب والاتجاهات - منذ مئة وخمسين عاماً، وأن أكثر من ربع مليار عربي مصابون بالإحباط وهم يرون شعباً في المخيمات أو تحت أعجب أنواع الحصار، وأرضاً تؤكل كل يوم، وفرص العدل أو بعض العدل تتراجع، فضلاً عن يعيشونه في ظل أنظمة القمع.

أما الأستاذ الآخر، حازم العظمة، الذي يتخذ من زيارتي لكردستان العراق حجةً ومناسبةً للتهجم على المتنبي فأتركه يعيد قراءة ما كتبه المتنبي نفسه في الرد على بعض كتاب الشعر.

يمكن الشخص أن ينقد رأي شخص آخر يخالفه. أن يفككه ويحلّله كما يشاء، مظهراً بطلانه. لكن أن يتخذ من هذا الخلاف ذريعةً للتجريح والتشهير الشخصيين، فذلك استقالة من الفكر، ومن البعد الإنساني، من حيث أنه امتهانٌ لكرامة الإنسان. ومن يصل إلى هذا الحد، في فكره وسلوكه، كيف يمكن أن يُسقى مفكراً، وكيف يُقنع الآخرين بأنه يحترم نفسه وإنسانيته؟

بعد منتهى سنة على بدء النهضة العربية يريدني المعترضون أن أكتفي بكلام قاله رائد المسرح العربي مارون نقاش منذ عام ١٨٤٨ في خطبته الشهيرة: "نحن الأصول، وأولئك الفروع، وهم السواقي ونحن الينبوع". والمقصود بـ"أولئك" بعض بلدان أوروبا المتمذنة. وظلّ كثيرون يرددون هذا الكلام أو ما يشبهه، إذ يطربهم أن يكتشفوا ما كان عليه الوضع العربي في الماضي، وأن يعرفوا أن الغرب أخذ أركاناً من نهضته عن العرب والمسلمين.

ما قاله مارون نقاش كان استشرافاً وتحفيزاً ونشراً للأمل. كان مشروعاً في زمانه. أما تكرار هذا، اليوم، فأقل ما يمكن أن يوصف به أنه تمويه، كي لا أقول إنه تضليل.

مع الأسف، هذه الحقيقة، إضافة إلى وجود الكتاب الذين يتخذهم الأستاذ الطرابلسي حجةً على، يزيدني حزناً. إذ ما بال أوطان لها ما لها من أمجاد وفيها ما فيها من نوايح، تعجز عن إقامة حكم ديموقراطي واحد؟ تعجز عن الاعتراف بحق الناس في التعبير وفي الاعتراض من دون سوقهم إلى السجن. وما بالها تعجز عن إقامة انتخابات إلا بالإكراه والتخويف، أو بالتذابح؟ وما بالها لا تزال تستورد العلوم والبحوث، وتستورد المنتجات، من الإبرة إلى الأجهزة الطبية والعلمية والصناعية وحتى الترفيحية؟

وما بال أهل العلم والاختصاص عندنا ينبغون في بلدان الخارج، يبحثون ويخترعون، لكنهم حين يعودون يصبحون عندنا موظفين أو أصحاب مهن؟ ولماذا لم يقم مركز حقيقي واحد، أي مركز فاعل، للبحوث في مختلف الميادين؟

إذا شاء الأستاذ الطرابلسي أن يتجاهل هذا كله فهو حر. أما أنا فإنه يجثم على صدري. ولن أتهمه التهمة التقليدية الجاهزة بالعمالة إلى أي نظام، ولن أترجم كل ما يقوله وما يفعله إلى مسعى سحري خرافي لنيل هذه الجائزة أو غيرها، هذه المصلحة أو غيرها.

ليس التخلف قَدراً. والنهوض، إذا كان معجزة، فإن هذه المعجزة قد حققتها شعوب لم تكن في ماضيها أعظم من العرب. وحققتها شعوب كات

متألقة ثم انحطت، وبعد انحطاط طويل عادت إلى النهوض لاجتماع ظروف ودوافع وتحديات، وأفادت في ذلك من توصلها مع الحضارات السابقة وبينها العربية.

وليعدرني الغاضبون من كلامي. لا أقدر أن أتجاهل كون النهضة العربية في القرن التاسع عشر قد بدأت قبل النهضة اليابانية بنصف قرن. ويعرف الجميع أن نهضة اليابان تحركت في عهد الأمبراطور الشاب موتسوهيتو بدءاً من ١٨٦٨. فأين صارت ايبان الفقيرة بالموارد الطبيعية، منذ بداية القرن العشرين، وأين بقينا رغم كرم الجغرافيا العربية وغزارة مواردها الطبيعية؟

بل إن النهضة العربية في القرن التاسع عشر بدأت قبل النهضة الصينية الحديثة بقرن كامل. وإذا تذرنا بالاستعمار، فالصين أيضاً كانت واقعة تحت احتلالات متعددة بينها الاحتلال الياباني. كما عانت من نفوذ غربي، إنكليزي بخاصة، ومن تحكم طاغ. فأين صارت الصين اليوم وأين بقينا؟ ولا أتحدث عن كوريا وماليزيا وأندونيسيا وسنغافورة، نعم سنغافورة: كيف كانت، وكيف صارت.

- ٥ -

تذكيراً، ومن أجل مزيد من التوضيح، أقصد من كلامي على "الانقراض" الأمور الآتية:

أولاً، منذ ما سُمي بـ "عصر النهضة" إلى اليوم، يزداد العرب تراجعاً في كل الميادين - نسبياً وقياساً إلى تقدم غيرهم - في التربية والتعليم، في النمو الاقتصادي والاجتماعي، في حقوق الإنسان وفي الحريات الديمقراطية، في السلطة وفي السياسة. وماذا أقول عن موضوع صيانة البيئة؟

ثانياً، يزداد العرب تبعية للقوى الكبرى، الاقتصادية والسياسية، بحيث إنهم تحوّلوا إلى مستهلكين، وإلى قوة شرائية استهلاكية، على مستوى الكوني لا مثيل لها، إلى درجة أنهم تحوّلوا إلى "ثروة سوقية" هائلة للقوى المنتجة في العالم.

ثالثاً، لم يعملوا، مؤسسياً، على ابتكار ما يحتاجون إليه في حياتهم وأدوات تطويرها، لا في ميدان الصناعة والتقنيات العالية ولا المتوسطة، ولا في ميدان البحث والمعرفة والعلوم الدقيقة. ولا نرى حتى جامعة نموذجية واحدة، أو معهداً نموذجياً واحداً للبحوث في أي مجال.

رابعاً، ازداد العرب استبداداً. وازدادت خاضتهم غنى وعاقبتهم فقراً. وتواصلت نسبة الأمية - مقارنة بالمعدلات العالمية - خصوصاً بين النساء؛ وازدادوا تفككاً وتعصباً على الصعيد الاجتماعي والديني والسياسي. وازدادوا بطالةً، وازدادوا على الصعيد النفسي ضياعاً ويأساً وبحناً عن الخارج، في الهجرة، وفي الجماعات المتطرقة خصوصاً. وتبعاً لذلك ازدادوا عودةً إلى ما يزيد في التدهور والتخلف: أخذوا يتداوون بالداء.

خامساً، ليس للعرب حضور سياسي فعال على الخريطة السياسية الكونية، بوصفهم عرباً؛ وإنما ينحصر حضورهم في كونهم سوقاً، وثروة نفطية. لهم، بتعبير آخر، حضور بوصفهم أداة أو أدوات، وليس بوصفهم طاقة خلقة تشارك في بناء العالم. بل ليست لهم فعالية سياسية تنقذ الحذ الأدنى الذي قزرت هياة الأمم من أرض فلسطين، منذ ستين سنة، ليكون دولة فلسطينية، فضلاً عن عودة اللاجئين.

سادساً، واضح لكل من يريد أن يرى حقاً أنني لا أقصد من "الانقراض" انقراض العرب بوصفهم أعداداً بشرية، وإنما بوصفهم طاقة خلقة تسير في موكب لإنسانية الخلقة، وبوصفهم نظاماً في بناء الإنسان، وفي إرساء قيم التقدم والانفتاح، والمشاركة في بناء العالم، وفي خلق حضارة إنسانية. أكثر غنى وأكثر عدالة وأكثر إيفالاً في السيطرة على الكون، وفي كشف أسرارهِ.

أفلا يصح بهذه الدلالة التي لا يجوز أن تخفى على أي قارئ حقيقي أن نقول عن أنفسنا بأننا حضارة تنقرض؟

أستطرد قليلاً في هذا الصدد، وأتساءل: كيف لثقافة لم تنتج، بعد مرور

ألفي سنة على نشوئها، أية قراءة جديدة وخالقة لها، ألا تكون منقرضة؟

فأين نجد قراءة لتراثنا العربي بوصفه ذاتاً حضارية متميزة - أي

بوصف هذه الذات اندراجاً في الطبيعة (فترة ما قبل الإسلام)،

أو بوصفها اندراجاً في ما بعد الطبيعة (الوحدانية، النبوة، الوحي...)

أو بوصفها معرفة (العقل، الحدس، الحقيقة...)

أو بوصفها مخيلة (الفنون، الآداب...)

أو بوصفها رغبة (الجسد، الحب، الجمال...)

أو بوصفها سياسة (الجماعة، الأمة، المدينة، النظام، القانون...)

أو بوصفها علاقة (الآخر، الأرض، التاريخ، الكون...)

فإذا كنا نفتقر حتى الآن إلى مثل هذه القراءة، أي إلى كتابة تاريخ

جديد لثقافتنا العربية برؤية جديدة، وأفق جديد، يُخرج هذه الثقافة

العربية من أسر الانقسامات الدينية والمذهبية والسياسية، ومن الأطر الكتابية التقليدية، ويضع الحياة العربية والإبداع العربي في سياق الثقافة الكونية، بوصفها رؤية خاصة متميزة للإنسان والكون، فكيف لا نكون مفتقرين إلى نتاج أدبي وفني في مستوى الحضارة الكونية.

- ٦ -

أسوأ ما في هذه المناقشات، وهو ما يهيمن على معظم الكتابات في هذا الإطار، الخلط بين الشخصي والعام، بين الفني والإيديولوجي، بين الفكري والسياسي، بين الحقيقة والاستيهام. والأكثر سوءاً هو الجرأة على المماهة بين الحقيقة وبين ما يحبه الفرد أو يكرهه، في ذوقه وعلاقاته. وهنا تكمن الطاقة الكبرى في الثقافة السائدة، حتى ليخيل للإنسان أن هذه الثقافة ساحة حرب مادية، تخرج من اللغة ومن الواقع، وتصبح مجرد ظاهرة سيكولوجية عنفية: عالم خلافات وكراهيات وأحقاد وضاغثات واتهامات ومصالح وتصفيات حسابية.

لماذا يندر أن يقوم سجل، بين التجمعات أو الأفراد، على أساس الأفكار، بحيث تقول الفئة أو يقول الفرد رأيه في الآخر، من دون تجريح أو تشويه أو افتراء. فمن لا يحترم كرامة الإنسان الذي ينتقده، والفئة أو الجماعة التي ينتقدها، لا يحترم هو نفسه كرامته الخاصة وكرامة محازبيه. مزة ثانية أمل أن يخلص المثقفون الذين يعارضون آرائهم مما أصبح مكروراً ممجوجاً ومبتذلاً، "نوبل"، "الوهابية"، "التأمرك"، "شتم العرب"، "التطبيع" إلخ...، لا من أجلي، بل من أجلهم، ومن أجل القيم التي يدافعون عنها، ولكي لا يُقال إن ثقافتهم تخبئ وراء كل كلمة سيفاً، ولكي يبقى الحوار الثقافي بناءً وعالياً.

الغاية في وسائلها. والوسائل الرديئة لا يمكن أن تخدم غاية نبيلة.

- ٧ -

أودّ أخيراً أن أختتم بهذه التساؤلات: إذا كان مبدأ النضال ضد السياسة الأميركية وصل عند بعضهم إلى هذه الدرجة العالية من "السحر" و"الانسحار"، فلماذا لا يطبقونه إلا على "إقليم كردستان العراق"؟

لماذا لا يطبقونه على أقاليم عربية كثيرة؟ ولماذا لا يطبقونه على "المتروبول" الأميركي ذاته - في العلاقات معه، سياسياً واقتصادياً وثقافياً؟

هكذا أخلص إلى التساؤل: ألا يكشف السؤالان اللذان طرحتهما في بداية هذه المقالة عن رواسب "عنصرية" وسياسية - إيديولوجية من طبيعة دينية - مذهبية لدى هؤلاء المحتجين على زيارتي لكردستان العراق؟ وهي رواسب تذكرنا بثقافة يبدو أنها لم تنقرض حقاً، كما يبدو أنني أخطأت في التعميم، وأنها لا تزال حية وفعالة؟

إنها الثقافة القائمة على منطق التضاد الآلي، وهو "سحري" خرافي: الآلة الأولى: إن مدحت، مثلاً، المقاومة الوطنية في لبنان، فأنت حكماً من "حزب الله".

الآلة الثانية: المقابلة: إن زرت كردستان العراق، فأنت حكماً أميركي. وماذا لو زرت مصر، أو ليبيا، أو الأردن... إلخ؟ مرّة ثانية، حقاً أيها المحتجون، لم تنقرض "حضارتكم"، وهي لا تزال تجزأ ذيلها الباذخة.

(٧ أيار/مايو ٢٠٠٩)

رسالة إلى "جبهة الضحوة الحرة الإسلامية السلفية الجزائرية"

تزور "جبهة الضحوة الحرة الإسلامية الجزائرية" نضاً تسفيه "قصيدة" وتنسبه إلي. وهو نض لا أعرفه أبداً. وتدعو إلى إحراق كتيبي.

الدعوة إلى الإحراق أسهل علي من هذا التزوير.

لا أريد أن أزد عليها. إنما أرجو قادتها وأعضاءها أن يلتفتوا إلى ثلاثة أمور، خدمة لدينهم واحتراماً لأنفسهم.

أولاً - لا يليق بمسلم عربي يتحدث باسم الإسلام وكتابه الفعّج أن يكون جاهلاً باللغة العربية، ولذلك أوصيهم بأن يدرسوا هذه اللغة العظيمة.

فما يكتبونه بها إنما هو، في النتيجة، استهزاء بها، وامتهان لها.

والأجدر بهم، إذاً، أن يحفظوا لغتهم لكي يعرفوا كيف يحافظون على دينهم، وكيف يدافعون عنه. البيان الذي أصدرته هذه الجبهة أحزني، ليس لأنه يهاجمني، بل لأنه كارثة لغوية، وهو، في ذلك، ضدّ الذين ولغة الذين، في المقام الأول.

ثانياً - لا يليق بمسلم، وبخاضعة إذا كان مؤمناً يسقي نفسه "مجاهداً"، أن يزور وينسب إلى الآخرين كلاماً ليس لهم. المؤمن المسم ينتقد من يخالفه الرأي، وهذا من حقه، لكن ليس من حقه أن يفترى عليه، وأن يثمه زوراً وعدواناً بكلام لم يقله أبداً.

ثالثاً - لا يجوز للمؤمن أن يتحدث بما لا يعرف، لئلا ينسب إلى أهل الجهل. الدين ثقافة ومعرفة، إلى جانب كونه إيماناً. وأمثال هؤلاء السلفيين يعطون صورة عن الإسلام بأنه دين بلا ثقافة. وهذا خطأ كبير في حق الإسلام والمسلمين.

وبعد، فإنني أسامحهم جميعاً، وأتمنى أن يتتقّفوا، راجياً لهم الهداية، لكي يكونوا جديرين بالإسلام، وبالتحدث باسمه، وبالدفاع عنه.

هذا نض "القصيدة" التي نُسبت إلي:

(قال المجرم الفلحد الباطني:

فلتحترق،

احترقي يا دمشق... أبي جهل ومعاوية وعهر يزيد

احترقي يا حلب... إجرام صلاح الدين

احترقي يا حمص... الفكنة بإجرام ابن الوليد

احترقي يا درعا... البداوة والجهالة والتأر والضباع المناكيد....

لتحترق كل هذه الهياكل...

لو كانت من الطيبات ما أنتجت كل هذه الرزايا)

هذا نض - كارثة لغوية وشعرية. وهو قبل كل شيء: كارثة عرقية.

كيف يمكن المسلم المثقف المناضل الداعية أن "يدبج" نضاً في هذا

المستوى؟ وما هي طبيعة تصوّره لعالم الثقافة العربية واقضاء العرب؟

اسمه الكامل، للمناسبة، كما يذكره في بيانه: "مسؤول جبهة الصحة

الحزب الإسلامية الشفوية العبد الضعيف عبد الفتاح زراوي حمداش

الجزائري".

(حول البيان الذي أصدره رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،
الشيخ شيبان وحول موقف وزيرة الثقافة الجزائرية)

- ١ -

يكشف ابيان الذي أصدره رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،
الشيخ عبد الرحمن شيبان، حول المحاضرة التي ألقيتها في المكتبة
الوطنية، وحول حديثي في جريدة الشروق، عن ثلاث قضايا رئيسة لا
تعنني، وحدي، شخصياً، بقدر ما يجب أن تعني العلماء المسلمين أنفسهم،
بخاصة، والمسلمين جميعاً، بعامة. ذلك أنها تتصل بأصول الحوار،
وموضوعية المعرفة وعدل أهلها، والمماهة بين النص الديني ولأبي
الشخصي.

هناك من ناحية عدوانٍ وتجريح، باسم النص الديني ذاته الذي يماهي
فضيلة الشيخ بينه وبين رأيه الخاص، ودون أي مستند يتيح له مثل هذا
الاثهام. فهو بصف كلامي بأنه "أباطيل الشيطان" و"أراجيف وقحة"،
ويطلق علي أحكاماً قاطعة فيقول إنني "إباحي"، و"ملحد" و"من الأمور
بالمسكر المتهين عن المعروف". هذه الاتهامات والأحكام أطلقها فضيلة
الشيخ دون أن يعرفني ودون أن يطلع على نص المحاضرة. وتلك مصيبة
في المعرفة. وإذا كن اطلاعة على المحاضرة هو ما جعله يطلق أحكامه
فتلك مصيبة أعظم، لأن ذلك يشير إلى عدم التدقيق وعدم التأمل في ما
قرأه وهذا يناقض مع الموضوعية ومع أخلاقية الحوار المعروفة تاريخياً،
منذ عهد النبوة.

والأخطر من هذا كله، هو أننا لا نعرف عاباً في تاريخ الإسلام تجزاً
على القول إن رأي هو نفسه ما يراه الإسلام، كما يفعل فضيلة الشيخ عبد
الرحمن شيبان. وإذا كان "لله يخاطب نبيه قائلاً: "إنك لن تهدي من أحببت
ولكن الله يهدي من يشاء" فإن فضيلة الشيخ انتدب نفسه لمهمة أكثر
صعوبةً هي "تكفير" من يشاء.

ومن أصفى إلى محاضرتي، أو قراها، يعرف تماماً كيف أوضحت بدايلاً
أن كلامي لا يتناول الإسلام بوصفه وحياً أو نصاً، وإنما يتناول الممارسة

التاريخية، باسمه. وما قلته يندرج في إطار النقاش الذي مارسه المسلمون القدامى في مختلف ثجاهاتهم. وأغلب الظن أن فضيلة الشيخ لم يقرأ المحاضرة، كما أشرت، أو أنه لم يتمقن فيها، إذا كان قرأها. وأنا أتمنى عليه أن يأتي بجملة واحدة فيها تتيح إطلاق أحكام كتلك التي يطلقها.

إن العبارات التي يستشهد بها فضيلة الشيخ في بيانه يستلها معزولة عن سياقها، من ندوة الشروق. وإذ أشكر هنا رئيس تحرير هذه لجريدة الكريمة الحرة، وجميع العاملين فيها، خصوصاً المحررين الذين شاركوا في الندوة، أتساءل: هل يحق لعالم أن يعتمد للحكم على شخص، سلباً أو إيجاباً، نضاً لم يكتب بلغته شخصياً، وإنما كتبه آخر غيره، مهما كان هذا الآخر أميناً؟ خصوصاً أنني أكدت في الندوة ذاتها أن حديثي هنا لا يتناول الدين في ذاته، وإنما يتناول حصراً طريقة فهمه، وممارسته في الحياة والثقافة.

مثلاً على ذلك، لا يمكن أن أقول إن "العودة إلى الإسلام تعني انقراضنا الحضاري"، في المطلق. وإنما قلت وأقول إن العودة إلى الإسلام كما يفهم اليوم ويُمارس إرهاباً وعنفاً وانغلاقاً ورفضاً للآخر، وتكفيراً له، هي التي تؤدي إلى انقراضنا الحضاري. ولا أقول هذا وحدي.

هكذا نرى أن الشيخ الجليل يعزل الكلام عن سياقه، خصوصاً أنه يجهل كتاباتي. وهو كعالم في الدين يُفترض فيه أن يكون عالماً في اللغة. يُفترض فيه إذاً أن يعرف تماماً أن أي تغيير في صوغ العبارة أو عزلها عن سياقها يؤدي إلى تغيير في دلالتها. مثل هذا العزل يؤدي مثلاً إلى قراءة الآية: "لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى"، إلى قراءتها على الوجه التالي: "لا تقربوا الصلاة". وهذا ما فعله تماماً رئيس جمعية علماء المسلمين الجزائريين.

من ناحية ثانية يفصح بيان فضيلة الشيخ عبد الرحمن شيبان عن النظر إلى الإسلام بوصفه مجرد فقه وشرع، ومجرد أمر ونهي، أي مجرد حدود. وهكذا يقفل آفاق التأمل، ويقيم سداً منيعاً بينه وبين الثقافة التي تقوم جوهرية على التساؤل و"طلب العلم" من أقصى الينابيع، كما تقوم على البحث والاختلاف ومعاونة لشك والتماس اليقين؛ فيقلص هذه الآفاق ويختزل هذا النزوع ويجعل من الحياة والفكر والعلم والتقدم ومن الإنسان نفسه صورةً لهذا التقليص وهذا الاختزال. ومن حق أي مسلم أن يخالف هذا النظر. خصوصاً أن المرجع الأساس للمسلم ليس الشخص أياً كان، وإنما هو النص ذاته. فليس في الإسلام وسيط بين المسلم والنص إلا العقل والتعقل، وإلا البصيرة والاستبصار.

من ناحية ثالثة، ربما كان علي أن أقرأ نص الحوار في الشروق قبل نشره. وليس هذا نقداً لأي محزر، وإنما هو نقد لنفسي، حرصاً على مزيد من الدقة، خصوصاً في قضايا هي موضوع خلاف عميق بين المسلمين، وأن أي انزياح لفظي في التعبير قد يؤثر في المعنى. غير أنني كنت واثقاً أن الحوار امتداد للمحاضرة، وأن وعي الجزائريين أرفع وأعمق من أن يقع في التبسيط والاختزال، وبينهم من يعرف أفكاره بدءاً من الثابت والمتحول، ويدركون أنني ميزت دائماً وأميز، في الكلام على الإسلام، وعلى كل دين، بين نصوصه الموحدة، من جهة، وتأويلاتها في الممارسة والتطبيق، من جهة ثانية، كما أشرت سابقاً، وأن نقدي، تبعاً لذلك، لا يتناول الدين في ذاته، وإنما يتناول حصراً الإطار التاريخي البشري، ومن ثم الجانب التأويلي التطبيقي في الحياة والثقافة والدولة، أي ما صنعه اجتهادات البشر ونزعاتهم وظروفهم البيئية وحكوماتهم وأحكامهم. واليوم، في خضم التحولات وتداخل الحضارات واحتدام الصراعات، يصعب التفكير في الحاضر دون الاستضاءة بأفق التاريخ. وهذا التاريخ الممتد حتى اليوم، والذي صنعه البشر، ليس معصوماً، وهو مرجعنا وملئنا جميعاً، كما أنه تراثنا وموضع بحثنا وتأملنا، ونحن امتداده في العالم. فمع الاطلاع على المراجع الأخرى لمعرفة العالم المحيط، لا نقدر إلا أن ننطلق في البحث من ذواتنا ومن معرفة موضوعية بتاريخنا في جميع أبعاده. هكذا يبدو أن هذا البحث في التاريخ، تاريخ الدول الإسلامية وحكوماتها المختلفة، هو ما يراه فضيلة الشيخ كفراً وأباطيل شيطانية. وهذا هو ما رأت فيه السيدة خليدة تومي، وزيرة الثقافة، "انزلاقاً فكرياً خطيراً".

- ٢ -

أخطر ما في هذه القضية هو أنها تحدث في الجزائر بلد "الثورة" الأكثر علواً في العالم العربي، ضد استعمار "المادة" و"الروح"، وأن إعادة استعمار "الروح" الجزائرية تجيء من الروح نفسها، أي من "الثقافة"، والأخطر من هذا كله أن هذا التطرف ضد حرية الثقافة يجيء على يد امرأة هي السيدة خليدة تومي، باسم الثقافة نفسها، وبدعوى "الانزلاق الفكري الخطير"!

نعم امرأة، لم يكن ممكناً أن تصل إلى منصب وزارة الثقافة لولا أفكار التحزب والتطور التي أنتجت ثورة الجزائريين نساءً ورجالاً.

"أنا امرأة من الشرق أهوى عبوديتي" قالت الشاعرة الراحلة فدوى طوقان مرة، ساخرة، بنبرة الدمار والفاجعة.
الويل للمرأة العربية المسلمة وللمجتمع العربي برقمته من هذه
"العبودية المختارة"!

"العبودية المختارة" هي القبول بقتل الطاقة الأكثر حيوية لإنسانية الإنسان: طاقته الخلاقة الحرة. أعني قتل التساؤل والبحث والتطلع إلى آفاق إنسانية ومعرفية في مناخ من المسؤولية البصيرة الحرة. هذا "القتل" هو بالضبط ما يولد الخطر، لا على الثقافة وحدها، وإنما على المجتمع أيضاً. فحين يتم التوكيد على الحرية كقيمة مناقضة للدين والتدين، فما يكون الأفق الذي يبقى للإنسان؟ وما يعود معنى ثورة الحرية وثورة المعرفة؟

من "التحريم" وانقيد والانغلاق يجيء الخل والخطر، وليس من الحرية. إن تقييد الاندفاع لكياني الحر يعني تغييباً للعمل الخلاق، وللفكر الخلاق، وللفن الخلاق.

إن موقف السيدة الوزيرة دليل آخر على أن "الثورة" العربية التي حملت تطلعات الملايين وزويت بدمائهم قد انقلبت في بلدان عربية عديدة إلى ما يناقض مبادئها، وطوّرت قيوداً أخرى على الإنسان، امرأة ورجلاً، وعلى حقوقه وحياته. ومن العبث في هذا الإطار العمل لتحقيق التحرر السياسي، والتمسك، في الوقت ذاته، بالعبودية المختارة - في حقول البحث والتساؤل والاستقصاء، معرفياً وإنسانياً. فالحرية لا تتجزأ. ليس هناك ربع حرية، أو نصف حرية! ولا مكان للثقافة الحقيقية في أي مجتمع إلا بممارسة الحرية كاملة، وإلا بالخروج كلياً من "المحزم" الفكري، ومن تخومه كلها.

دون ذلك لن يكون الكلام في الجزائر، وفي المجتمعات العربية كلها، إلا شكلاً آخر من الامتناع عن الكلام، أو من "قتل" اللغة. ولن يكون الكلام نفسه إلا رقابة من نوع آخر. الكلمة هي أساسياً فعل تحزر. هكذا نشأت في العلاقة الثلاثية: علاقة المتكلم بنفسه، وبالأخر، وبالعالم. وهكذا مورست، منذ نشأة اللغة. وثمازس اليوم في معظم المجتمعات التي تنهض على احترام لكائن البشري وحياته وحقوقه.

لكنها في المجتمعات العربية الراهنة، ويا للغرابة، تكاد أن تكون على النقيض الكامل من ذلك: فهي مسألة "أمنية"، ويُنظر إليها إما بوصفها "حراسة"، وإما بوصفها "إخلالاً" أو "كفراً". وهذه نظرة تنتج عن النظرة الأكثر شمولاً وخطورة، والأكثر تهديداً لا للثقافة العربية وحدها، وإنما

للإنسان العربي ذاته، وأعني بها لنظرة التي ترى إلى الثقافة بوصفها جزءاً من السياسة، جزءاً ثنائياً وظيفياً. وطبيعي في هذه الحالة أن يكون مستوى الثقافة تابعاً لمستوى السياسة التي تهيمن عليها: قل لي أيها البلد ما سياستك أقل لك ما ثقافتك.

ولست في حاجة إلى الكلام على هذين المستويين في البلدان العربية، فالجميع يعرفونهما أكثر مني، أو على الأقل كما أعرفهما. أكتفي هنا بالإشارة إلى أن السياسة في تحويل معنى اللغة من كونه الفاعلية الأولى في تعبير الإنسان عن وجوده وعلاقاته وحرياته، إلى كونه الفاعلية الأولى في الرقابة عليه، وفي إخضاع كلامه لمقتضيات السياسة القائمة، إنما تنشئ مجتمعاً لا يجتمع فيه البشر إلا على "العبودية" و"الخضوع"، أي، بمعنى ما، على فعل "جزمي". وأنذاك يبدو هذا الفعل "الجرمي" الذي يتخذ غالباً اسم "الفعل الأمني" كأنه العنصر الوحيد الذي يُوحد البشر.

ويبدو، تبعاً لذلك، أن المجتمع الذي يقوم على هذا النوع من "الوحدة" لا يحيا إلا بقتل أبنائه، بشكل أو بآخر (قمعاً أو سجناً أو نفياً... إلخ) وكأنه لا يتحرك إلا بـ"دماره"، ولا يفتخر إلا بأنقاضه.

أختتم محيياً ياكبار وإعجاب شجاعة الصديق الكبير أمين الزاوي الكاتب والمناضل التنويري، والسيدة الكبيرة جميلة بوحيرد، الرمز المشرف لنضال المرأة الجزائرية، والأستاذ الشاعر جيلالي نجاري ومدير عام جريدة الشروق الأستاذ علي فضيل ومحرريها، وجميع الكتاب والمثقفين الجزائريين الذين يواصلون نضالهم افكري لتكتمل ثورة الجزائر التحررية الوطنية - السياسية بثورتها التحررية الفكرية، ثورة احترام الإنسان وحقوقه، ثورة الحرية والإبداع والتقدم.

(جريدة الشروق، الجزائر، ٢٠-١٢-٢٠٠٨)

قرأت في عدد النهار (السبت ٢٨ أيار/مايو ٢٠١١) نداء من شخصيات لبنانية مسيحية إلى "مسيحيي لبنان والعالم العربي". أرجو أن يتقبل أصحابه ملاحظات أقدمها حوله، مشاركة في همومهم وهواجسهم، وتحية لهم.

- ١ -

لملاحظة الأولى يفرضها الشعار نفسه: "عروبة العيش معاً"، فهو يعني أن في لبنان والعالم العربي نوعين من السكان: "نحن" (المسيحيون)، و"أنتم" أو "هم" (المسلمون). وهو، إذاً، يقوم على لغة دينية تدرج بدنياً في السياق التقليدي الموروث من القرون الوسطى. وهو ما ينبغي الخروج منه، بدنياً. فدون ذلك لا يكون لهذا الشعار معنى، إلا إذا كان أصحابه يطالبون حقاً بالعيش معاً كفريقين دينيين مختلفين. وسيكون هذا تأكيداً آخر على "الغرات" القروسطي.

هكذا يبدو، في أية حال، أن الأولية في هذا النداء معطاة إلى الدين لا بوصفه إيماناً فقط، وإنما بوصفه كذلك "هوية" و"مؤسسة". لنفل، بتعبير آخر، "الذات" التي تتكلم في هذا النداء "ذات" دينية في المقام الأول - قبل أن تكون لبنانية أو عربية.

و"عروبة العيش معاً"، إذاً، العروبة التلقيفية الإسلامية - المسيحية، لا العروبة المدنية التي هي وحدها يمكن أن تكون مشتركة حقاً.

يُقرّ الشعار بالانقسام الأفقي المسيحي - الإسلامي في لبنان والعالم العربي، ويتبناه. وينسى أو يتناسى الانقسام العمودي الأكثر خطورة وفعالية، لا في ما بين المسيحيين، وحدهم، بل في ما بين المسلمين أيضاً. مثلاً، من الأصح والأعمق تمثيلاً لهذه "التحن" المسيحية في لبنان والعالم العربي؟ الكاثوليكية؟ الأرثوذكسية؟ القبطية؟ البروتستانتية؟ ولهذه "لأنتم" أو "الهم" الإسلامية؟ أهي السنة؟ الشيعية؟ الدرزية؟ الكردية؟ لأمازيغية؟ ولا أتساءل حول "مسيحيات" أخرى، و"إسلاميات" أخرى، مهفشة وشبه منبوذة.

وهذا يعني أن عروبة العيش معاً هي العروبة المدنية. فالعروبة لمشاركة مدنية، أو لا تكون إلا تلفيقاً دينياً.

في هذا الشعار، إذا، ما يضمن أن المسيحيين ينقلون إلى المسلمين هذه الرسالة: نحن "معكم"، لكننا لسنا "منكم". وهي رسالة دينية في المقام الأول.

هكذا يؤكد هذا الشعار استمرار المنطق الديني في النظر إلى لبنان والعالم العربي. وهو منطق أثبتت التجربة أنه لا يخدم التحزب ولا التقدم، وأنه عقبة راسخة ضد حريات الإنسان وحقوقه. استطراداً، يحسن في هذا المقام أن نطرح بعض الأسئلة على الصعيد الميتافيزيقي - اللاهوتي، استضاءةً واستكمالاً.

هل للمسيحيين اللبنانيين والعرب، بوصفهم هذه "نحن" الدينية، رسالة تنويرية للمسلمين العرب - "الهم"، وما هي؟ هل لديني وحداني (سماوي) أن يوجه أية رسالة تنويرية لأي دين وحداني آخر؟ وما هي؟ ثم، أليست الأديان الوحدانية متنافية في قاعدتها الإيمانية الأولى: مفهوم الله، ومفهوم العلاقة بينه وبين الإنسان والكون؟ فأية صلة أو وحدة مثلاً (وليعدزنا حوار الأديان وحواريوه) بين مفهوم الله - مجسداً، ومفهومه - مجزداً؟ أليسا متناقضين جذرياً؟

لا تتلاقى هذه الأديان إلا في عموميات أخلاقية ليست من خصوصياتها، بحصر المعنى، وإنما هي، بالأحرى، من خصوصيات التجربة البشرية.

ولئن صح أن يتمايز المسيحيون والمسلمون على الصعيد الإيماني اللاهوتي، فمن الصحيح أيضاً، وربما الأصح، أن يتساووا على الصعيد الاجتماعي - الثقافي، دون أي تمييز، وأن تكون لغتهم الثقافية، الاجتماعية، السياسية مدنية، لا دينية.

- ٢ -

من هنا تجيء ملاحظتي الثانية، وهي أن كون هذا النداء استئنافاً للغة القرون الوسطى وما قبلها، كما أشرت، فإنه يتضمن استئنافاً للذاكرة التاريخية الدينية، حيث تتراءى وارفةً خلال الدولة الدينية في المشرق العربي "تيقناً" بدولة إسرائيل - النموذج، في كل ما يتعلق بالوحدة بين الدين والسياسة.

وفي هذا الاستنفار، إذا، ما يقول: كما كانت التوراة نموذجاً تأسيسياً لدين الوحدانية، تكون إسرائيل نموذجاً تأسيسياً لدولة الوحدانية الدينية.

وفي هذا ينسى أصحاب هذا النداء تاريخ الصراع الكبير الخلاق الذي خاضه مسيحيو لغرب لكي يكون الإنسان مركز انكون، بدلاً من تمرّكه حول الله والسماء.

ينسون كذلك أنهم، تاريخياً، يسبقون المسلمين في انتمائهم إلى لبنان والعروبة. وأن الاكثرية والأقلية لا شأن لهما في كل ما هو إنساني، عظيم، خلاق. الإبداع إنساني، واحد، في ما وراء الاكثرية والأقلية. ولا يوصف العقل بالكم، أو بأنه أكثرية أو أقلية.

ينسى أصحاب النداء كذلك الجماعات التي خرجت كلياً من الأطر الدينية التقييدية، مؤمنة بالإخاء البشري والإنسان، بوصفه إنساناً. وهؤلاء "الكفرة"، أو "الطائفة العابرة للطوائف"، ليسوا قلة. إنهم، في الواقع الحي، يمثلون الجانب الأكثر إشراقاً في حضور العرب، إبداعياً ومعرفياً.

- ٣ -

الملاحظة الثالثة هي أن الحاجة الكيانية، اليوم، في لبنان والعالم العربي، تتمثل في أن يتكلم المسيحي (والمسلم) كلبناني أو عربي، أولاً، وأساساً. هكذا يجب أن يقترن الحضور المسيحي الأفقي ببعد عمودي، سياسياً وثقافياً واجتماعياً، وفي معزل عن التدين، لاهوتياً. يتمثل هذا البعد في تحقيق الدولة المدنية والمجتمع المدني: دولة الإنسان في ما وراء الانتماءات الدينية والإثنية.

ولا أشك في أن أصحاب النداء يدركون أن الثورة المعرفية الحديثة تؤكد أن دور الدين - المؤسسة، في بناء الحضارة وتقدّم المجتمعات، أصبح اليوم أداة للإعاقة والتعطيل، لا للحياة وحدها، وإنما أيضاً، وعلى نحو خاص، لفاعلية الإنسان، وإبداعه. ولا تفيدنا في هذا المجال أمثلة التعايش التاريخية، الأندلس أو غيرها، على افتراض صحتها، فهذه أمثلة - مسلمات تحتاج إلى نقد، ومساءلة، وإعادة نظر، من أجل تقويمها بشكل أكثر دقة وموضوعية.

هكذا، لا يمكن بناء لبنان والعالم العربي في اتجاه التقدم على قاعدة: "نحن" و"هم". وإنما يُبنى على قاعدة المواطنة الواحدة، والمواطنين المتساوين فيها، مدنياً، حقوقاً وواجبات.

بعبارة ثانية، لا يُبنى لبنان والعالم العربي على المواطنة السماوية، وإنما يُبنى على مواطنة إنسانية أرضية. إن للاهوتية الدولة في المسيحية

والإسلام تاريخاً مظلماً ودامياً، ذُمرت فيه الحقوق ولحريات، ودفرت العبقريات والمعرفة.

اللاهوتية السياسية - المؤسسية هي أعلى أشكال الأنظمة الشمولية الطفيانية. ليست عنفاً ضد "الجسد"، وحده، وإنما هي كذلك عنف ضد "الروح".

ولا يعني شيئاً، في الإطار العميق للنداء، ما جاء فيه على "الدعوة" إلى "دولة مدنية تقوم على التمييز الواضح، إلى حد الفصل بين الدين والدولة. فهي لا تمنح حقوقاً إلا للمواطنين، دونما تمييز، ولكنها في الوقت ذاته توفر للطوائف الضمانات التي من حقها الحصول عليها، للاطمئنان إلى وجودها الحز، والخيارات المصيرية اعامة"، - أقول إن هذا لا يعني شيئاً، عدا أنه متناقض، وتنتهي الجملة بما يُلغي ما بدأت به. فلا تقوم مدنية الدولة مع القبول باستمرار الأسس التي يقوم عليها العنف الديني - اللاهوتي في الحياة الإنسانية. ولا يتحقق فصل الدين عن الدولة، مع بقاء الدين مؤسسات ومراجع تشريعية ممثلة في "طوائف". لا يتحقق إلا إذا أصبح الدين إيماناً فردياً يلزم صاحبه، وحده. وتكون المؤسسة المدنية هي، وحدها، المرجع في كل ما يتعلق بشؤونه السياسية والاجتماعية والثقافية، وبحقوقه وحرياته.

ولا تُلغى "الطائفة"، طبعاً، وإنما تتغير: تصبح لمن يشاء، مناخاً روحياً، أو فضاء لاهوتياً.

- ٤ -

الملاحظة الرابعة الأخيرة، وهي نوع من الرجاء، أوجزها كما يلي: ما ينتظر من مسيحيي لبنان بخاصة، والعالم العربي، بعامة، ليس أن يتدبروا كيفية "العيش معاً" في الواقع السائد، وإنما هو أن يعملوا على تغيير هذا الواقع، بوصفهم مواطنين مدنيين، وعلى التأسيس لمدنية الحياة العربية، بالمعنى الشامل، في القرن الحادي والعشرين، مستكملين في ذلك ما قاموا به، على صعيد الأدب والفكر، في القرنين التاسع عشر والعشرين.

إن دورهم اليوم هو في التأسيس لدولة الإنسان، في ما وراء الانتماءات الدينية والإثنية. وهي دولة تكون، أو في وسعها أن تكون، منارة إنسانية ومعرفية في حوض المتوسط الشرقي. بهذا تأخذ المسيحية في المشرق العربي وجهاً خلاقاً، نبدأ لوجهها في الغرب. وفي هذا يكون لبنان أكثر من عنصر تنويري للعرب؛ يكون نموذجاً.

هكذا، كما كان لبنان طليعة التأسيس لثقافة عربية حديثة، يكون
طليعة التأسيس لدولة مدنية حديثة - أعني لمجتمع عربي مدني، ولحياة
إنسانية عربية مدنية.

(جريدة النهار، بيروت، ٢٠١١)

بدأ المشهد في باريس (الأحد ١١/١/٢٠١٥) مدهشاً، واقعاً ورمزاً: غرباً موخداً، ثقافياً وسياسياً، في التوكيد على الديمقراطية ولتمسك بها، وعلى حقوق الإنسان وحياته، وعلى رفض العنف والإرهاب في مختلف أشكالهم.

الأحرار في العالم العربي ينتمون إلى هذا المشهد ويعملون مع العاملين لكي يصبح كونياً.

هكذا يرون أن هذا المشهد كن سيبدو أكثر إدهاشاً لو أن "صورته" تتطابق حقاً مع معناه:

١- لو أن لهذه الصورة المعنى نفسه، والحضور نفسه، لا "داخل" البلدان الغربية، وحده، بل أيضاً "خارجها" في البلدان العربية وغيرها من بلدان العالم.

٢- لو أن الحرب على الطغيان والإرهاب خارج البلدان الغربية تتم، ثقفاً وديموقراطياً، كما هو الشأن فيها، وليس بطغيان أشد، وإرهاب أكثر توحشاً، كما هو الأمر في البلدان العربية والإسلامية.

نعم "كلنا شارلي". لكن هذه "النعم" لا تتوقف عن التملل صارخة: أين الجناح الآخر لطائر الحقيقة؟ ولماذا لا نقول: "كلد فلسطين"؟ وكلنا مع حقوق الإنسان وحياته؟ وكلنا مع السلام ضد الحرب؟

قضية "شارلي ابيدو" مرتبطة، جوهرياً، في الثقافة الغربية، بمبدأ الفصل الكامل بين ما هو ديني، من جهة، وما هو سياسي ثقافي اجتماعي من جهة ثانية. كل شيء لإعدة النظر، وللقدر، من أجل مزيد من المعرفة. وهذا يفترض الحرية الكاملة: رأياً وتعبيراً. وفي هذا الإصرار، تُفدت التوراة، منذ سيبينوزا. ونُقدت المسيحية والأناجيل. ونُقد شخص المسيح نفسه.

وإذا ينبغي على العرب أن يتفهموا هذه المسألة، موضوعياً. دون ذلك سيبدون أنهم يمارسون القمع والعنف والإرهاب ضد الإنسان الغربي، حقوقاً

وحريات.

لكن يبقى سؤال، يرتبط بطبيعة الرسوم الكاريكاتورية: هل الغاية منها هي حقاً المعرفة، والحوار الإنساني مع الإسلام، أم أن الغاية تكمن في مجرد السخرية والاستفزاز؟

وإذا كان الجواب في الاحتمال الثاني، وهذا هو الأرجح، فإن القانون المدني في الغرب يعاقب على القدح والذم. وحبذا، إذاً، لو كان العرب والمسلمون تعاملوا مع هذه الرسوم، قانونياً، ووفقاً للتشريع الغربي ذاته.

- ٣ -

هذه مناسبة تستدعي الإشارة إلى أن الغالبية العظمى في الجمهور العربي قلما تغضب للقضايا المصيرية الكبرى، المرتبطة بحياة الإنسان العربي، واستلاب أرضه، وتشريدته أو تفقيره وتجويعه، أو اضطهاده وسجنه، أو حتى غزوه واستعمار.

فثقافة هذه الغالبية تدور حول الشخص، لا حول الفكرة، وتُعنى بالشكل والمحافظة عليه، لا بالمعنى والدفاع عنه. وهي تتمحور إجمالاً حول الأهواء والمصالح والانتماءات، لا حول البحث والمعرفة والتقدم.

- ٤ -

أتخيل أن المدن "الميتة" في البلدان العربية: "مدينة حمورابي"، و"مدينة الأبجدية" و"مدينة الأهرام"، عقدت لقاء في باريس لإثذازيس الأوضاع الراهنة، لمناسبة الأحداث "المشتركة" بين العرب والغرب. وقد قررت في هذا اللقاء أن تُوجّه رسالة إلى باريس، حصلت على نسخة منها، هي مجموعة "كبيرة" من الأسئلة، أختار للقارئ عدداً منها هي التالية:

١- أنت، يا أمّ "الثورة الفرنسية"، مع حقوق الإنسان وحرياته، منذ انتصار ثورتك: معها، لا في فرنسا وحدها، بل في العالم كله.

لماذا، إذاً، تترددين في الوقوف إلى جانب شعب (ربما سيمنع قريباً حتى ذكر اسمه) - شعب يُشرد وتهدم بيوته، ويُقتل، يومياً، منذ أكثر من نصف قرن: الشعب الفلسطيني؟ وهي حالة لا مثيل لها في التاريخ، منذ إبادة الهنود الحمر في الولايات المتحدة الأميركية.

٢- لماذا تقولين شيئاً وتفعلين شيئاً آخر؟ تقفين، نظرياً، إلى جانب الشعوب في كفاحها ضد الطغيان، وتقفين، عملياً، مع جماعات في هذا الكفاح أشد طغياناً وأكثر إيغلاً في احتقار الإنسان وامتهانه، نظرياً وعملياً؟

٣- تملكين متاحف لحفظ المنجزات الإبداعية البشرية تُعدّ بين أجمل متاحف وأغناها في العالم. فكيف تقبلين أن تُنهب متاحف في البلدان العربية، ويُعبث بها، وتُدمر الآثار التي تحتضنها - من قبل جماعات تشاركين في دعمها وتسليحها، بحجة الحرب على الطغيان؟ وكيف يمكن أن "تشاركي في شراء" مرتزقة من جميع أنحاء العالم للقيام بثورة من أجل تحرير العرب من الطغيان؟

أهناك "ثورة" تقوم على الارتزاق والمرتزقين؟

٤- أنت أعطيت للمرأة حقوقها كاملة، المرأة بإطلاقٍ وليس للفرنسية وحدها. فلماذا تقفين إلى جانب مجموعات تفرض على المرأة قيوداً مهينة للقيم الفرنسية ذاتها - تُرجم حتى الموت، أو تُعرض في لأقفاص للبيع كما تُباع (الدواجن والحيوانات)، أو تُمنع من أن تمارس أبسط حقوقها الإنسانية؟

٥- نحن المدن "الميتة" نضم صوته إلى جميع الأحياء، ونكذّر أن المشهد فيك (١١/١/٢٠١٥) كان مدهشاً وفريداً. ونضيف أنه جدير بأن يكون فاتحةً جديدة وإنساناً جديداً: لديموقراطية تتطابق فيها "الصور" و "المعاني"، لا على المستوى الغربي وحده، بل على المستوى الكوني أيضاً. لك تحية قانون حمورابي، وتحية الأبجدية.

- ٥ -

هل تمكن، حقاً، البرهنة على صحة العقيدة بقتل من لا يؤمنون بها، أو بقتل من يرتدون عن الإيمان بها؟

أتذكر في هذا الصدد ما يقوله نيتشه:

"الدم يفسد أقصى عقيدة، يحولها إلى نوع من الهذيان (...). إنه أسوأ شاهد للحقيقة".

- ٦ -

الناظر الآن إلى الوضع العربي، السياسي والثقافي والاجتماعي، لا يقدر إلا أن يتذكر ألف ليلة وليلة في مختلف دلالاتها، وعلى جميع الأصعدة: "الخرافة" حقيقة عليا، والشياطين ملائكة، والفضاء قصر جنسي بلا حدود، والضحك ليس إلا فاجعة. ويكاد الكذب أن يكون، هو وحده، الصدق.

- ٧ -

تأخرت الولايات المتحدة والبلدان الأوروبية في اتخاذ القرار بمحاربة الإرهاب. وهو تأخر يعزوه بعض المحللين إلى انشغالها في كيفية الخلاص من "مخلوقات" هي، وما الخطط التي سترسمها، من جديد، لتشويق هذه "المخلوقات" وتسخيرها.

نأمل ألا تشطح بهم المخيلة، بحيث يتحول القرن الحادي والعشرون إلى قزن يكون الإرهاب اسفه الأول. وأتذكر سيكون امتداداً لرؤيا يوحنا. والسؤال الأشد رعباً وقلقاً في هذا الإطار هو: كيف سيبدو العالم العربي - الإسلامي - اليهودي، منظوراً إليه بعيني يوحنا، وبرؤياه؟ في هذا لأفق، أتمنى أن يطرح كل عربي على نفسه هذا السؤال: ماذا قدمت سياسة الولايات المتحدة للعرب، معرفة وعلماً وتقنية، خصوصاً في الميادين التي تساعدهم على الخروج من الثقافة القروسطية، وعلى التقدم، بدءاً من نشوء إسرائيل؟ أقول: العرب، لا الأنظمة.

والجواب هو أن هذه السياسة لم تقدم لهم إلا ما يشتلب أو يطمس حقوقهم في تلك الميادين - خصوصاً في التحضر، والتقدم، وفي الحياة الحرة الكريمة. وذلك يتجسد على النحو الأكثر وضوحاً ومباشرة في فلسطين.

إنها، بعبارة ثانية، تكرر موقف المؤسسين الأوائل من السكان الأصليين - الهنود الحمر، بتدميرهم من داخل، وإبادتهم، أفراداً وجماعات، وبخضرم ما تبقى منهم في "معازل" أو في "خيام" و"أكواخ".

هكذا، ليست قضية الفلسطينيين، بالنسبة إلى السياسة الأميركية، قضية "وطنية" حقاً، وإنما هي بالأحرى قضية "غالب منتصر" و"مغلوب منهزم". وبما أنها ليست "وطنية" فهي ليست "دولية". وتبعاً لذلك، ليس الفلسطينيون "مؤهلين" للانضمام إلى منظمات دولية. ومعنى ذلك، ضمناً، أنهم غير مؤهلين لكي يكونوا "دولة". وعليهم، تبعاً لهذا "المنطق"، أن

يتدبروا أمورهم مع "الغالب"، مع إسرائيل نفسها. فمصيرهم هو في يد إسرائيل، والقراؤ في هذا كله هو ما تقرره إسرائيل. هكذا لا تريد سياسة الولايات المتحدة أن تتخلى عن "ماضيها". فهي تعطي لإسرائيل الحق الكامل في إنهاء القضية الفلسطينية كما تشاء، وفقاً للزمان والمكان، ووفقاً للتصورات والخطط، تماماً على غرار ما فعل الأسلاف الأميركيون مع الهنود الحمر. يبقى على العرب، والفلسطينيين بخاصة، أن يتسابقوا إلى الدخول في البرنامج الذي تعده الولايات المتحدة لتدريب العرب على كيفية خفل السلاح للخلاص من الاستبداد والظفغان في البلدان العربية، طبعاً، مع "فروض" الإعجاب الكامل بـ"ديموقراطية" إسرائيل، و"احترامها" النموذجي لحقوق الإنسان وحرياته!

(جريدة الحياة، الخميس ٢٢ كانون الثاني/يناير ٢٠١٥)

VI

شرفات

هل انتهى مفهوم "الشرق"؟

- ١ -

فرضت الولايات المتحدة على العرب (والمسلمين) قبول السلام مع إسرائيل، لا القبول وحده، بل العمل من أجله كذلك، والوقوف ضد كل ما يعرقله، أو يحول دون تحقيقه. هي، في الوقت نفسه، تدعم السياسة الإسرائيلية في إصرارها المتواصل على ممارسة الحرب ضد الفلسطينيين، وعلى عدم الاعتراف بحقهم في إقامة دولتهم المستقلة. هكذا تنجح الولايات المتحدة في جعل الأنظمة العربية (والإسلامية) تقف، نظرياً وعملياً، إلى جانب سياساتها وسياسات إسرائيل معاً.

والسؤال المقلق (وإن كانت له أجوبة كثيرة) هو: ما الذي يجعل هذه الأنظمة تخضع، بهذه الطريقة التي تقارب الاستسلام الأعمى، لهذه الإرادة العالية الظالمة القتلة المهيمنة العابثة بأبسط الحقوق الإنسانية؟

هل ذلك عائد إلى طبيعة الأنظمة، وحدها، أم أن هناك أسباباً أخرى؟ علماً أن هذه الأنظمة لا تجد بين مواطنيها إلا من يناضل معها ضد سياسات الولايات المتحدة وضغوطها، وضد سياسات إسرائيل وعدوانها. وماذا يدور في رأس المسؤول العربي (والمسلم)؟ كيف يمكنه أن يتحمل مسؤولية إنسانية ووطنية وتاريخية بمثل هذه الضخامة - يتحملها، وكأنه لا يرى شيئاً، ولا يحس بأي شيء، وكأنها لا يحدث أي شيء؟

- ٢ -

لكن، لماذا يسيطر علينا طغيان "الخارج الأجنبي" إلى درجة ننسى معها طغيان "الداخل الوطني"؟ أليس "استقواء الخارج" آتياً من "استضعاف الداخل"؟

إن كيف يمكن نظام أن يجابه وحشية الخارج، إذا كان يمارس، هو نفسه، في الداخل نوعاً آخر من الوحشية؟ - الانتهاكات لمتواصلة لحقوق مواطنيه، السياسية والمدنية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. الطوارئ، المحاكم الاستثنائية. الاعتقالات الكيفية. منع المواطن من حق

امتلاك الصحف. من حق إنشاء الأحزاب والجمعيات والأندية. من حقوق الكلام والعمل... إلخ؟

كيف يقدر نظام، هذا شأنه، أن يتقدم في الداخل، أو أن يعارض هيمنة الخارج، فيما يفرق شعبه في الفساد الإداري بمختلف أنواعه، وفي المرض والفقر والبطالة والأمية والجوع والتلوث والتصحر، إضافة إلى شخ الماء، والتبعية الكاملة للإنجاز التقني الذي "يقدمه" له "العدو الغربي - الأميركي"؟

كيف يمكنه أن يتخلص من العبودية التي يفرضها "الخارج" وهو نفسه يستعبد شعبه؟ وبأي قوة يقاتل، وهو لا يتوقف عن تدمير منابع القوة في بلاده وشعبه؟

كيف يمكنه أن يدين "الثم" التي يوجهها إليه الخارج ويرفضها، وهو نفسه، في لفته الإعلامية والثقافية، يوجه التهم إلى مواطنيه، جزافاً وفي سرٍ كامل، وينظر إليهم، سلفاً، بصفته "مجرمين" إلى أن يثبتوا، هم أنفسهم، وعلى طريقته الخاصة، "براءتهم" - كما يريد، هو، حتى أن "اتهام" الآخرين الذين لا يرون ربه، أو يعارضونه، يبدو في لفته الإعلامية والثقافية كأنه "رياضة" قومية، يومية.

كيف يمكنه أن يرفض رقابة "الخارج" عليه، وهو نفسه يمارس الرقابة على "الداخل"؟ خصوصاً أن الجرم لا يكون في الكلام، مهما كان هذا الكلام اختراقياً أو "مخزباً". ولئن كان هناك جرم في عالم اللغة أو الكلام، فإن الرقابة هي، بالضبط، هذا الجرم.

عندما يمارس النظام الرقابة على الناس، فإن ذلك يعني أنه "يحارب" السلاسل التي تقيد المجتمع، بسلاسل أخرى أشدّ هولاً. ولئن كان المطلوب أن يتخذ المواطن موقفاً، أو يتبنى رأياً، فإنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، إن كان إنساناً واعياً، إلا إذا عرف جميع المواقف والآراء، عند جميع المواطنين.

وإنه لمخجل أن يتصدى لمحاربة القيود على الصحافة، مثلاً، في الخارج، بلد لا صحافة فيه إلا صحافة الحاكم.

الحق في قول كل شيء، في كتابة كل شيء، في التفكير بكل شيء، في سماع ورؤية كل شيء، حق طبيعي للإنسان - إلا ما كان فيه "أذى" للآخر مادي أو معنوي.

وإلا، كيف يمكن أن ينتقد معرفة الخارج بلد لا ينتج أي معرفة؟ وكيف يدافع عن "مقدساته"، وهو لا يمارس غير "الانتهاك"؟ وكيف ينتقد طغيان

الأخر، وهو لا يعطي الحق لأي مواطن في التعبير عن فكره، أو حرية الدينية، والاجتماعية؟
لا معنى لأي بلد إذا لم يُنتقد. بلد ليست فيه حرية النقد، بلد لا يُعاش فيه: لا يعيش فيه إلا الذين يقبلون بالحياة التي تشبه الموت.
كل ما لا يمكن نقده، ليس إلا سجنًا.

وكل سلطة تحرم المواطنين من حق المعرفة، معرفة كل ما يخض حياته وثقافته، ومن حق التعبير بحرية، إنما تحكم على نفسها: لا يعود لها أي حق في أن تمارس عليه أي سلطة. أما أن تحرمه حقوقه، وتمارس عليه "إرهابها"، فإنها في ذلك تشهد على نفسه بأنها سلطة استعباد، وبأنها حليفة موضوعية لسلطة "الخارج".

- ٣ -

ثقة أشياء كثيرة كامنة أو مكبوتة في أعماق الإنسان، كل إنسان. والسبب عائد إلى القمع الوحشي، على مدى التاريخ. وهي أشياء تبدو في معظم الأحيان كأنها تشوه فكر الإنسان وحياته، وكأنها تشلّه، عازلة إياه عن حركة الحياة العامة. وغالباً ما يكتفي النظام بمحاربة هذه الأشياء، وقمع أصحابها، من دون أي سؤال حولها هي، وعن أسبابها. وهي محاربة ترسخها، على العكس، ولا تلغيها. تحجبها مؤقتاً، لكنها تظل في الخفاء، في تأهب كامل، استعداداً للظهور في الأوقات المناسبة - مهما كانت محاربتها طاغية ووحشية. والأحرى، إذًا، والأفضل والأكثر إنسانية، أن يُتاح لأصحابها الحرية لكي يفصحوا عنها. الأجدى هو العمل على خلق المناخ الفكري والاجتماعي الذي يتيح لأصحابها أن يتخطوها - أن يفكروا بحرية لكي يتغيروا بحرية.

قلت مرّة إن السياسة العربية قضت على مفهوم "الوطن" وأحلت محله مفهوم "النظام". وأودّ، اليوم، أن أضيف فكرة أخرى هي أن هذه السياسة، بازديادها لكل ما هو ثقافي - أي لكل ما هو ميدان للإبداع، والتميز، والحرية، والتأصل، تسهم، على نحو كارثي، في إنهاء مفهوم "الشرق". ويبدو اليوم لمن ينظر بعمق إلى الوضع العربي، سياسة وثقافة واقتصاداً، أن مسألة العلاقة بين لشرق العربي والغرب الأوروبي - الأميركي لم تعد مسألة "استشراق". المسألة، اليوم، هي أن هذا "الشرق" نفسه يتغزّب. المسألة هي أنه يشرف على الانتهاء، بصفته "شرقاً". إنه الآن جهة جغرافية محضة. جسمٌ يتدحرج كالكرة في أقاليم الغرب. ويكاد،

اليوم، ثقافياً، أن يُصبح "سكيناً" أو "صحناً" في مطبخ البيت الأوروبي -
الأميركي.

ولن يكون لهذا الشرق قوام بالعودة إلى "ذاته القديمة" في مواجهة
"الذات الغربية"، كما يبشر بعضهم. وكلّ تحرّك في هذا الإطار السياسي -
الثقافي، وهو ما يهيمن الآن، لا يزيد هذا الشرق إلا ذوباناً في مصهر الغرب.
ولئن ضح القولُ إن مَخَوَ الحدود شفاء لجميع الجراح، فإن هذا النوع
من امحاء "الشرق" يخلق له جسداً ليس صالحاً حتى لكي يشعر بأي جرح.

(الحياة، ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣)

جاء في أسطورة ميديا (Médée) اليونانية أن جازون (Jason) أرسل، بعد تنحية أبيه عن الحكم، لحصول على "الجُزء الذهبية" في كولشيدا (Colchide)، في أقصى البحر لأسود. كان يحرس هذه الجُزء تليين يقتل كل من يقترب منه. ولهذا أرسل ملاً في أن يقتله التلين.

ركب جازون السفينة ارغو (Argo) وأبحر إلى كولشيدا. وعندما رآته ميديا (Médée) ابنة الحاكم، يزل من السفينة، وقعت في حبه على نحو جنوني، ولم تغد قادرة على أن ترفع بصرها عن وجهه.

يصف الشاعر أوفيد (Ovide) ميديا عندما رأت جازون، قائلاً: "حذقت في وجهه. ركزت عليه عينيها. بدا له، في هذيانها العشقي، أن قسمت هذا لوجه تدل على أن صاحبه ليس من البشر الفانيين. هكذا لم تعد قادرة على تحويل بصرها عنه".

يُشار هنا إلى أن كوكب الشمس، كما تقول الأسطورة، هو جد ميديا. وأن سيرسي (Circe) عفتها. وهذه هي نفسها الساحرة في ملحمة الأوديسييه التي وصفها هوميروس بأنها تحول الرجال إلى خنازير وأسود وذئاب. ويروي أن بطل الملحمة أوليس (Ulysse) أحبها وتزوج منها، وعاش معه شهراً كاملاً وأنجبت له ولداً.

فرض حاكم كولشيدا على جازون القيام بأعمال صعبة ومستحيلة، كانت ميديا تنقذه منه دائماً. وتنقذه كذلك من الموت في مواجهة الثيران التي تنفث الدخان واللهب.

وبفضل ميديا أيضاً ظفر جازون بالجُزء الذهبية. وقد هيمس عليه، حبه، فقتلت أحباها قبل أن يتمكن من قتلها معاً. واستسلمت بهياج شبه جنوني إلى جازون وتزوجت منه.

تتطور أحداث الأسطورة على نحو غريب ومزعج، فتعور ميديا على جازون الذي تخلى عنها، هي الأجنبية، لكي يتزوج يونانية هي ابنة الحاكم. وتتوخ ثورتها هذه بذبح ابنيها اللذين أنجبتهما منه. وتنتهي الأسطورة بهذا الذبح.

تتعدد وتتباين وجهات النظر في تفسير هذه الأسطورة. أهمها اثنان: ترى الأولى أن ميديا قتلت ولديها انقاماً من جازون أبيهما وحبيهما،

وترى الثانية أنها قتلتها، على العكس، رحمةً بهما وشفقةً عليهما.
وهما نظرتان تكشفان عن التمازج في الإنسان والعالم، بين الأبعاد
النفسية في تصرفات ابشر، والأبعاد التراجيدية.

في كل حال، ترمز هذه الأسطورة إلى جانب معقد من طبيعة الحروب
والصراعات في العالم اليوناني القديم، فهل ترمز كذلك، بعد آلاف السنين،
إلى جانب من طبيعة الصراعات والحروب في العالم العربي - قديماً
وحديثاً؟

لكن من "جازون" العربي؟ من "سيرسي" العربية؟ من "ميديا" الأجنبية
- العربية؟ وما تكون "الجزء الذهبية" العربية؟
في هذا الإطار ينهض هذا السؤال:

ما الذي يدفع الشعوب في بعض لحظات التاريخ إلى القيام بتصرفات
غير إنسانية تؤدي إلى السقوط في جحيم من المجازر والكوارث، الفردية
والجماعية؟

- ٢ -

كيف يظهر التوخش بين أحضان الإنسان، وفي كنف الآلهة؟ السؤال
تطرحه هذه الأسطورة. وهو سؤال يستدعي التبسيط في أسئلة أخرى.
مثلاً، من أين للتوخش هذه القدرة على الحضور حيث لا مكان له، مبدئياً؟
ما الغاية من هذا الحضور؟ هل يتم بإرادة من التوخش نفسه، أم يتم
 بإرادة إنسية؟ أو بإرادة تالفة أخرى؟ ولماذا ينتصر متنكر؟

وأين المؤرخون الذين يؤرخون لولادة التوخش الحديث، أو على الأقل
المعاصر، بدءاً من ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١؟ ولماذا تم اختيار هذه السنة؟
وهل هناك خصائص يتميز بها الإسلام العربي، في هذا الضدد؟

ولماذا اهتم الغرب المتقدم بعولمة هذا التوخش، وهي شكل آخر
لعولمة الإسلام والعرب، خصوصاً، على صعيد هذا التوخش؟

ولماذا لم يهتم هذا الغرب، على الأقل، بأصدقائه العرب المسلمين،
ويتبارى قاده في عولمتهم على صعيد العلم والتقنية والتقدم؟ صعيد
الجامعات النموذجية، ومراكز البحوث العلمية والفنية والاجتماعية، وعلوم
الفضاء وتقنياتها، ومؤسسات حقوق الإنسان وحرياته. ولماذا لم يفكر إلا
بتسليحهم وتحريض بعضهم ضد بعض، واختراع حروب متواصلة فيما
بينهم؟

لا وجه لهذا الغرب السياسي "الضديق".

إنه هو الآخر تقوده القعدة. والغذاء كله في الإنسان، نيناً أو مطبوخاً.
مذبوحاً أو مقتولاً. شيخاً أو طفلاً. امرأة ورجلاً.
والمجد، طبعاً ودائماً، لحقوق الإنسان وحرياته، وللإنسان نفسه، طبعاً،
الذي هو الغذاء الأسمى، والعائدة الأسطورية الأكثر بذخاً.

— ٣ —

تطوّر مفهوم الجمال، وتغير كثيراً:
صار ضرورياً أن تقترب الكتب التي تدرس القبح في الجمال، بتلك التي
تدرس الجمال في القبح.

— ٤ —

الذاكرة عندنا، نحن العرب، عمل آخر. بل هي العمل الأول، منذ عشرين
قرناً.

وهذه الذاكرة هي نفسها التي "نسينا" أن نطرح أي سؤال جذري على
أنفسنا.

كأن، نظراً وعملاً، مجزؤ ضلال لها.

ما السر في ذلك؟

أهو ديني؟ أهو نفسي؟ أهو ثقافي؟

ولماذا نخاف من التساؤلات والأسئلة؟ والخوف ليس فردياً فقط بل
هو جماعي أيضاً.

سأعيد هنا، "هرباً" من هذا الخوف، صياغة بعض الأسئلة: مثلاً،

١ - لماذا لا يزال كل بلد عربي، منذ خمسة عشر قرناً، ركاماً من
مجموعات قبلية ومذهبية، تتعايش في أفق الماضي، أفق الغلبة والعصبية
و"الأكثرية" و"الأقلية"، لا في أفق المستقبل، أفق المواطنة، والقانون
والحرية والمساواة والانتماء للمجتمع بوصفه وحدة إنسانية مدنية؟

٢ - لماذا لا نزال نفكر ونخطط ونتفاعل كأننا مجزؤ ذكريات وقبائل؟
أو كأننا نعيش في الذاكرة، في أوهامها وتخيلاتها؟

٣ - لماذا في هذا كله يبدو كل منا، في أعماله وأقواله وصراعاته، كأن
له قوة الرمل الذي لا يعرف العطش ولا الجوع، وكأن له إرادة ماكر عنيذ
يطبخ التراب والخصى، فيما يمارس هبوطه العميق المتواصل نحو الجذر،

مؤشوشاً ذاكرته: أنت خزانة الماضي، خزانة العلم، خزانة الحقيقة، باب المستقبل.

- ٥ -

الظفيان محو للذاتية.
فردٌ مُجيت ذاتيئه ليس إلا آله. ليس إلا شيئاً بين الأشياء. لا يعود
يشعر بمعنى الحزبة أو الإرادة أو معنى الاستقلال.
ويتيح الظفيان للطبيعة الوحشية أن تنمو، وأن تتغلب على الطبيعة
الإنسانية.

- ٦ -

كل شيء عندنا، نحن العرب، لغة. خصوصاً أن الله نفسه نطق به، وأنزل
كتابه على نبيه بها. الوحي يحوّل الواقع نفسه إلى لغة.
وليس الإنسان، في الممارسة، وفي النظرية، من يملك اللغة، بل اللغة
هي التي تملكه.
الإنسان العربي المسلم يحيا، عملياً، مملوكاً للغة وللواقع الذي تتحدث
عنه، وليس هو من يفكر. للغة هي التي تفكر عنه والتي تقوده، لا على
الأرض وحدها، وإنما في السماء أيضاً.

- ٧ -

كلّ لا أكره الشيخوخة،
مع أنني أكاد أن أتحرّك في ظلّ الموت.

- ٨ -

هذا الصباح، الخميس، الثامن عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠١٤، سيزول ولن
يعود غداً. لن يعود أبداً.

يعني ذلك أن صباحاً آخر لا عهد لنا به سيأتي بعده، ثم يجيء بعد ذلك
صباح آخر. هكذا إلى ما لا نهاية.
العالم في حركة دائمة من التجدد والتغير.
أنت لست أمسك أو حاضرك أو ما أنت الآن.
أنت أبعد من ذلك.
أنت الصباح الآتي.
أنت الفجر أبداً.
لا يتكرر الصباح هذا الكائن غيّر العاقل،
فبأي حق يتكرر الإنسان الكائن العاقل؟
وما بال إيديولوجيات لا تعلم إلا التكرار؟
ما أشقى التاريخ!

حول الحداثة العربية السياسية نظاماً وثورة

- ١ -

من أين له هذه القدرة؟
يفكر، يخطط، مخيلاً للآخر، "صديقه"، أنه هو الذي يخطط ويفكر.
تم يعمل ما يريد، لكن بيد هذا الغير "الصديق".

- ٢ -

كانت "الحداثة" الغربية، كم نسخها العرب، ناقصة. "ثورات الربيع العربي"
قضت على هذا النقص. هكذا يمكن القول إن هذه الحداثة اكتملت،
سياسياً، بوجهيها: "نظاماً" و"ثورة".

- ٣ -

الثورة، وفق هذه "الحداثة"؟ نعم، لكن من أجل مزيد من السلاسل، شأن
النظام.
الحزبة؟ نعم، لكن داخل الثقة، شأن النظام، أيضاً.

- ٤ -

ما الفرق بين "الفائر" في أمريكا اللاتينية، مثلاً، و"الفائر" في البلدان
العربية؟
وهل يمكن أن يكون للإنسان جسمان، واحد يبيعه، يومياً، وآخر يخونه
يوميّاً؟
حقاً، لا ثورة في المطلق. الثورة هي مستوى الفانرين.

ما هذا المسرح؟ الكذب على خشبته، هو وحده الضدق.

- ٦ -

أهناك علاقة بين هذين الفعلين؟ وما هي:
تأفلم، وتأفلم؟

- ٧ -

ما السبب في أن كل شيء في الحياة العربية يعمل على إخراج الإنسان
من ذاته، لكي يصبح شيئاً - مجزء شيء، أو آلة - مجزء آلة؟
يفصل بين "روحه" و"جسمه"، ويهذم كينونته.
يسجنه في الجمود المتواصل.

- ٨ -

الإنسان بوصفه إنساناً، في معزلٍ عن أفكاره ومعتقداته، لم يكن هماً
فلسفياً أو إنسانياً، في تاريخنا السياسي العربي. ولم ينشأ هذا الهم في
الغرب الأوروبي إلا بدءاً من الثورة الفرنسية. ويعني هذا الهم التوكيد على
كرامة الكائن البشري، وعلى القيم التي تتصفها، والاحترام الكامل الذي
تقتضيه.

وكان الرومان قد ميزوا، في القانون المدني الذي وضعوه، بين الإنسان
وغيره من الكائنات: فهناك الشيء (المادي)، وهناك الشخص (الإنساني).
ولا يجوز في أية حال أن يُعامل "الشخص" كما يُعامل "الشيء".
لكن ما نشهده في العالم، اليوم، عند العرب وغيرهم، يشير إلى أن
الإنسان يُعامل كأنه مجزء شيء: يُعذَّب، ويُشوّه، ويُقتل بأشكالٍ أكثر عنفاً
ووحشية من تلك التي عرفها تاريخ التوحّش. كانت تلك الأشكال وليدة
الفوضى "البدائية"، أما هذه فهي وليدة النظام "المتحضر". وهي، إذاً،
الأكثر امتهاناً لإنسانية الإنسان.

وما حدث في "تورات الربيع العربي"، على هذا الصعيد، سيكون شهادة
"تاريخية" مريعة على امتهان كرامة الإنسان، بشكلٍ قلماً عرفه تاريخ
البشرية، حتى في أشدّ عصورها ظلاماً وتخلّفاً.

سيكون أيضاً شهادةً ضدَّ منظَّمة الأمم المتحدة، ومنظَّمات حقوق الإنسان، وضدَّ الثقافة على المستوى الكوني.

- ٩ -

من أين تجيء هذه "الثقافة" إلى المجتمعات العربية - الإسلامية؟ لنقل، بحثاً عن جواب، إنَّ هناك فئاتَ تكفيرية تفهم الذين على نحو غير فكري. وغير الفكري هو بالضرورة غير إنساني. إنها فئات تفهم الدين بوصفه "امتيازاً"، و"استثنائاً"، وبوصفه تبعاً لذلك "مُلْكاً"، أو "سلطةً" مُطلَقة. هكذا يصبح الذين ظاهرةً نفسية، وينفصل، بشكلٍ كامل، عن الفكر ومقتضياته، منهجاً ومعرفةً. الذين، كما تمارسه هذه الفئات التكفيرية، إنما هو دين إيمانٍ مخض. (وهناك في اليهودية والمسيحية فئاتٌ تشبه في معتقداتها الدينية هذه الفئات).

نزغ الإنسانية عن الإنسان يتيح النظر إليه بوصفه مجرد كائن حيواني، ويؤذي إلى أن يُعامل كما يُعامل الحيوان. هؤلاء ينظرون إلى الإنسان، المختلف، من حيث هو "مؤمن" أو "كافر". وهم لذلك لا يحاربون "فكره"، وإنما يحاربون "شخصه".

أن يحارب الإنسان بوصفه "شخصاً"، لا "فكراً"، يعني أنه مجرد شيء - جسم. وإذا، يجوز قتله.

والقتل هنا يعني تطهير الأرض من ذلّس الكفار ورجسهم. فهؤلاء "يُفسدون" الأرض، و"يشوهونها".

نسمع أشخاصاً يؤيدون هذه الممارسات "الدينية" دعماً لها، أو صمتاً عنها، ولا يتوقفون، في الوقت نفسه، عن لكلام على الديمقراطية، والحريات، وحقوق الإنسان.

هل مات "الإنسان" فعلاً في الإنسان، استتباعاً لما كان يقوه فوكو؟

- ١٠ -

من أنا؟

أنا هو جسمي. جسمي هو أنا.

الإنسان إنسان بجسمه، أولاً. جسمه هو شخصه.

ليس الجسم "غلافاً" أو "إناء" لشيء اسمه "الروح"، أو "الإنسانية".
الجسم هو نفسه التجسيد الحي، الأكمل، للإنسانية الإنسان. الجسم هو
الشخص نفسه، وهو، إذاً، هويته. تعذيبه هو تعذيب للهوية الإنسانية،
لمعنى الإنسان. وتعذيب هذا المعنى في الشخص هو تعذيب للإنسانية
كلها.

يصعب، معرفياً، أن يؤكد الإنسان قائلاً إن "روحي" غير "جسمية"،
قطعاً، وإن "جسمي" غير "روحي" قطعاً.

- ١١ -

سؤال يطرحه علي قارئ:

"لماذا كان أصحاب الأمبراطوريات القديمة يمتطون عربات الخيل في
الحرب والسلام، بينما يمتطي أصحاب الأمبراطوريات الحديثة عربات
خاصة مصنوعة من أعضاء الجسم البشري، ومن الرؤوس والقلوب على
الأخص؟

سؤال لا تتيح لي معرفتي بالامبراطوريات أن أجيب عنه. لذلك، أحيله
على العارفين المختصين، وأعتذر لهذا القارئ العزيز.

- ١٢ -

عادةً، للتاريخ غيومٌ كان بعض الشعراء يصفونها بأنها ينابيع. فما لغيوم
التاريخ، اليوم، تحولت إلى صهاريج؟

- ١٣ -

يحب الطبيعة. يحب، على الأخص، طيورها ذات الأجنحة المزركشة،
وبينها الهدهد. هكذا رأى نفسه ذات يوم، مدفوعاً بهذا الحب، ينصب فخاً
للهدهد.

غير أنه ترك على باب الفخ ورقة كتب عليها هذا السؤال:
"أهناك، حقاً، طائرٌ أكثر جمالاً من الهدهد؟"

- لماذا لا يزال الماضي يراوح مكانه؟
- ربما، لأن الحاضر غائب أبداً.
- وهؤلاء الذين يتحركون في الشوارع؟
- يعيشون، ولا يعرفون أنهم لم يولدوا بعد.

(يناير، ٢٠١٤)

- ١ -

جُزيت في الحياة العربية جميع أشكال الحكم، لكن لم يتغير في المجتمع أي شيء من الأشياء التي يجب أن تتغير. جُزيت حتى الثورات، وكانت النتائج أكثر سوءاً.

بقيت الضخرة إياها.

إن شئنا حقاً أن نتغير ونغير، فلا بد من أن تنكسر الضخرة ذاتها. سيزيف،

لا تزال الطريق طويلة وشاقة.

- ٢ -

يدافع المفكر الفرنسي جان - فرانسوا ليوتار (Jean François Lyotard) عن حق الإنسان في عدم التعبير، في لضمته، قائلاً ما خلاصته: "لا معنى لحق الإنسان في حزية التعبير، إذا لم يكن له الحق أيضاً في حزية عدم التعبير، أو حزية الصمت".

تاريخياً، في المجتمع العربي، مورس هذان الحقان، لكن بوصفهما موضوعياً، الخطر الأكبر على الحياة:

هناك من "عبر" عما يؤمن به حقاً، فكانت حياته تمناً لهذا التعبير،

وهناك من لم يُعبر، أو من صمت، ففرغت حياته من المعنى، عدا أنه عاش "متهماً".

فلم يكن العربي، يوماً، خراً في أن "يتكلم" ولا "خراً" في أن "يصمت"، إلا في إطار "القاعدة":

- هناك "مضرخ به"، يتأخ فيه القول، مبدئياً،

- وهناك "مسكوث عنه"، يجب تجنبه، مبدئياً.

هكذا عاش الفرد العربي في حالة من التخلي عن جميع "حقوقه" من

أجل القيام بواجباته "المفروضة" عليه، برقابة مزدوجة:

رقابة "أهل السلطة"،

ورقابة "أهل المعارضة".

الزقابة جزءٌ عُضويٌّ في بنية المجتمع العربي - الإسلامي، سياسةً، واجتماعاً، وثقافةً. فهي ليست مجرد عملٍ سلطوي، وإنما هي عملٌ اجتماعيٌّ ثقافي. والفرد في هذا المجتمع يولد "مُقيداً"، خلافاً للقول المنسوب إلى الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب: "متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً". وليست حياته إلا نضالاً من أجل أن يُفَلِّت من هذا القيد، فيما يمضيها "مُتَّهماً" سلفاً، و"مُطالباً" بتأكيد "براءته"، قولاً وعملاً.

- ٣ -

إذا كان الفرد في المجتمع الذي ينتمي إليه، لا يستطيع أن يختار ما يكون هويته الشخصية الإنسانية: الفكر الذي يشاء، وأن يكون سيد إرادته، وحياته، ومصيره، فإن ذلك يعني أنه مجرد "لفظ" وأنه فعلياً غير موجود، أو لم يولد بعد.

أو لنقل، بصيغة أخرى، إن فرداً هذا شأنه لا يكون موجوداً في المجتمع إلا بوصفه عدداً أو رقماً. وتبعاً لذلك، لا يكون المجتمع نفسه إلا خريطة أعداد وأرقام.

وما المعنى الإنساني لمثل هذا المجتمع؟ ما معنى سياسته، وثقافته، وفنه؟ وما معنى وجوده بالذات؟

خصوصاً أن مثل هذا المجتمع "مُرَكَّبٌ" لكي لا يقدر أن يعيش إلا بوصفه طغياناً في الداخل، وتبعيةً للخارج، وعالةً عليه.

تلك هي مسيرة المجتمع العربي منذ أن هيمنت عليه الخلافة العثمانية. يعيش دون رؤية، دون مشروع، ودون علم، ودون فن، ودون فلسفة، ودون عمل، غير الاقتتال الفذهبي، والقبلي، والظانفي، وتكفير الناس بعضهم بعضاً، وذبح بعضهم بعضاً. وما يحدث الآن في العالم العربي من أعمال وأفكار هي مما تحت الإنسانية ومما دونها، لم يحدث ما هو أفظع منه في أي بلد في العالم وفي أية مرحلة من تاريخ البشرية.

ويفرك "الحلفاء" من أهل الغزب، السياسي بخاضة، أيديهم، قائلين: "لا شأن لنا في هذا كله، وفي ما يحدث. هذا ما يريد المسلمون. ويطلبون منا أن نساعدتهم. ونحن نساعدهم في ما يريدون، ولا نقدر أن نفرض عليهم الحرية، أو العلم، أو الديموقراطية أو التقدم".

أينما سرنا في الأرض العربية، يمكن أن تنخسف بنا. إنها صحراء هائلة من الأقبية العميقة، المموهة. تغطيها أوراق خريف أو شتاء، ربيع أو صيف، لا فرق. إذ لا معنى فيها للزمن ولا قيمة له. وعلى الزغم من "ناطحات سحابها"، تغطيها خرق نايلون وبلاستيك وتلك وورق مقوى - لا فرق. إنها اليوم الأرض - المهزب:

يهرب منها "بعضهم" في حربه على "الكفار"، طلباً للنعيم الإلهي،
ويهرب منها "بعضهم الآخر"، إلى حيث يقدر أن يفكر ويعمل بحرية
وكرامة، ولو كان ذلك في الجحيم، أي جحيم أرضي.
وتنهمز من كل صوب أشكال كثيرة من التشجيع والدعم والعون إلى أولئك وهؤلاء. وتتنامى الأسطورة في المخيلة التي ترتبط عضوياً بالماضي، ذاكرة وثقافة على السواء، عصبية وقبليّة على السواء، في مكان لا حدود له، يتسع السماء والأرض. غير أنه يتأرجح، ماذياً وغريزياً، بين "البداءة" - لأصل والفنّيع، من جهة، والغزو - فتحاً وسلباً ونهباً، من جهة ثانية. بين الخيمة والمدينة، وفي صورة مزدوجة:
الأرض طلل، مكان تنقل وارتحال، مكان الموت،
والسماء مكان - حدائق وبساتين وأنهار لبن وغسل، وولدان وحور عين، مكان البقاء والخود.

بدءاً من الخلافة العثمانية وحتى اليوم، مات أسلاف لنا جميعاً، غصباً عنهم، مجنّدين مقيّدين، في حروب ليست حروبهم، دفاعاً عن قضايا ليست قضاياهم. وليست دماؤهم مجرّد نهر موسمي فاض وجف، وإنما هي ينابيع تتدفّق في الفصول كلّها. وليس "سفر برك" نموذجها الوحيد، وإنما هناك نماذج عديدة، سبقته أو جاءت بعده.
من أين يجيء هذا الغياب الهائل للإنسان العربي في هذا العالم العربي؟

من أين يجيء هذا الحضور الهائل في هذا العالم، للآلة - آلة القتل والقتل والدمار والخراب؟
ومن أين هذه الدعوة إلى ذبح بعضنا بغضاً، وأكل بعضنا بعضاً، كغيرنا من المخلوقات الأخرى، إن كنا حقاً، على اختلافنا، أبناء طينة واحدة

وخالقٍ واحد؟ ولماذا يُفْضَلُ لنا الموتُ على الحياة؟ ولماذا العمل على تحويل هذا الكوكب الأرضي، الأجل بين الكواكب، إلى مجزرة متواصلة وإلى مقبرة مفتوحة أبداً حتى ليُخَيَّلَ كأن الأرض نفسها تكاد أن تصرخ سائلة خالقها: لماذا خلقتني لكي أحيأ، أنا ومن علي، في أبدية العذاب؟

وها نحن، يا شجرة المعنى،

بعض أغصانك، بعضنا، موجود غير موجود،

لا يستطيع أن يقول جهاراً حتى هذه الكلمة ذات الأحرف الثلاثة: نعم!

لا يستطيع أن يتلفظ جهاراً حتى بهذه الكلمة ذات الحرفين: لا!

يا شجرة المعنى،

متى ستهب عليك رياح الصور؟

للشاعر

(أثّرنا، اختصاراً، أن نكتفي بالإشارة إلى الطبعتين الأولى، والأخيرة).

(١) شعر

قصائد أولى، ط١، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٥٧؛ طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

أوراق في الريح، ط١، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٥٨؛ طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

أغاني مهيار الدمشقي، ط١، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٦١؛ طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل، ط١ المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٥؛

طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

المسرح والمرايا، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٨؛ طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

هذا هو اسمي، بيروت، ١٩٧٠.

مفرد بصيغة الجمع، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٧؛ طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

كتاب القصائد الخمس، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩.

كتاب الحصار، دار الآداب، بيروت ١٩٨٥.

شهوة تتقدم في خرائط المادة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧.

احتفاء بالأشياء الغامضة الواضحة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

أبجدية ثانية، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٤.

الكتاب I، دار الساقى، بيروت، ١٩٩٥.

الكتاب II، دار الساقى، بيروت، ١٩٩٨.

الكتاب III، دار الساقى، بيروت، ٢٠٠٢.

فهرس لأعمال الريح، دار النهار، بيروت، ١٩٩٨.

أوّل الجسد آخز البخس الطبعة الرابعة، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٠.

ثَنَبًا، أيها الأعمى، الطبعة الرابعة، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٠.

تاريخ يتمزق في جسد امرأة، الطبعة الثالثة، دار الساقى، بيروت، ٢٠١١.

اهدا، هاملت تنشق جنون أوفيليا، الطبعة الثانية، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٢.

وذاق يبيع كتب النجوم، الطبعة الثانية، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٢.

ليس الماء وحده جواباً عن العطش، دبي الثقافية، ٢٠٠٨.

فضاء لغبار الطلع، دبي الثقافية، ٢٠١٠.

كونشيرتو القدس، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٢.

زوكالو، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٤.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة

ديوان أدونيس، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧١؛ ط٣، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩.

الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥؛ الطبعة الخامسة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨.

الأعمال الشعرية الكاملة، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، ١٩٩٦.

- الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول ١٩٤٩-١٩٦١، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٣.
- الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الثاني ١٩٦٥-١٩٧٠، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٣.
- الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الثالث ١٩٧٥-١٩٨٠، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٤.
- الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الرابع ١٩٨٢-١٩٩٤، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٤.
- الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الخامس ١٩٩٨، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٤.
- الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء السادس ٢٠٠٣-٢٠٠٧، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٤.
- الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء السابع ٢٠٠٨، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٤.
- الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الثامن ٢٠١٠، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٥.

(٣) مسرح

أشجار تنكئ على الضوء، بدايات، دمشق، ٢٠١٠.

(٤) دراسات

- مقدمة للشعر العربي، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧١؛ طبعة جديدة منقحة ومزودة، دار الساقى، بيروت، ٢٠٠٩.
- زمن الشعر، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢؛ ط٦ مزودة ومنقحة، دار الساقى، بيروت، ٢٠٠٥.
- الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، الطبعة التاسعة (مزودة ومنقحة، في أربعة أجزاء):
- ١ الأصول،
 - ٢ تأصيل الأصول،
 - ٣ صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني،
 - ٤ صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري.
- دار الساقى، ٢٠٠١.

فاتحة لنهايات القرن، الطبعة الأولى، دار العودة، بيروت، ١٩٨٠؛ ط ٣،
دار الساقى، ٢٠١٤.

- سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥.
الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥.
كلام البدايات، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠.
الصوفية والسوريالية، دار الساقى، بيروت، ١٩٩٢.
النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.
النظام والكلام، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.
ها أنت أيها الوقت، (سيرة شعرية ثقافية)، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.
موسيقى الحوت الأزرق، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢.
المحيط الأسود، دار الساقى، بيروت، ٢٠٠٥.
رأس اللغة، جسم الصحراء، دار الساقى، بيروت، ٢٠٠٨.
محاضرات الاسكندرية، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٨.
غبار المدن يؤس التاريخ، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٥.

٥) مختارات

- مختارات من شعر يوسف الخال، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٦٢.
ديوان الشعر العربي،
الكتاب الأول، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤.
الكتاب الثاني، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤.
الكتاب الثالث، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٨.
ديوان الشعر العربي (أربعة أجزاء)، الطبعة الخامسة، منقحة ومزودة،
دار الساقى، بيروت، ٢٠١٠.
ديوان البيت الواحد في الشعر العربي، الطبعة الأولى، دار الساقى،
بيروت، ٢٠١٠.
مختارات من شعر السياب، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٧.
مختارات من شعر شوقي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت،
١٩٨٢.
مختارات من الكواكبي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.
مختارات من محمد عبده (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت،
١٩٨٣.
مختارات من محمد رشيد رضا (مع مقدمة)، دار العلم للملايين،
بيروت، ١٩٨٣.

مختارات من شعر الزهاوي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.

مختارات من الإمام محمد بن عبد الوهاب (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.
(الكتب الستة الأخيرة، وُضعت بالتعاون مع خالدة سعيد).

٦) ترجمات

حكاية فاسكو، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٢.
السيد بوبل، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٢.
مهاجر بريسبان، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٣.
البنفسج، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٢.
السفر، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٥.
سهرة الأمثال، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٥.
مسرح جورج شحادة، طبعة جديدة، بالعربية والفرنسية، دار النهار، بيروت.

الأعمال الشعرية الكاملة لسان جون بيرس،
منارات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٦؛ طبعة جديدة،
دار المدى، دمشق.
منفى، وقصائد أخرى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨.
مسرح راسين
فيدر ومأساة طيبة أو الشقيقان العدوان، وزارة الإعلام، الكويت،
١٩٧٩.

الأعمال الشعرية الكاملة لإيف بونفوا، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦.
كتاب التحولات، أوفيد، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢.
الأرض الملتهبة، دومينيك دوفيلبان، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٥.

”ميدان التحرير“: فاتحة لبدائيات القرن؟

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

يكشف «الربيع العربي» عن هيام عريق عند العرب، هو هيام الانشقاق والرفض، ذلك الذي عرفه تاريخنا في جميع مراحل. فهو جزء عضوي من البنية السياسية العربية، منذ نشوء «الدولة» الإسلامية الأولى، «دولة» الخلفاء.

وكان جمهور هذا الهيام اثنين: الأول غير منظم، مجموعات من الأفراد، تطالب بمزيد من الحريات والحقوق، في الميادين المعرفية بخاصة، دون اهتمام مباشر بالسلطة. والثاني منظم يعمل، أساساً، على الوصول إلى السلطة واستلام مقاليدها.

يؤكد لنا هذا الواقع التاريخي أن الثورة في المجتمع العربي لا تتم إلا إذا كانت قطيعة مع ماضيه المتواصل: لا مع السلطة وحدها، وإنما مع البنى والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والدينية.

سقوط هذه الأنظمة، إذاً، ليس ضرورة تاريخية وثقافية فقط، وإنما هو أيضاً ضرورة إنسانية. لقد عرف العربي في تاريخه القديم كثيراً من المهانة والإذلال، غير أن أوج هذه المعرفة يتمثل في تاريخه الحديث، تاريخ «الربيع العربي»... (من مقدمة المؤلف)

نبذة عن المؤلف

علي أحمد سعيد، شاعر سوري، ولد في 1930 بقرية قصابين في سوريا. تبنى اسم أدونيس تيمناً بأسطورة أدونيس الفينيقية، الذي خرج به عن تقاليد التسمية العربية منذ عام 1948. أصدر مع يوسف الخال مجلة «شعر» عام 1975. ثم أصدر أدونيس مجلة «مواقف» بين عامي 1969 و 1994. درس في الجامعة اللبنانية، ونال درجة الدكتوراة في الأدب عام 1973 من جامعة القديس يوسف. أستاذ زائر في جامعات ومراكز للبحث في فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة وألمانيا. نال عدداً من الجوائز العالمية وألقاب التكريم وترجمت أعماله إلى لغات عديدة.

«الأعمال الشعرية الكاملة»، «أهدأ هاملت تنشق جنون أوفيليا»،
«تاريخ يتمزق في جسد امرأة»، «تنبأ أيها الأعمى»، «ديوان البيت
الواحد»، «ديوان الشعر العربي»، «رأس اللغة جسم الصحراء»، «زمن
الشعر»، «الكتاب: أمس المكان الآن 1»، «الكتاب: أمس المكان 2»،
«الكتاب: أمس المكان الآن 3»، «المحيط الأسود»، «وزاق يبيع كتب
النجوم»، «فاتحة لنهايات القرن»، «الصوفية والسوربالية»، «مقدمة للشعر
العربي».